الموسوعة التربوية في نهج البلاغة الشريف

١

منهاج الحياة الشريفة

البناء الاجتماعي

شرح وتحليل لوصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عند انصرافه من صفين

تأليف
صباح الصافي

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

DARALKAFEEL

الصافي، صباح، 1977- مؤلف.
مناهج الحياة : البناء النفسي : شرح وتحليل لوصية أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام لولده الأمام الحسن المجتبى عليه السلام عند انصرافه من صفين / تأليف صباح الصافي ؛ المراجعة العلمية واللغوية جمعية العميد العلمية والفكرية.- الطبعة الاولى.-كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، جمعية العميد العلمية والفكرية، قسم الموسوعات والمعجمات، 1446 هـ. = 2025.
2 مجلد ؛ 24 سم. (الموسوعة التربوية في نهج البلاغة ؛ 1)
المحتويات : المجلد الاول. البناء النفسي-- المجلد الثاني. البناء الاجتماعي.
يتضمن ارجاعات ببليوجرافية.
ISBN : 9789922262062 (Vol.1)
ISBN : 9789922262079 (Vol.2)
1. علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام، 23 قبل الهجرة-40 هجري--وصية. 2. الحسين بن علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام، 4-61 هجري. 3. الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى، 359-406 هجري. نهج البلاغة. 4. التربية الاسلامية (شيعة). أ. العتبة العباسية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. جمعية العميد العلمية والفكرية، مصحح. ب. العنوان.

LCC: BP193.1.A2 S24 2025

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
الفهرسة أثناء النشر

٤١٤
ص ٢٧٩ الصافي، صباح
الموسوعة التربويَّة في نهج البلاغة منهاج الحياة البناء الاجتماعي/ صباح الصافي . – ط١.- كربلاء: جمعيَّة العميد العلميَّة والفكريَّة، ٢٠٢٥
256 ص ; ٢٤سم،
١ – البلاغة العربيَّة – ٢- الاجتماع التربوي – ٣- علي بن أبي طالب (عليه السلام) (الإمام الأوَّل) – ٤- أهل بيت النَّبي (صلَّى الله عليه وآله) –
أ-العنوان
رقم الايداع / ٣٨٧٦/ ٢٠٢٥
المكتبة الوطنيَّة / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٨٧٦) لسنة (٢٠٢٥)

ISBN : ٩٧٨٩٩٢٢٢٦٢٠٧٩

حقوق النَّشر والتَّوزيع محفوظة للعتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة – جمعيَّة العميد العلميَّة والفكريَّة

الرمز البريدي للعتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة ٥٦٠٠١

رقم صندوق البريد (ص.ب) (٢٣٢)

كربلاء المقدَّسة – جمهوريَّة العراق

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م- ١٤٤٧هـ

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

جمعية العميد العلمية والفكرية   دار علوم نهج البلاغة

الموسوعة التربويَّة في نهج البلاغة

مِنْهَاجُ الحَيَاة

(البِنَاءُ الاجتِمَاعِيّ)

تأليف: صباح نعيم جاسم الصافي

الإشراف: أ.د.كريم حسين ناصح الخالدي

النَّاشر: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة – جمعيَّة العميد العلميَّة والفكريَّة

قسم الموسوعات والمعجمات

المراجعة العلميَّة: أ.د.عباس علي حسين الفحام / م.د.محمَّد حسن جابر

التدقيق اللغوي: د.عمار حسن عبد الزهرة

التَّصميم و الإخراج الطباعي: كرار عامر الصافي / أحمد محسن الحسيني

الطباعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

عدد النسخ: ٥٠٠

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م- ١٤٤٧هـ

الفَصلُ الأَوَّلُ

البِنَاءُ القِيَمِي للمُجتَمَع

المبحَثُ الأوَّلُ

مبَادئ التَّكَامل الإِنسَانِي

المطلب الأوَّل: معايير سامية للعلاقات الاجتماعيَّة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ**»[١].

بعدَ أن أشارَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام إلى كنوز الحكمةِ في معرفةِ اللهِ جلّ جلاله، وبيان معالم العالم الذي نعيشُ فيه، والسَّبيل إلى تهذيبِ النَّفس، وعلاقتنا بالدُّنيا والآخرة؛ جاء لينظِّم العلاقةَ بيننا وبينَ المجتمع، فأوردَ قواعد عدَّة هي بمثابة دستور لتنظيم هذه العلاقة؛ فالعلاقةُ مع الآخرينَ تتطلَّبُ علمًا وفهمًا مستقيمًا من مصدرٍ أصيل؛ ومن أصولِ الحكمةِ سيد الأوصياء، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

إنَّ العلاقَةَ مع الآخرين تلعب دورًا أساسيًّا في تشكيلِ توجُّهاتِ الفردِ وسلوكِهِ، وكلَّما خضعت هذه العلاقة لضوابط مستمدَّة من الفكر المعصوم، كانت نتائجها أكثر أمانًا وآثارها أطيب ثمارًا؛ لأنَّ الاستقامة والإيمان لدى الإنسان يتأرجحان صعودًا وهبوطًا تبعًا لطبيعة هذه العلاقة.

ويمكنَ القول: إنَّ توضيحَ قواعد تهذيب النَّفس التي أوردها الإمام عليٌّ عليه السلام قبلَ الوصولِ إلى هذا المقطع يُسهم في بناءِ شخصيَّةٍ صالحة، والصَّلاح أساس السلوك القويم في التَّعامل مع جميع أفراد المجتمع.

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٤٨.

إنَّ الالتزامَ بهذهِ الحكمة العلويَّة كفيلٌ بتنظيم العلاقاتِ الإنسانيَّةِ كافَّة، وجعْل المجتمع أنموذجًا مصغَّرًا للجنَّة على وجهِ الأرض.

الفرع الأوَّل: نظام التَّوازن الاجتماعي

قال عليه السلام: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

كلمةٌ موجزة تحملُ في طيَّاتها دستورًا أخلاقيًّا رفيعًا، وترسم وتبيِّنُ الطَّريقة الصَّائبة في التَّعامل مع النَّاس؛ إنَّها العدل والإنصاف بأن يجعل لنفسه معيارًا في التَّعامل مع الآخرينَ؛ إذ الميزان ذو كفَّتينِ، والوزن الصَّحيح يتمُّ عندما تكون الكفَّتانِ متساويتينِ بالخَطِّ الأفقي، لا أن يرى لنفسِه تميُّزًا يترفَّع بِه عن باقي النَّاس، فيجوِّز لنفسه ما لا يجوِّز لغيره، وإذا ما حصل ذلك فهنا سيختلُّ نظام التَّوازن الاجتماعي، وتضعف أواصر التَّرابط والمحبَّة؛ حتَّى تتلاشى، وتتحول إلى غابة يأكل فيها القويُّ الضَّعيفَ، ولو أنَّ الإنسانَ تأمَّل هذه الكلمة وتدبَّر معانيها يوميًّا، ثمَّ سعى لتطبيقِها عمليًّا في حياتِه، فإنَّها ستقودُهُ بخطًى ثابتة نحو ميادينَ الخيرِ والصَّلاحِ والفلاحِ، محوِّلةً العلمَ النَّظريَّ إلى واقعٍ عمليٍّ ناجح.

إنَّ معظمَ المشاكل والتَّعقيدات التي تنشأ بين أفرادِ المجتمع، وما يتبعها من نتائج؛ على سبيل المثال التَّوتر والعداوة والحقد، تعود أساسًا إلى غياب الإنصاف في التَّعامل، والطَّلب من الآخرينَ حاجات لا يؤدُّونها إليهم لو طلبها منه غيرُه؛ ومثالُ ذلكَ من يطلب احترام النَّاس وتبجيلَهم؛ ولكنَّه لا يعامل النَّاس بالمِثل، أو يرى العيوب في النَّاس ولو كانت بمقدار الذَّرَّة؛ ولا يرضى بأن ينتقده شخص على عيوبه؛ ولو كانت مثل الجبال.

إنَّها رؤيةٌ بعينٍ واحدةٍ، وكيْلٌ بكفَّةٍ من دون أخرى، وخلاصة قاعدة التَّوازن الاجتماعي:

كما توزن بالميزان الأشياءَ فيعرف تساويها؛ كذلك يلزم على الإنسان أن يجعل ذاته محايدًا بين شخصينِ؛ أحدهما نفسه، والآخر غيره، فيعطي الاثنين بالتَّساوي(١).

إنَّها قاعدة توفِّر على الفرد والمجتمع التَّعب والمشقَّة، وتتيح لهم العيش في جوٍّ من المحبَّة والتَّسامح والتَّعاون.

ولا بدَّ من الالتفات أنَّ هذا الأصل، وإن ورد بعض أجزائه في كلماتِ السَّابقينَ إلَّا أنَّه لم يردْ بهذه السِّعة والشُّموليَّة.

تساؤل مهم:

قد يسأل سائل: لماذا أمير المؤمنين(عليه السلام) فصَّل بعد إجمال القاعدة، وكان يمكن الاكتفاء بالقاعدة من دون تفصيلها؟

وجواب ذلك: إنَّ هناك في اللغةِ العربيَّةِ موضوعًا مهمًّا؛ ألا وهو الإجمال، والتَّفصيل؛ والإجمالُ في اللغة الايجاز والاختصار، «وذلك من أجْمل في الكلام؛ ساقه موجزًا وذكره من غير تفصيل»(٢).

وأمَّا التَّعريف الإصطلاحيِّ فهو قريب من المعنى اللغويِّ؛ إلَّا أنَّهم أضافوا له الخفاء.

أمَّا التَّفصيل؛ «يُراد به البيان»(٣)، وموضوعُ أسلوبِ التَّفصيل بعد الإجمال من الأساليب التي تحتاجُ إلى دراسةٍ مستقلَّةٍ لا يسعها هذا المختصر، وسنحاول أن نركِّز على أهمِّ فوائده:

١- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٢.

٢- معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد (ت: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، الطبعة: الأولى: ج ١، ص ١٣٩٧.

٣- لسان العرب: ج ١١، ص ٥٤٢.

«وتعريف هذا الأسلوب: هو أسلوب بلاغي يرد فيه الكلام ابتداءً بإيجاز، واختصار لغرض بلاغيٍّ، ثمَّ يتبعه بيان وتفسير محدَّد بموطن، ويربطهما رابط معلوم، ومن أهمِّ فوائد هذا الأسلوب:

١. بيانُ المعنى في صورةٍ متكاملة.

٢. بيانُ الحكمة.

٣. تعميقُ القواعد وتثبيتها في النُّفوس.

٤. التَّشويق لفهم القاعدة المجملة.

٥. التَّأكيد على تطبيقِ القاعدةِ، وتفعيلِها، والعملِ بها»[١].

وكلُّ هذه النِّقاط وغيرها نجدها في التَّفصيل الذي أشار إليه أميرُ المؤمنينَ عليٌّ عليه السلام.

الفرع الثَّاني: تفصيل القاعدة:

لم يكتفِ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام بالمعنى الإجمالي، أو باللفظ الإجمالي للقاعدة، وإنَّما أخذ يفصِّل، ويبيِّن ذلك لأهميَّة هذا الموضوع في صلاحِ الفردِ والمجتمعِ، ومن ثمَّ صلاحُ العلاقةِ مع الله عزَّ وجلَّ.

ومصاديق هذا الأصل وتفصيله على وفق وجوه عدَّة:

١. أن يحبَّ لغيرِهِ ما يحبُّ لنفسهِ، ويكرهُ له ما يكرهُ لها.

٢. ألَّا يظلم أحدًا كما لا يحب أن يُظلمَ، وهذه النُّقطة كفيلةٌ بأن تقتلعَ جذورَ الظُّلم من مكانها.

٣. أن يحسنَ إلى النَّاس كما يحبُّ أن يحسنَ إليهِ.

١- ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (ت: ١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ١٤٢١هـ، الطبعة: الرَّابعة والعشرون: ص ٣٠٩.

٤. أن يستقبحَ من نفسِه ما يستقبحهُ من غيرِه.

٥. أن يرضى من النَّاس ما يرتضيه لهم من نفسِه.

٦. ألَّا يقولَ ما لا يعلم، وإن قلَّ ما علم.

٧. ألَّا يقول ما لا يحبُّ أن يقالَ له.

نتائج العمل بهذا الأصل:

إنَّ تفعيل هذا الأصل في مجالِ التَّواصلِ والتَّعامل بينَ أفرادِ المجتمعِ كفيلٌ بحلِّ كلِّ النِّزاعات والصِّراعات، وسوءِ الظَّنِّ، وانخفاضِ مستوى الجرائم والتَّعدِّي على الآخرينَ؛ لأنَّ السَّبب الأساسي للتعدِّي والظُّلمِ يكمنُ في النَّظرةِ الأنانيَّة التي تركِّزُ على الذَّات من دونِ مراعاة حقوقِ الآخرينَ؛ إذ تُقدَّم المصلحة الشَّخصيَّة على مصالح الآخرينَ، ويُحمَّل المجتمع الالتزامات والحقوق لصالح الفرد، من دون أن يُعطى الاهتمام الكافي لإثبات حقوق الآخرين وتحقيقها بعدل؛ فالكلمة تمثِّل قاعدةً واسعةً وشاملة، وتشكِّل الأساس لنشر المحبَّةِ والودِّ والعطاءِ والتَّواصلِ بينَ الأفرادِ؛ فهي القاعدةُ العلويَّة السَّاميَّة التي ترشدُنا نحو أسمى مراتبِ الكمالِ الإنسانيِّ والرُّقيِّ الأخلاقيِّ.

المطلب الثَّاني: آفة العقول وآلة الوصول

قال الإمام عليّ عليه السلام: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ**»[١].

يتحدَّدُ سلوكُ الإنسانِ وعملُه بناءً على تفكيرِهِ؛ فإذا كان تفكيرُه على وفق الحدودِ التي وضعَها اللهُ سبحانه وتعالى، فإنَّ أفعاله ستكون في مسار النَّجاح والفلاح، وإذا كان هناك أحكام تحدِّدُ تكاليفَ الإنسانِ؛ مثل الواجب والمحرَّم والمستحب والمكروه والمباح، هناك أيضًا أحكام تحدِّدُ أنماطَ التَّفكيرِ في العقلِ الإنسانيِّ، وهذا الأمر لا يخلو من نوع من الحكمة التي توجِّه الإنسان نحو الخير، وفي هذا السِّياقِ، نجدُ أنَّ أميرَ المؤمنينَ عليه السلام قد حدَّد مرضًا وآفة تؤثِّر على العقلِ والبدنِ؛ وهي آفة (العُجُبُ بالنَّفسِ).

الفرع الأوَّل: الإعجاب لغةً واصطلاحًا:

أمَّا لغة فـ« العُجُبُ بالضَّمِّ الزَّهو، والكبر. ورجل معجب مزهو بما يكونُ منه حسنًا أو قبيحًا... وقد أعجبَ فلان بنفسِهِ؛ إذ ترفَّع، وتكبَّر... والاسم العُجُب...»[٢].

أمَّا إصطلاحًا: «استحسانُ الإنسانِ ما يصدرُ منهُ»[٣]، أو «تصوّر استحقاق الشَّخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها»[٤]، ويوجد تعريف آخر وهو: «مسرة بحصولِ أمرٍ ما، يصحبُها تطاول بهِ على من لم يحصلْ له مثله بقول، أو ما في حكمِهِ من فعلٍ، أو تركٍ، أو اعتقاد»[٥].

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٤٨.
٢- لسان العرب: ج ١، ص ٥٨٢.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٣.
٤- التعريفات: ص ١٤٧.
٥- ينظر: جامع العلوم والحكمة: ج ١، ص ٣٩٦.

إضاءة:

إنَّ الشُّعور بالسرور والابتهاج عند أداء الأعمال الصالحة يُعدُّ أمرًا طبيعيًّا؛ وما يميِّز هذا الشعور هو النيَّة والموقف الدَّاخلي اتِّجاه هذه الأعمال، و«لا شكَّ أنَّ الإنسان إذا أتى بأعمالٍ صالحةٍ، كصيامِ الأيَّام وقيامِ الليالي وسائرِ العبادات، فقد يشعر بالابتهاج والسُّرور؛ فإن كان هذا الابتهاج ناشئًا عن إدراكهِ أنَّ هذه الأعمالَ عطيَّةٌ من الله تعالى ونعمةٌ منه، وكان مع ذلك خائفًا من نقصانها، مشفقًا من زوالها، ودائم الدُّعاء للهِ تعالى بأن يوفقَّه للمزيدِ منها، فإنَّ هذا الشُّعور لا يُعدُّ عُجبًا، وأمَّا إذا كان الابتهاجُ نابعًا من اعتقادِهِ بأنَّ هذه الأعمال صفة ذاتيَّة له، ورأى نفسه مستعظمًا لها، وركن إليها حتَّى ظنَّ أنَّه خارج عن حدِّ التَّقصيرِ بسببِها، وأصبحَ كأنَّه يمنُّ على الله تعالى بعمله، فذلك هو العُجب المهلك؛ وهذا النَّوع من العُجب يُعدُّ من أعظم الذُّنوب؛ لما فيه من غرور وتقصير في فهم حقيقةِ العبوديَّة لله تعالى»[1].

الفرع الثَّاني: علَّة التَّحذير من الإعجاب بالنَّفس

ذكرَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام علَّتينِ في التَّحذير من الإعجابِ، والعُجُب؛ فقال: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ**».

العلَّة الأولى: إنَّه ضدُّ الصَّواب، و«الصَّواب لغةً: السَّداد»[2].

أمَّا إصطلاحًا: «الأمرُ الثَّابت الذي لا يسوغ إنكاره»[3].

١- مجمع البحرين: ص ٨٤٢.
٢- لسان العرب: ج ٣، ص ٢١٠.
٣- تاج العروس من جواهر القاموس: ج ١٣، ص ٨٠.

ومن الجمعِ بينَ هذينِ التَّعريفينِ، يمكننا القولَ: إنَّ هناكَ حقائق ثابتة لا تقبلُ التَّشكيكَ، والإعجاب بالنَّفس يُعمي الإنسانَ عن رؤيةِ هذهِ الحقائق؛ فيجعلُهُ يظنُّ أنَّ رأيه أو عمله هو السَّديدُ الوحيدُ، متجاهلًا إمكانيَّة الخطأ أو الحاجة إلى تصحيحِ نفسِهِ، وهذا الانحرافُ عن الصَّواب يمنعُ الإنسانَ من السَّيرِ في طريقِ الحقِّ، إذ يغلق عليهِ بابَ التَّواضع والتَّعلُّم، ممَّا يؤدِّي إلى تعثُّره في مدارج الكمال.

من الحقائقِ الرَّاسخةِ أنَّ الإنسانَ خُلق لأجل السَّير في طريقِ التَّدرُّج نحو مراتبِ الكمالِ، وصولًا إلى أسمى الغايات، وهذه الغاية ليست مجرَّد هدف بعيد؛ بل هي رحلةٌ مستمرَّةٌ تعبِّر عن طبيعةِ الإنسانِ وسعيهِ الدَّائم للتزكيَّة والارتقاء بالنَّفس، تحقيقًا للمقصد الإلهي الذي أراده الله عزوجل له، وأداة الوصولُ إلى ذلكَ (العبادة) التي تتسم بالخضوع والخشوع والتَّواضع والاعتراف بالتَّقصير. والإعجاب بالنَّفس آفة وعامل لبطلان العبادة؛ لأنَّها تتنافى مع كلِّ أجزاء العبادة؛ إذ استكثار العمل، والمنَّة به لا تنسجم مع الاعتراف بالعبوديَّة لله جلّ جلاله؛ لأنَّها تعكس عن حالة تكبر واستكبار في داخل النَّفس؛ إمَّا على الله عزوجل، أو على عبادهِ سبحانه وتعالى، وهذه الحالة تدلُّ على امتلاك نفس صغيرةٍ غير ملتفتة إلى عظمة الخالق عزوجل.

ولو تأمَّلنا في حياة العظماء لخجلنا من عبادتنا لله سبحانه وتعالى؛ لا أن نمنَّ بها؛ عن طاووس اليماني: «**كانَ عَلِيُّ بُن الحُسَينِ سَيِّدُ العابدِينَ عليه السلام يدعو بِهذَا الدُّعاءِ:**

إلهي! وعِزَّتِكَ وجَلالِكَ وعَظَمَتِكَ، لَو أنِّي مُنذُ بَدَعتَ فِطرَتي مِن أوَّلِ الدَّهرِ عَبَدتُكَ دَوامَ خُلودِ رُبوبِيَّتِكَ، بِكُلِّ شَعرَةٍ في كُلِّ طَرفَةِ عَينٍ سَرمَدَ الأَبَدِ، بِحَمدِ الخَلائِقِ وشُكرِهِم أجمَعينَ، لَكُنتُ مُقَصِّرًا في بُلوغِ أداءِ شُكرِ أخفى نِعمَةٍ مِن نِعَمِكَ عَلَيَّ.

ولَو أنِّي كَربتُ مَعادنَ حَديدِ الدُّنيا بأنيابي، وحَرثتُ أرضَها بأشفارِ عَيني، وبكَيتُ مِن خَشيتِكَ مِثلَ بُحورِ السَّماوات والأرَضينَ دمًا وصَديدًا، لَكانَ ذلِكَ قليلًا في كثيرِ ما يَجبُ مِن حَقِّكَ علَيَّ.

ولَو أنَّكَ إلهي عَذَّبتني بَعدَ ذلِكَ بعَذابِ الخَلائقِ أجمَعينَ، وعَظَّمتَ للنَّارِ خَلقي وجِسمي، ومَلأتَ جَهنَّمَ وأطباقَها مِنِّي حَتَّى لا يَكونَ في النَّارِ مُعذَّبٌ غَيري، ولا يَكونَ لجَهَنَّمَ حَطَبٌ سِوايَ، لَكانَ ذلِكَ بعَدلِكَ علَيَّ قليلًا في كثيرِ مَا استَوجَبتُهُ مِن عُقوبَتِكَ»[١].

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَما مُوسَى ﵇ جالِسًا إذْ أَقْبَلَ إِبْلِيسُ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ ذُو أَلْوانٍ؛ فَلَمَّا دَنَا مِنْ مُوسَى ﵇ خَلَعَ الْبُرْنُسَ وَقَامَ إِلَى مُوسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا إِبْلِيسُ، قَالَ: أَنْتَ فَلَا قَرَّبَ اللهُ دَارَكَ. قَالَ: إِنِّي إِنَّما جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكَ لِمَكانِكَ مِنَ اللهِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُوسَى ﵇: فَما هَذَا الْبُرْنُسُ؟ قَالَ: بِهِ أَخْتَطِفُ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ، فَقَالَ مُوسَى: فَأَخْبِرْنِي بِالذَّنْبِ الَّذِي إِذَا أَذْنَبَهُ ابْنُ آدَمَ اسْتَحْوَذْتَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِذَا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، وَاسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ، وَصَغُرَ فِي عَيْنِهِ ذَنْبُهُ»[٢].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ﵇، قَالَ: «أتى عَالِمٌ عَابِدًا، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ صَلَاتُكَ؟ فَقَالَ: مِثْلِي يُسْأَلُ عَنْ صَلَاتِهِ؛ وَأَنَا أَعْبُدُ اللهَ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا؟!

قَالَ: فَكَيْفَ بُكَاؤُكَ؟

قَالَ: أَبْكِي حَتَّى تَجْرِيَ دُمُوعِي، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ: فَإِنَّ ضَحِكَكَ وَأَنْتَ خَائِفٌ أَفْضَلُ مِنْ بُكَائِكَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ؛ إِنَّ الْمُدِلَّ لَا يَصْعَدُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ»[٣].

١- الأمالي (الصدوق): ص ٢٩٩.
٢- الكافي: ج ٢، ص ٤٣١.
٣- م.ن: ج ٢، ص ٣١٣.

وممَّا روي عن أحد الباقرين عليهما السلام قال: «**دَخَلَ رَجُلَانِ المَسْجِدَ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ فَاسِقٌ؛ فَخَرَجَا مِنَ المَسْجِدِ وَالْفَاسِقُ صِدِّيقٌ وَالْعَابِدُ فَاسِقٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْعَابِدُ المَسْجِدَ مُدِلًّا بِعِبَادَتِهِ يُدِلُّ بِهَا فَتَكُونُ فِكْرَتُهُ فِي ذَلِكَ، وَتَكُونُ فِكْرَةُ الْفَاسِقِ فِي التَّنَدُّمِ عَلَى فِسْقِهِ وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ عزّ وجلّ مِمَّا صَنَعَ مِنَ الذُّنُوبِ**»[١].

العلَّة الثَّانية: إنَّها آفة الألباب؛ والآفة لغة«العاهة»؛ ومعناها: «عَرَضٌ مُفْسِدٌ لما أَصاب من شيءٍ»[٢]؛ فنفهمُ من ذلكَ أنَّ الآفةَ تفسدُ الشَّيء بعدَ إصابتهِ، وحينما يُصابُ الإنسان بهذهِ الحالةِ فلا ينحصر أثرُها على إفساد النَّفس وزهوها، ورؤيةِ أعمالِ الآخرينَ لا قيمة لها، وأنَّ عملَه هو المقبول، وأنَّه خارج عن حدِّ التَّقصير، وإنَّما يقوم الإعجابُ بالنَّفس بخلقِ وإسدالِ حجابٍ على عقلِ صاحبه، فلا يرى آلاء الله عزّ وجلّ ونعمه، وهذا بنفسه مفسدة للعقل؛ فيتخبَّطُ العقلُ في نمطِ تفكيره، ولا يسلك جادةَ الصَّواب؛ بل يصل إلى حالة يرى حتَّى سيئاتِه حسنات؛ والعُجُب درجات، وكلُّ درجة تصيبُ العقلَ تفسده بمقدار معيَّن؛ حتَّى تصل على آخرهِ إن لم يدرك نفسَه، ويقضي على هذه الآفة.

١- الكافي: ج ٢، ص ١٤٣.
٢- لسان العرب: ج١، ص ٢٦٣.

الفرع الثَّالث: آلة الوصول

قال الإمام عليه السلام: «**فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ**».

« الكَدح بفتح وسكون؛ العملُ والسَّعي والكسب للآخرة والدُّنيا؛ يقال: هو يكدح في كذا؛ أي يكدُّ، ويعمل، ويكدح لعياله، ويكتدح؛ أي يكتسب لهم، ويكدح للدُّنيا؛ أي يكتسب لها...»[١].

من الحقائقِ التي يدركُها أغلبُ الخلقِ أنَّ النَّتائج العظيمة لا تأتي من الفراغ؛ وإنَّما تحتاج إلى سعي، وكدح، وجهد، وصبر، ومصابرة، وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنيَّة: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾[٢]، وهذه حقيقةٌ واضحةٌ إلَّا أنَّ بعضَ الناس قد يبتعدُ عن تفعيلِ هذه الحقيقةِ بفعل عوامل عدَّة؛ أهمُّها: عدم الفهم والتَّفريق بين حقيقة الدُّنيا وحقيقة الآخرة، أو بفعل الذُّنوب والمعاصي، والابتعاد عن السُّنن والآداب التي جاء بها المعصومون عليهم السلام؛ وعلى سبيل المثال؛ السُّنن التي تختصُّ بالأكل والشُّرب؛ وغيرها من الأمور، وكيف أنَّها تؤثِّر في مقدار السَّعي والعزم الذي يوجد في الإنسان؛ ولذلك يطلب الإمام عليه السلام أن يسعى وبشدَّة في كدحه، «وقد فسِّر الكدح هنا تارةً بالمعنى العام؛ وهو أن يسعى في كسب الطَّاعات»[٣]؛ وفُسِّر تارةً أخرى بالمالِ وأن ينفقَه في سبيلِ اللهِ سبحانه وتعالى، وعلى كلِّ حال قد يكون المعنى الثَّاني أقرب لوجودِ القرينة المتَّصلة في الكلام، وهو قوله: «**وَلاَ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ**»؛ فإنَّ الخازنَ لا يستفيد إلَّا التَّعب والنَّصب؛ ومع ذلك يمكن أن نحملَ معنى خازنًا لغيره حتَّى في مجال كسب الطَّاعات،

١- مجمع البحرين: ص ١١٠٩.
٢- سورة النجم/ الآية: ٤٠.
٣- ينظر: الوصيَّة الخالدة: ص ٩٣.

فأحيانًا يكسبُ الطَّاعات، ولا يستفيد منها؛ بل يستفيد منها غيرُه، وخاصَّة في مجالِ نشرِ العلمِ وكسبه وإعطائه للآخر؛ فنجد بعضَ النَّاس يكتسبُ العلمَ وينشره، من دونِ أن يُفيد منه.

إنَّ خزنَ المكاسب للآخرينَ مع ما فيها من التَّعب والنَّصب تورث الحسرةَ للخازن؛ فيرى كلَّ تلكَ الجهودِ التي بذلها أنَّه لم يستفدْ منها في عمران آخرته؛ وإنَّما مَنْ حصلَ على اللذَّةِ والفائدة أولئك الذينَ أخذوها بدون كدح وسعي، وتزداد الحسرةُ، ويزداد الألم حينما يرى الورَّاث يصرفونها في وجوهِ الحرامِ؛ بل وحتَّى من يصرفها في وجوه الحلال والخير؛ فذلك ممَّا يورث الحسرةَ؛ إذ الورَّاث كسبوا الأجر، وحرم هو من ذلك.

لذا يتوجَّبُ علينا أن نعملَ لأنفسنا، وألَّا ننتظر أولادَنا، أو الآخرينَ يقدِّمونَ لنا الخيرَ بعد موتنا، وأن يكون الصَّرف والبذلَ على وفق موازنة لا تضرُّ بالعيال.

إنَّ أفقر النَّاس تفكيرًا من كان يستطيع البذل والإنفاق؛ وعدلَ إلى الخزن والوصيَّة ببعضِ تلكَ الأموالِ والمكاسب بعدَ موتهِ، ومن القضايا البالغة الأهميَّة في هذهِ الكلمةِ التَّأكيد على السَّعي في الكدحِ، ونحن نعلمُ أنَّ السَّعيَ يضعف مع تقدُّمِ العُمر، وهذا بدورهِ يرشدُنا أن نستثمر مرحلةَ الشَّباب فإنَّها أفضلُ مرحلةٍ للكدح؛ ومن الضروري للشَّباب شدَّة السَّعيِّ في أمرينِ:

الأمر الأوَّل: إدمان التَّفكير في طرقِ الكدح، وهذه القضيَّة مهمَّة للغاية فيما نعيشُهُ اليومَ من التَّقدُّم في مجال التَّكنولوجيا؛ فالشَّباب اليوم قادرونَ على تعلُّم أيِّ حرفة، أوعمل يمكن أن تدر عليهم الأرباح، وهذه القاعدة تشملُ العلومُ أيضًا إلَّا أنَّهم -ولا أقول الجميع- غافلونَ عن هذه الحقيقة في أمور هامشيَّة ترويحيَّة

للنفس؛ وبينما تجد بعض الشَّباب والفتيات يستغلونَ أوقاتهم في إتقان مهنةٍ، أو عملٍ، أو حرفةٍ، نجد آخرين يبذِّرون أوقاتهم في لعبة، أو تصفح المواقع من دون أن يستفيدوا شيئًا، ولا يحصدونَ إلَّا السَّهر المذموم المتسبِّب في كسل عزيمةِ الشَّباب وضعفِها.

وممَّا يروى أن مَرَّ برسول الله ﷺ رجلٌ وهو في أصحابِه، فقالَ بعضُ القوم: مجنون. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**بلْ هذا رجلٌ مُصابٌ، إنَّما المجنونُ عبدٌ أو أَمَةٌ أَبليا شبابهما في غير طاعة الله**»(١).

الأمر الثَّاني: إنَّ مرحلة الشَّباب أهم مرحلةٍ لبناءِ الإنسانِ ماديًّا ومعنويًّا وعلميًا؛ وكلَّما تقدَّم العمرُ كانت احتمالات النَّجاح أقل، إذا لم يستثمر تلك اللحظات، وهنا تقع مسؤوليَّةٌ على الوالدينِ، وعلى من له علاقة بالشَّباب أن ينقلوا تجاربَهم، وأن يعلِّموا الشَّباب وسائل العمل التي تنفعهم، وأن يوضِّحوا لهم أنَّ السَّعي والاجتهادَ في طلبِ العملِ يشكِّلان أساسًا لتحقيقِ السَّعادة وضمانِ مستقبلٍ مشرق؛ فالعملُ ليس مجرَّد وسيلةٍ للرزق، بل هو ركيزة لبناء الذَّات وتحقيقِ الطُّموحات، ممَّا يُسهم في استقرارِ الحياةِ وازدهارِها.

١- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ٢٩٤.

المطلب الثَّالث: السَّعي في طلب الزَّاد

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلاَغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلاَ تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ؛ فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ...»[١].

يعتقدُ بعضُ النَّاس أنَّ النِّعم الحقيقيَّة تقتصرُ على ما ندركه بحواسِّنا في هذه الحياة، كالطَّعام، والمال، والمساكن، بينما يغفلون عن النِّعمة الأعظم والأكثر قيمة، وهي نعمةُ الهداية إلى الحقِّ والعمل الصَّالح، وهذه النِّعمة تُعدُّ أعظم عطايا الله عزّ وجلّ لعباده، وتتطلَّب شكرًا مميزًا وخاصًّا من الإنسان لخالقه سبحانه وتعالى، وقد أوضح أميرُ المؤمنينَ عليه السلام أهميَّة هذه النِّعمة في كلماتِه، ممَّا يدعونا إلى تناولِ هذا الموضوع في محاور عدَّة للتَّفصيل والبيان:

الفرع الأوَّل: التَّوجه بعد الهداية

قال عليه السلام: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

وقد ورد في هذه الكلمة آراء عدَّة:

---

١ - نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٤٨.

١. «إذا وفقت لأعمال الخير والاستقامة: «**فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ**»؛ دفعًا للعجب عن نفسِكَ؛ فإنَّ الإنسان ربما يهتدي؛ لكنه يعجب بنفسهِ فيكون وبالًا عليه»[١].

٢. «إنَّ الهداية للرشد نعمة عظيمة توجب المقابلة بالخشوع؛ لأنَّه ضرب من الشُّكر»[٢]؛ أي إنَّ شكرَ نعمة الهداية يستلزم الخضوعَ للحقِّ جَلَّ جَلالُه، وإطاعة أوامره ونواهيه.

٣. «إنَّ العلم بالطَّريق المؤدِّية إليه حين سلوكه يستلزم ملاحظة جلاله وعظمته، وهنا يكون الخشوع الحقّ والخشيَّة التَّامَّة لقول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٣]»[٤].

٤. «إذا أتيحت لكَ الفرصة للكدح والسَّعي؛ فاشكر اللهَ تعالى على ذلكَ، واستقمْ في أقوالك وأفعالك؛ لأنَّ التَّحرر من البطالة نعمةٌ كبرى يجب أن تقابلَها بالشُّكر، والإخلاص...»[٥].

٥. «أن يكونَ السَّعي للطاعات مشفوعًا بالمراقبة»[٦].

الفرع الثَّاني: أهميَّة الإعداد والاعتدال في رحلة الحياة

قال عليه السلام: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلاَغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلاَ تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ،**

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٣.
٢- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٥٩٣.
٣- سورة فاطر/ الآية: ٢٨.
٤- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٢٨.
٥- في ظلال نهج البلاغة: ج ٥، ص ١٢.
٦- الوصيَّة الخالدة: ص ٢١٤.

وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ...».

عندما يريدُ الإنسانُ السَّفر إلى وجهة ما في هذه الدُّنيا، يكون عليهِ أن يعِدَّ زادَه وأمتعتَه وكلَّ ما يحتاجه لذلك السَّفر، مع الحرصِ على امتلاك ما يثبتُ هويتَه وانتماءه، ويسعى كذلك جاهدًا لأن يصطحب معه أفضلَ الأدوات وأجودَ المستلزمات التي تسهِّل رحلته، متجنِّبًا حمل ما قد يثقل كاهلَه أو يعرقل مسيرَه، وعلى الرَّغم من كلِّ هذه التَّحضيرات، فإنَّ السَّفر لا يخلو من مشقَّة وتعب، ومن جهد وفراق للأحبة في بعضِ الأحيان، ومع ذلك فإنَّ طريقَ الدُّنيا مهما كان طويلًا وشاقًا ومتعبًا؛ إلَّا أنَّه بالمقارنة إلى سفر الآخرة فإنَّها يسيرة وممتعة؛ فالسَّفر إلى الآخرة يحتاجُ إلى أمتعة وزادٍ من نوع آخر، وإذا كان سفرُ الدُّنيا قد يتخلَّله مطبَّات وعراقيل بين الحينِ والآخر، فإنَّ سفرَ الآخرة أشدُّ وأعظمُ؛ إذ إنَّه مليء بالعقبات والابتلاءات؛ فهو رحلة تحتاجُ إلى استعداد كبير، وإلى مقدِّمات تمهِّد الطَّريق؛ إذ يُختبر فيها الإنسان بين ضعفٍ وقوَّة، وبين صبرٍ وجهاد؛ ولذا، فإنَّ هذا السَّفر يتطلب زادًا من الإيمانِ والعمل الصَّالح، وهدايةً تُضيء له الطَّريق وسط الظلمات التي تعترضه؛ وأهمُّها حبس النَّفس على طاعةِ الله سبحانه وتعالى وتهذيبها وتزكيتها، وتركيزها على الزَّاد الأمثل والأفضل والأثقل؛ وفي هذا الموضع يبيِّن أميرُ المؤمنينَ عليه السلام حقائق مهمَّة حول رحلة الآخرة، وصفة ذلك الطَّريق، والإعداد الأمثل لزاد ذلك السَّفر.

طريق الرِّحلة:

وصفَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام الطَّريقَ المؤدِّي إلى الجنَّة بأنَّه بعيدُ المسافة، ممَّا يعكسُ طولَ مدَّةِ السَّفر وما يصاحبها من ظروف شاقَّة وصعوبات بالغة؛ فهذا الطَّريق محفوف بالأتعاب، مليء بالتَّعرجات، وتكتنفه الشُّبهاتُ التي قد تزل فيها الأقدامُ وتضلُّ فيها العقولُ والأنفسُ، وفي هذا السَّفر قد تضعفُ النَّفس وتخضع لهواها، فتتمرَّدُ على خالقِها الذي أكرمها بالنِّعم وأغدق عليها فضلَه، وقد يصل الأمرُ بها إلى أن تستعبدَها الشَّهوات وتسيطرَ عليها الأهواء، فترفضُ عبادةُ ربِّها عزّ وجلّ، وتتكبَّر عن الخضوع له، فتفقد بذلك البوصلة التي تهديها إلى دار النَّعيم الأبديِّ.

إنَّ الطَّريَق إلى الجنَّة محفوف بالمكاره والمشقَّات، ولا يخلو من لحظات الفراقِ عن الأحبَّة، ممَّا يجعلُهُ مسارًا يتطلَّب قوَّة الإرادة والعزم الرَّاسخ؛ بل، لا يمكن للمرءِ أن يبلغَ غايته في هذا الطَّريق إلَّا إذا تحلَّى بالحزم، وتجاوزَ اهتمامه بآراء النَّاس مادام يسير على خطِّ الله سبحانه وتعالى، ويحتاج كذلك إلى المثابرة والإصرار، والصَّبر على الابتلاءات، وكظم الغيظ في مواجهة المواقف التي تستفزُّ النَّفس، وعلماً ومعرفة؛ ليتجنَّب الإنسان الخروج عن حدودِ التَّكليف الشَّرعي؛ وتبقى الرَّكيزة الأساسيَّة للسير في هذا الطَّريق هي العقيدةُ السَّليمةُ؛ فهي التي تمنح الأعمال قيمتها وتجعلها مقبولة عند الله جلّ جلاله، ومن دون هذه العقيدة، تفقدُ الأعمالُ أيَّ تأثير أو جدوى في بلوغ الغاية النِّهائيَّة.

إنَّه سفر طويل وبعيد وشاق، وصفه الإمام عليه السلام في بداية كلامه حتَّى يتنبَّه المسافر إلى عسر النَّجاة منها والسَّلامة من خطرها؛ «وإنَّما يكون

ذلـك بلـزوم القصـد، والثَّبـات عـلى سـنن العـدل، والاسـتقامة عـلى حافَّـة الوسـط مـن مـكارم الأخـلاق...»[١].

ومـن نِعـم اللهِ عزَّوجلَّ علينـا أن هدانـا عـبر الثقلـينِ إلى معرفـةِ هـذا السَّـفر ومـا يكتنفـه مـن منعطفـات، وأوضـح لنـا أنَّنـا خُلقنـا لعـالمٍ غـير عالمنـا هـذا؛ فالحياةُ التـي نعيشـها الآن مـا هـي إلَّا وسـيلة وليسـت غايـة، هـي جسرٌ نعـبره، وليسـت مقـرًّا دائـمًا؛ إنَّهـا مزرعـةٌ للآخـرة، ومـن أعظـم مـا يميِّـز وجـود عـالم الآخـرة هـو أنَّ الإنسـان بعـد هـذا السَّـفر ينتهـي إمَّـا إلى الجنَّـة أو النَّـار. وهـذا الإدراكُ يمنحُ الإنسـان قيمـةً ومعرفـةً تدفعـه للتحـرك بوعـي، مؤمنًـا بـأنَّ الدُّنيـا ليسـت الهـدفَ مـن هـذا الخلـق العظيـم؛ لـذا، يسـخِّر كلَّ إمكاناتـه وطاقاتـه لتحقيـقِ هـذا الهـدف السَّـامي، وبهـذا الفهـم، نصنـع إنسـانًا واعيًـا، بعيـدًا عـن الأفـكار المنحرفـةِ والشُّـبهات التـي تضللـه وتهلـك نفسَـهُ في أمـور لا قيمـةَ لهـا.

الفرع الثَّالث: صفة الزَّاد الأمثل

أشـارَ الإمـامُ عليه السلام إلى كيفيَّة إعـدادِ أمتعةِ وزادِ السَّـفر على وفق ما يناسـب ذلـكَ العالم وتلك الرِّحلة؛ وبيَّـن عليه السلام أنَّ الـزَّادَ لا بدَّ أن يخضعَ لمعيـار النَّوعيَّة؛ لا الكميَّـة؛ ولعل عمل خـير له أجر وثواب؛ إلَّا أنَّه لا يتناسـب مع عمل آخر؛ لعظـم نفعه، وجليـل قـدره، وأنَّ العبد قـادر أن يصنع جبالًا من الحسـنات؛ ومع ذلـك يكتفي بصنـع تلَّة صغـيرة؛ لذلكَ نجدُ أمـيرَ المؤمنينَ عليه السلام بيَّـن لنا مجموعـةً من صفات الـزَّاد الأمثل لذلك السَّـفر:

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص ٣٠.

الصِّفة الأولى: حسن الارتياد.

قال عليه السلام: «**وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ**».

«الغنا: الكفاية... والارتياد: الطَّلب»[١]، و«حسنُ الطَّلب الإتيان به على ما ينبغي ممَّا يوجب سعادة»[٢]، أي «ابتغاء المنهج الصَّحيح في سلوك الطَّريق»[٣]؛ فالصِّفة الأولى، أن لا يكتفي بالأعمال الصَّالحة، فمهما أنجز منها، سيبقى في حاجةٍ ويتحسَّر يومَ القيامةِ على ما فاتَه من الأعمال التي لم يوفق لتحقيقِها، وأن يكونَ على وفق منهج رسمه الله جلّ جلاله، وخاصَّة السَّير تبعًا لمنهج ولاية آل محمَّد عليهم السلام؛ لا من ذات نفس الشَّخص؛ وأيًا كانت الأعمال التي ينجزُها العبدُ، فإنَّها لن تُقبلَ يوم القيامة إذا كان منكرًا لولاية علي بن أبي طالب عليه السلام عن عمْد؛ وهناك العديد من الآيات والرِّوايات التي تثبت هذه الحقيقة، كما أنَّ الأعمال قد تُحبط بفعلِ أفعالِ الإنسان؛ ومنها:

١. الوثوبُ على الحرام.

٢. الرِّياء.

٣. العُجُبُ.

٤. قتلُ النَّفس المحترمة.

٥. أكلُ الحرام.

٦. آفات اللسان.

وتحقيق مبدأ (حسنُ الارتيادِ في طلبِ الزَّاد) هو القاعدة الأساسيَّة للاستعدادِ لسفر الآخرة؛ إذ السَّفر يتطلَّبُ المثابرةَ والاستمرار على الولاية

١- منهاج البراعة: ج٣، ص ١٠٥.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص ٦٤.
٣- نفحات الولاية: ج ٩، ص٥٠٢.

لآل محمَّد عليهم السلام، والبراءة من أعداء الله سبحانه وتعالى وأعداء أوليائه، والمحافظة على الصَّلاة، والحجاب، وعدم الخجل من المبادئ التي قد يسخر منها آخرونَ لعدم معرفتهم بها؛ إنَّما الطَّاعة لله عزَّ وجلَّ، والابتعاد عن معاصيه، والمضي بثبات على نهج المعصومين عليهم السلام.

الصفة الثَّانية: كفاية الزَّاد.

قال عليه السلام: «وَقَدْرِ بَلاَغِكَ مِنَ الزَّادِ».

«البلاغ: ما يتبلغ به ويتوصَّل إلى الشئ المطلوب. والبلاغ: ما بلغك. والبلاغ: الكفاية»[١]، والزَّاد يُستخدم كاستعارة للأعمالِ الصَّالحةِ، وأفضلُها التَّقوى؛ قال الله جلَّ جلاله: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[٢]؛ فيكون المعنى «بأن تحمل زادًا يكفيكَ طولَ الطَّريق»[٣]؛ و«استعار لفظ الزَّاد للتقوى، والكمالات التي هي بلاغ الإنسان في تلك الطَّريق إلى الله تعالى؛ وبذلك تكون النَّجاة والخلاص من مهالكها»[٤].

إنَّ الرِّحلة إلى دارِ البقاءِ والخلودِ يتطلَّبُ أن نتزوَّد بكلِّ الكمالات، والعبادات، والطَّاعات، والخيرات إلى الحدِّ الذي نتيقنُ منهُ أنَّه سيبلغنا إلى الهدف، ولعلَّ من أفضلِ صور التَّقوى الثِّقة برحمة الله عزَّ وجلَّ؛ فالثِّقة باللهِ سبحانه وتعالى هي جوهر التَّقوى، ومن مهامها تعويض نقص الزَّاد لو حدث؛ ومهما اجتهدَ الإنسانُ في الأعمالِ الصَّالحة، لا بدَّ من دوامِ الشُّعور بالنَّقص والتَّقصير في ساحةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومع هذا النَّقص والخلل لنا ثقة كبيرة بأنَّ رحمة الله جلَّ جلاله ستشملنا.

١- لسان العرب: ج ٨، ص ٤١٩.
٢- سورة البقرة/ الآية: ١٩٧.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٤.
٤- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٣٠.

إنَّ رضوانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعمةٌ عظيمةٌ لا يمكن إدراكها إلَّا لمن أحسنوا العمل، وعملوا الصَّالحات، وجاهدوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وصبروا على مشقَّة الطَّريق وأعبائه.

الصِّفة الثَّالثة: الاعتدالُ في تحمُّل الأعباء.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلاَ تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ**».

وكما أنَّ سفر الدُّنيا يحتاجُ إلى جودة الزَّاد، وخفَّة الحمل فكذلكَ سفرُ الآخرة هو الأوْلى أن لا يحمل معه أثقالًا تعيقه في سفره؛ وممَّا روي: «أنَّه نشبَ حريق في بلدة فخرج سلمان المحمَّدي يحملُ عصاه، ودواة وقال: هكذا ينجو المخفُّون»[1].

وهناك جملة من الرِّوايات أنَّ ما يُثقلُ ظهرَ المسافر في سفرِه إلى دارِ البقاءِ هي المعاصي والذُّنوب والخطايا؛ فهي ترهقُ الكاهلَ، وقد تهلكه وتوصله إلى دارِ الشَّقاء، أو يقعد بصاحبه على التَّقدُّم في السَّير شيئًا، فشيئًا؛ أو الحدّ من الحركة، والمشكلة في الأوزار التي يحملها الإنسانُ تكون في بعض الأحيان جدًا ثقيلة؛ إذ يُضيف إلى أوزارِهِ أوزارَ الآخرينَ؛ لا سيَّما إذا تركَ أثرًا يجلب له السَّيئات، وأحيانًا أخرى يُثقلها بفضولِ الكلامِ الذي لا يعودُ عليه بأَيِّ فائدة.

الفرع الرَّابع: اغتنام الفرص

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ**

١- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ج ٢، ص ٢١٨.

غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ».

من أعظم نعم اللهِ ﷻ على الإنسان أن يوفَّق لمساعدةِ الآخرينَ؛ إذ يُعدُّ مجيء صاحبِ الحاجةِ أو الفاقة بابه رزقًا ساقه اللهُ ﷻ لعبده، وقد وصفت بعضُ الرِّوايات هذا الأمر بأنَّه زادٌ معنوي يعينُ الإنسانَ على طريقهِ إلى اللهِ ﷻ، ويخففُ من أعباءِ رحلتهِ؛ فالإنفاقُ والصَّدقات فرصة ثمينةٌ لا تُعوَّض في الحياةِ الدُّنيا، ومن لم يغتنمها وهو قادر، فقد يجدها عبئًا ثقيلًا يكسر ظهرَه في رحلتهِ إلى الآخرة.

إنَّ الإنفاقَ، والصدقةَ، وسدَّ حاجة المحتاج، وإدخال السُّرور على اليتامى والفقراء والمساكين وأصحاب الهموم خير معينٍ وأعظم صحبةٍ في سفر الآخرة؛ بل هي أفضل من صحبةِ الأصدقاء في سفر الدُّنيا، إذ لا يستطيعونَ دفعَ أيِّ سوءٍ عنك، ولا تنحصر وظيفتهم إلَّا في دفنك في قبرك، وتركك وحيدًا وغريبًا، وأمَّا قضاء حوائج المحتاجين، خاصَّةً تلك المتعلِّقة بالإنفاق وسدِّ الحاجة، فهي خيرُ صحبةٍ؛ بها يُدفع البلاء ويُخفَّف العناء، ويتحقق لك من الأجر ما لا يُقاس.

إنَّ كلَّ فعل خير يرجع لصاحبه في سفرِ الآخرة، ويبقى معه ولا يفارقه؛ حتَّى يدفع عنه كلَّ كرب وبلاء؛ ولذلكَ فإنَّ العاقلَ هو من يتزوَّد من دنياه لآخرتِهِ، ويكثر من حملِ الزَّاد، ويغتنم الفرصَ؛ وخاصَّة عمل المعروف للمحتاجينَ، وقضاء ديونهم؛ فكلُّ عمل صالح سيأتي على شكلِ شخص يدفعُ عن صاحبِه كلَّ سوء؛ حتَّى يدخله الجنَّة، وما يقدِّمه الإنسان اليوم سيرجع إليه أضعافًا مضاعفة في يوم نحن بأمسِّ الحاجةِ إليه؛ فهل المؤمنُ العاقلُ الفطنُ يغفل عن هذا؟

ولذلكَ نجدُ تركيزَ العظماء في هذا الجانب قد أخذ حيِّزًا من حياتهم وأعمالهم؛ بل لا نجد معصومًا إلَّا وكان ضمنَ منهجهِ وسلوكهِ وبرنامجهِ مع النَّاس ينصب على قضاء حوائجهم؛ فالقدرة على الإنفاقِ رزق من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وإذا استطاعَ عليهِ اليومَ قد لا يوفق له غدًا؛ بسبب طارئ، أو ضعف، أو خسارة، وإن كانت اليدُ المعطية أبعدَ ما تكون عن العطب؛ بل على العكس إنَّ اليد المعطية يزدادُ عطاؤها مع كلِّ إنفاق.

ولذلك ركَّز الإمام عليه السلام بقوله: «**وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ**».

وحين نطالع النُّصوص الشَّريفة التي تمتدحُ القرضَ نجد أجرًا وثوابًا لهذا العمل يبهرُ العقولَ؛ وما ذلكَ إلَّا بسبب ضغطِ الحاجةِ في بعضِ الأحيان؛ وخاصَّة الحاجة الماليَّة التي يمكن أن تدفعَ بصاحبِها إلى إرتكاب الجرائم، وهتك الحرمات، والخروج من خطِّ الإنسانية؛ لذلك أصبح الفقرُ من ألد الخصام للإنسان، والتَّأمل والتَّدبر في هذه الكلمات العلويَّة يمكن أن يأخذ بأيدينا إلى قواعد عدَّة تحقِّقُ سعادةَ الإنسان وتوازنه:

أوَّلًا: لا ينحصر القرضُ بالأمورِ الماليَّة؛ بل يمكن أن يشملَ طلبَ أيِّ شيءٍ، وأنت قادر على إعطائه؛ فيتحوَّل ذلك الشَّيء إلى سند لك في يوم عسرتِكَ؛ فكلُّ إحسان في عالم الدُّنيا يجده في عالم الآخرة، ولا يبعد أن يكون العمل ظهيرًا في عالم الدُّنيا أيضًا بقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ**﴾[1].

ثانيًا: استعارَ الإمامُ عليه السلام وصفَ المستقرض هنا اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ باعتبار أنَّه هو المجازي بالثَّواب؛ إذا أنفق مالَه في طاعتهِ، وإليه الإشارة بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِن**

١-سورة النجم/ الآيات: ٤٠-٤٢.

تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[١]؛ «ونبّه بكون القرض في حال الغنى، والقضاء في حال العسرة؛ ليكونَ القضاءُ أفضلَ فيرغب في القرضِ لغاية الرِّبح المطلوب»[٢].

ثالثًا: إنَّ الحياةَ الدُّنيا والآخرة قائمة على نظام المقدِّمات والنَّتائج؛ فمن قدَّم الخير يرى الخير، ومن عمل سوءًا يُجزَ به، وإقراض المحتاج من أفضل الأعمال التي تقف إلى جانب صاحبها أيَّام العسرة، ومن الممكن أن يمرَّ الغنيُّ بالفاقة نفسها، غير أنَّه هنا سيجد من يقف إلى جانبه؛ فعمل الخير لا يذهب سدًى؛ بل ينتظر الفرصة المناسبة لتقديم يد العون إلى صاحبه.

«ثمَّ إنَّ القرض يُعدُّ نوعًا من أنواع التَّأمين المالي حينما يُقدَّم في محلِّه المناسب، حيث يُساعد الإنسانَ في وقت ضائقتهِ الماليَّةِ أو لتلبية احتياجاته الملحَّة الأخرى»[٣].

الفرع الخامس: من فضائل قضاء الحوائج

قضاءُ حوائجِ النَّاس من أعظم القربات التي يتقربُ بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى؛ فهذا العملُ ليس فقط عملًا إنسانيًّا؛ بل وسيلة لدفع البلاء وتفريج الكروب، وكلَّما سعى المسلم لتلبيةِ حاجاتِ الآخرينَ، حصل على البركة في دنياه؛ إذ يجد في نفسه راحة وسكينة، ويشعر بمعنى الحياة الأسمى في العطاء. وعلاوة على ذلك، فإنَّ قضاءَ الحوائج يرفعُ درجات المؤمن في الآخرة؛ قال الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «**اعْلَمُوا أَن حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ، فَلَا تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَحُوزُوا نِقَمًا، وَ اعْلَمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ يَكْسِبُ حَمْدًا، وَ يُعَقِّبُ أَجْرًا، فَلَوْ رَأَيْتُمُ**

١- سورة التغابن/ الآية: ١٧.
٢- شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٣١. نخبة الشَّرحين: ص ١٥٩٥.
٣- ينظر: شرح وصيَّة أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، حسن القبانجي: ص ٢١٧.

المَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاظِرِينَ وَيَفُوقُ العَالَمِينَ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ اللُّؤْمَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ سَمِجًا مُشَوَّهًا تَتَنَفَّرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ وَتُغَضُّ دُونَهُ الأَبْصَارُ»[١].

وقال الإمام جعفر بن محمَّد الصَّادق عليه السلام لعَبْدِ الله بْنِ جُنْدَب[٢]: **«يَا ابْنَ جُنْدَب، المَاشِي فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَالسَّاعِي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَقَاضِي حَاجَتِهِ كَالمُتَشَحِّطِ بِدَمِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَمَا عَذَّبَ اللهُ أُمَّةً إِلَّا عِنْدَ اسْتِهَانَتِهِمْ بِحُقُوقِ فُقَرَاءِ إِخْوَانِهِمْ»**[٣].

وعَنِ الْمُفَضَّل[٤]، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: قَالَ لِي: **«يَا مُفَضَّلُ اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَافْعَلْهُ، وَأَخْبِرْ بِهِ عِلْيَةَ إِخْوَانِكَ»**.

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا عِلْيَةُ إِخْوَانِي؟

قَالَ: «الرَّاغِبُونَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ إِخْوَانِهِمْ».

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ قَضَى لأَخِيهِ المُؤْمِنِ حَاجَةً قَضَى اللهُ عزّ وجلّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةَ أَلْفِ حَاجَةٍ، مِنْ ذَلِكَ أَوَّلُهَا الْجَنَّةُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَ قَرَابَتَهُ وَمَعَارِفَهُ وَإِخْوَانَهُ الْجَنَّةَ، بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونُوا نُصَّاباً». وَكَانَ الْمُفَضَّلُ إِذَا سَأَلَ الْحَاجَةَ أَخًا مِنْ إِخْوَانِهِ، قَالَ لَهُ: أَمَا تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مِنْ عِلْيَةِ الإِخْوَانِ؟»[٥].

وممَّا روي أن «خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر حجاجًا، ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمرُّوا بعجوز في خباء لها، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم. فأناخوا بها، وليس لها إلَّا شويهة في كسر الخيمة،

١- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ٨١.
٢- عبدالله بن جندب- بضم الجيم وفتح الدال- كوفيٌّ ثقة من أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام، ووكيلًا لهما، وكان من المخبتين، والطَّريق إليه حسن كالصحيح. من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٤٥٨.
٣- مستدرك وسائل الشيعة: ج ٩، ص٥٠.
٤- من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام الممدوحين. ينظر: معجم رجال الحديث: ج١٩، ص٣٢٠.
٥- الكافي: ج ٢، ص ١٩٢.

فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها! ففعلوا ذلك. وقالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلّا هذه الشّاة، فليذبحنّها أحدكم حتّى أهيئ لكم شيئًا تأكلون! فقام إليها أحدهم فذبحها، وكشطها ثمَّ هيأت لهم طعامًا فأكلوا، ثمَّ أقاموا حتّى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نَفَر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنّا صانعون إليك خيرًا.

ثمَّ ارتحلوا، وأقبل زوجها وأخبرته عن القوم والشّاة، فغضب الرَّجل وقال: ويحك! أتذبحين شاتي لأقوام لا تعرفينهم، ثمَّ تقولين: نفر من قريش؟ ثمَّ بعد مدَّة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعير إليها ويبيعانه ويعيشان منه، فمرَّت العجوز في بعض سكك المدينة؛ فإذا الحسن عليه السلام على باب داره جالس، فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فردَّها، فقال لها: يا أمة الله! أتعرفينني؟ قالت: لا.

قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا. فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي! [لست أعرفك! فقال: فإن لم تعرفيني فأنا أعرفك]، فأمر الحسن عليه السلام فاشترى لها من شاء [شاة] الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار! وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين عليه السلام، فقال: بكم وصلك أخي الحسن؟ فقالت: بألف شاة وألف دينار! فأمر لها بمثل ذلك! ثم بعث بها مع غلام إلى عبد الله بن جعفر، فقال: بكم وصلك الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة، فأمر لها عبد الله بألفي دينار وألفي شاة، وقال: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعتْ العجوزُ إلى زوجِها بذلكَ[١].

١- الغارات: ج ٢، ص ٦٩٦.

المطلب الرَّابع: اجتياز العقبات

قالَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «وَاعْلَمْ، أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً؛ الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِن الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِىءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَهَا بِكَ لامَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّة أَوْ عَلَى نَار، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلاَ إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ»[١].

الفرع الأوَّل: الطَّريق إلى الآخرة وصعوباته

بعد أن وصفَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام العالمَ الذي نعيشُ فيه وصفًا مطابقًا بكلِّ جوانبِهِ وجهاتِهِ، وأوضحَ سُبلَ الحركةِ في هذا العالمِ، يعودُ مرَّةً أخرى؛ ليبيِّنَ العالمَ الذي سوفَ نرحلُ إليه، وكيف يمكن لنا أن نصلَ إليه بأمان، وأن نحققَ المكاسبَ والهدفَ الأسمى للخلق؛ فأشار الإمام عليه السلام إلى المتاعب التي تواجهه، وعبَّر عنها بأنَّها (كؤود)؛ أي شاقَّة المصعد؛ «والعقبة: الطَّريق الملتوي في الجبل الذي بين ارتفاعِ الجبل، وهوة السَّفح»[٢].

وعقبة كؤودًا: «استعار لفظ العقبة الكؤود؛ أي شاقة المصعد للطريق إلى الآخرة؛ لما فيها من الصُّعود والارتقاء في درجاتِ الكمالِ بالفضائل عن مهابط الرَّذائل، ووصفها بصعوبةِ الصُّعود باعتبار ما في ذلك الارتقاء من العسر، وكثرة الموانع»[٣]، «وحيث أنَّ هذه العقبة تؤدِّي إلى إحدى الغايتينِ؛ الجنَّة أو النَّار كالهابط بالشَّيءِ يوصله إلى قرارِه...»[٤].

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٤٩.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٥.
٣- شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني: ج٥، ص ٣٢؛ من بلاغة الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ص ٥٣٩.
٤- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٥٩٦.

والمرادُ من العقبةِ الكؤود؛ إمَّا الموت وسكراته، أو عالم البرزخ، أو جسر الصِّراط؛ والظَّاهر من بعض الرِّوايات أنَّها الصِّراط؛ لوجودِ روايات في هذا المعنى.

ويمكن أن تكونَ كلُّ منازلِ الآخرةِ فيها منعطفات خطيرة تجمعها (عقبة كؤود)، أو أنَّه لم يذكرْها بعينها حتَّى يستعد الإنسان لكلِّ العقباتِ التي تواجهه في ذلك السَّفر.

قال الله جلّ جلاله: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً وَمَنَازِلَ مَهُولَةً لَابُدَّ مِنَ الممَرِّ بِهَا وَالوُقُوفِ عليهَا، فَإِمَّا بِرَحْمَةِ اللهِ نَجَوْتُمْ وَإِمَّا بِهَلَكَةٍ لَيْسَ بَعْدَهَا انْجِبَارٌ**»[٢].

وعن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله؛ فَقَالَ: أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الأَمِينُ أَنَّ اللهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا جَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ؛ أَخَذَ بِكُلِّ زِمَامٍ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الغِلَاظِ الشِّدَادِ، لَهَا هَدَّةٌ وَتَغَيُّظٌ وَزَفِيرٌ وَإِنَّهَا لَتَزْفِرُ الزَّفْرَةَ. فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَخَّرَهُمْ إِلَى الحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الجَمْعَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ يُحِيطُ بِالخَلَائِقِ: البَرِّ مِنْهُمْ وَالفَاجِرِ. فَمَا خَلَقَ اللهُ عزّ وجلّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مَلَكًا وَلَا نَبِيًّا إِلَّا نَادَى: رَبِّ! نَفْسِي نَفْسِي؛ وَأَنْتَ يَا نَبِيَّ اللهِ تُنَادِي: أُمَّتِي؛ أُمَّتِي! ثُمَّ يُوضَعُ عليهَا صِرَاطٌ أَدَقُّ مِنْ حَدِّ السَّيْفِ عليهِ ثَلَاثُ قَنَاطِرَ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَعليهَا الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ؛ وَأَمَّا الأُخْرَى فَعليهَا الصَّلَاةُ؛ وَأَمَّا الأُخْرَى فَعليهَا عَدْلُ رَبِّ العَالَمِينَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. فَيُكَلَّفُونَ المَمَرَّ عليهِ فَتَحْبِسُهُمُ الرَّحِمُ**

١- سورة الأعراف/ الآيتان: ٨-٩.

٢- بحار الأنوار: ج ٧، ص ١٢٩.

وَالأَمَانَـةُ، فَـإِنْ نَجَـوْا مِنْهَـا حَبَسَـتْهُمُ الصَّـلاَةُ، فَـإِنْ نَجَـوْا مِنْهَـا كَـانَ المُنْتَهَـى إِلـى رَبِّ العَالَمِـين جَـلَّ وَعَـزَّ؛ وَهُـوَ قَوْلُـهُ تَبَـارَكَ وَتَعَالَـى: ﴿إِنَّ رَبَّـكَ لَبِالْمِرْصَـادِ﴾، وَالنَّـاسُ على الـصِّرَاطِ فَمُتَعَلِّـقٌ وَقَـدَمٌ تَـزِلُّ وَقَـدَمٌ تَسْتَمْسِـكُ وَالمَلاَئِكَـةُ حَوْلَهُـمْ يُنَـادُونَ: يَـا حَلِيـمُ اغْفِـرْ وَاصْفَـحْ وَعُـدْ بِفَضْلِـكَ وَسَـلِّمْ سَـلِّمْ.

وَالنَّاسُ يَتَهَافَتُونَ فِيهَا كَالفَرَاشِ، وَإِذَا نَجَا نَاجٍ بِرَحْمَةِ اللهِ عزّ وجلّ نَظَرَ إِلَيهَا فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ بَعْدَ إِيَاسٍ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»[١].

الفرع الثَّاني: عقبات في طريق الآخرة

مَنْ يريدُ العبورَ بسلامةٍ ونجاح، سواء في طرقِ الدُّنيا أو طرقِ الآخرةِ، يحتاجُ إلى اتباع طرق متوازنةٍ وصحيحةٍ تضمنُ له الوصولَ إلى برِّ الأمانِ؛ فكما أنَّ الطَّريَق المادِّي يتطلَّبُ التَّخطيطَ والاحتياطاتِ لاجتناب المخاطر، فإنَّ الطَّريقَ إلى الآخرةِ يتطلَّب كذلَك تجنُّب المعاصي، والتزام الطَّاعات، والتَّأهب لمواجهةِ التَّحدِّيات التي قد تعترض المسير، وفي هذه الرِّحلة، يكمن سرُ السَّلامة في الاعتدالِ في الأفعالِ، والابتعادِ عن الأوزار التي تثقل كاهلَ الرُّوح، وقد ذكرتْ الوصيةُ أهمَّ ما يجب فعله لاجتياز عقبات الآخرة:

١. لا تحمل أثقال الذُّنوب

فكما أنَّ عقبات الدُّنيا يكون المخفُّ فيها أحسن حالًا، فكذلكَ عقبات الآخرة من كان أقل وزرًا، وأخف حملًا؛ كان أسرعَ في الاجتياز؛ وممَّا يسببُ الخفَّة وسرعةَ الحركة في عالم الآخرة تقليل اكتساب الآثام؛ إذ الوزر والذُّنوب والمعاصي كلُّها ثقل على النَّفس في ذلكَ العالمِ، وحتَّى حقوق النَّاس والأقربينَ فإنَّ الإضرارَ بها ممَّا يوجب الثِّقل.

١- الأمالي (الصدوق): ص ١٧٧.

إنَّ اكتساب الآثام ممَّا يُثقلُ الظَّهرَ، ومن الممكن أن تهلكَ صاحبَها، ولذلكَ علينا من الآن أن نخففَ ذنوبَنا ما دمنا في عالم الدُّنيا قبل أن نسافرَ إلى ذلكَ العالم؛ فإنَّ اكتساب الكمالات والفضائل والحسنات ممَّا يعطي طاقة قويَّة في ذلكَ العالم؛ ولذلك نقرأُ أنَّ بعض النَّاس يتعدَّى الصِّراط كالبرق الخاطفِ، وبعضهم يحبو، وبعضهم يمشي؛ تبعًا لأعمالهم في الدُّنيا.

قال الرَّسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَفُكُّوهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، وَظُهُورَكُمْ ثَقِيلَةٌ مِنْ أَوْزَارِكُمْ فَخَفِّفُوا عَنْهَا بِطُولِ سُجُودِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ الْمُصَلِّينَ وَالسَّاجِدِينَ وَأَنْ لَا يُرَوِّعَهُمْ بِالنَّارِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**»[1].

٢. لا تبطئ في المسير

«كلَّما طالَ الأمدُ في العقبةِ رافقه طولُ الخطر، والمراد هنا خفَّة الظَّهر من الذُّنوب، والإسراع في الأعمالِ الصَّالحة الموجبة لسرعةِ المرور في المحشر، وعلى الصِّراط»[2].

إنَّ الحالة التي يسيرُ عليها الإنسانُ في تعاملِه في عالم الدُّنيا، وتفاعلَه مع الطَّاعات والمحرَّمات هو بنفسهِ يحددُ سرعتَهُ في ذلكَ العالم، فحينما يشغلُ نفسَهُ بالمباحات والكمالات التي لا فائدةَ فيها، أو يضيع أوقاته فيما لا ينفعُهُ، فكلُّ ذلك يؤثِّر، وخاصَّة عدم اغتنامِ فرص الخيرِ، وكلُّ ذلك يبطئ المسير.

١- فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، أحمد بن محمَّد بن سعيد بن عقدة الكوفي، النَّاشر: دليل ما، إيران- قم، ١٤٢٤هـ، الطبعة: الأولى،: ص ١٣٤.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٥.

٣. تحديد المصير

«**وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لاَمُحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ**»؛ أي أنَّ محلَّ هبوطِك، ونزولِك بتلك العقبة أمر يقيني؛ أمَّا إلى الجنَّةِ أو النَّار، وهذا يتوقف على مقدار الطَّاعة[1].

إنَّ التَّعامل مع تلكَ العقبةِ الكؤود سينتهي بالإنسان إمَّا إلى جنَّة فيها النَّعيم والسُّرور، وإمَّا الى نار فيها الخزيُّ والعارُ والهوانُ؛ وهذانِ الاختيارانِ يحددهما الإنسانُ بيده تبعًا لأعمالِه؛ فمن عمل بالطَّاعات، وأدَّب نفسه بالفضائل والكمالات كان مهبطه الجنَّة، وأمَّا من قدَّم الظُّلمَ والزُّورَ والبُهتانَ فإنَّ مهبطَه النَّارُ.

وخلاصة القولِ في هذه النِّقاط الثَّلاث: أن نعدَّ ونتزوَّد بأعمال صالحة، وأن نتركَ أثقالَ الذُّنوب خلفَ ظهورِنا من طريقِ التَّوبة الصَّادقة، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

٤. إعداد المنزل

نهايةَ كلِّ رحلة لابدَّ وأن تنتهي إلى نقطة، وإلى محطَّة أو إلى منزل، وهكذا رحلة الآخرة، ومنزل الآخرة كذلك يحتاج إلى جهد ورأسِ مالٍ يختلفُ عن رأسِ مالِ الدُّنيا؛ فمنزلُ الدُّنيا يبنى بالأموالِ، ومنزلُ الآخرةِ يبنى بالأعمال؛ ولذلكَ نجدُ أميرَ المؤمنينَ عليه السلام يطلبُ من ولدهِ أن يرتادَ، ويطلب لنفسه ما يكون سببًا لنجاته، وحسنِ أحوالِه، ولا يكون ذلكَ إلَّا بالاستعدادِ، وإرسالِ ما يصلحُ منزلَ الآخرة، وينبغي أن يعلمَ الإنسان أنَّه بأمسِّ الحاجة إلى منزل الآخرة، وأن يكون صالحًا للسكن بعد الانتقالِ إليه، وعلَّة ذلكَ:

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٥.

«**فَلَيْسَ بَعْدَ المَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلاَ إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ**»؛ «أي لا رجوعَ إلى الدُّنيا حتَّى تتداركَ ما فات، وتبدِّلَ المنزل من سيءٍ إلى حسن»[١]؛ ومن هذا المنطلق فالواجبُ على العاقلِ الفطنِ أن يؤثِّثَ دارَه الآخرة بأفضل الأثاث من الأعمالِ الصَّالحة قبلَ أن يسافرَ إليها، وإلَّا سيفد على دار يواجهُ فيها الخزيَ والعارَ والذُّلَ والنَّار.

ومن الأمورِ التي لا يلتفت إليها بعضُ الناس أنَّ مؤونة بناء دار الدُّنيا متعبةٌ، وثقيلةٌ على خلافِ مؤونة دارِ الآخرةِ، فكلُّ عمل صالح، ولو كان صغيرًا يشارك في عمارة تلكَ الدَّار.

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٦.

المطلب الخامس: مظاهر الرَّحمة الإلهيَّة

قال الإمام عليٌّ (عليه السلام): «وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتكفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرحِمَهُ لِيَرْحَمَك، وَلَمْ يَجْعَل بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعيرك بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفتحَ لَكَ بَابَ المَتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ...»[1].

رحمةُ اللهِ (عزّ وجلّ) بالمخلوقين لا نهاية ولا حدودَ لها؛ فهي محيطة بهم من كلِّ الجوانب؛ قال الله (سبحانه وتعالى): ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وورد في الرِّوايات أنَّ رحمةَ اللهِ (جلّ جلاله) أكثر بالإنسانِ من الأم بولدها[3]؛ فمن مظاهرِ رحمتهِ بالإنسانِ أن كرَّمهُ وخلقهُ في أحسن تقويم، وخلقَ له الليلَ والنَّهار، وسخَّرَ كثيرًا من خلقهِ لخدمته؛ ثمَّ أنَّه أنزل الرِّسالات والرُّسل لهدايتهِ للصراط

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٤٩.
٢- سورة الأعراف/ الآية: ١٥٦.
٣- ينظر: بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ٢٦٧.

المستقيم، وكلَّفَ العبادَ بتكاليف كلِّها في مصلحتهم، ولم تنحصرْ رحمةُ اللهِ عزّ وجلّ في ذلكَ؛ بل هيَّأَ لهُ كلَّ ما يسعده سواء في مجالِ التَّكوين أو مجال التَّشريع، وهنا سنعرف قسماً من هذهِ المظاهر؛ مع تحليل موجز لكلِّ مظهر، وإلَّا فهذه الكلمات تحتاجُ إلى مجلَّدات من البحثِ والدِّراسة والتَّأمُّل؛ حتَّى نستطيع أن نغوصَ في عمقِ محتواها وكنوزها:

الفرع الأوَّل: متعلِّقات الدُّعاء

١. الإذنُ بالدُّعاء.

قال عليه السلام: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ**».

من أرقى مراتب الرَّحمة أن يطلبَ الرَّبُّ العظيم جلّ جلاله من العبادِ أن يدعونَه؛ وأيُّ مظهر للحبِّ أعظمُ من هذا المظهر؟

وحينما نقرأُ في دعاءِ الافتتاح نجدُ مظاهرَ الحبِّ والرَّحمة بأعلى مصاديقها، وأنَّ اللهَ عزّ وجلّ يتحبب إلى عباده: «**فَلَمْ أَرَ مَوْلًى كَرِيماً أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ مِنْكَ عَلَيَّ، يَا رَبِّ؛ إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلا أَقْبَلُ مِنْكَ كَأَنَّ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ...**»[(١)]. وإلى هذا المفهوم الذي يحتاج المزيد من التَّأمُّل يقول عليه السلام: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ**»؛ وهو اللهُ سبحانه وتعالى، «وخزائنُ السَّمواتِ والأرض هي المولدات لجميع احتياجاتِ البشرِ؛ فالشَّمسُ مثلاً من الخزائنِ؛ لأنَّها ممَّا

١ - تهذيب الأحكام (تحقيق :الخرسان)، محمَّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٤٠٧هـ، الطبعة: الرَّابعة: ص ٨٩.

توجبُ حياةَ الإنسانِ والحيوانِ والنَّباتِ، والأرضُ من الخزائنِ؛ لأنَّها معدنُ الجواهرِ والمعادنِ الأرضيَّة، وهكذا...»[١]، فنجدُ أنَّ أميرَ المؤمنينَ عليه السلام ينبِّهُ، ويرغِّبُ في الدُّعاء، وأنَّه بدايةُ الوصولِ إلى كلِّ مطلوب، «ولعلَّ من أهمِّ أسرارِ الدُّعاء أنَّه ناظر إلى جلالِ الله تعالى والإنقطاعِ إليه»[٢].

وربُّ جلّ جلاله بيده خزائن السَّموات والأرض أحقُّ بالرَّغبة إليه من كلِّ أحد، فمن أرادَ شيئًا فعليهِ أن يتوجهَ لمن بيدهِ الملكُ؛ وهذا مقتضى العقل.

٢. التكفُّل بالإجابة

قال عليه السلام: «**وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ**».

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[٣]، فهل من العقلِ أن نتركَ من ضَمنَ لنا الإجابة، ونذهبُ إلى غيرهِ؟

٣. السؤال مفتاح العطاء

قال عليه السلام: «أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ».

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾[٤].

وقد بيَّن الإمامُ عليه السلام أنَّ الأمرَ بالسُّؤال هو في حقيقته إذنٌ بالدُّعاء، وفي الآيةِ المباركةِ تلاحظُ أمرًا إلهيًّا واضحًا بأن تتوجَّهَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى بالسُّؤال والطَّلب، بل هو أمر مباشرٌ من اللهِ عزّ وجلّ بأن تدعوه وتسألَه حاجاتك؛ لأنَّ بعض النَّاس في بعضِ الأحيانِ لا يعرفونَ قيمةَ الدُّعاء وسؤال اللهِ عزّ وجلّ؛ فيأمرُهم بذلك ليرحَمَهم، ويلطفَ بهم، ويرزقَهم؛ فأيُّ رحمةٍ هذه يا رب؟

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٦.
٢- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٣٣.
٣- سورة غافر/ الآية: ٦٠.
٤- سورة النساء/ الآية: ٣٢.

٤. انعدام الحواجز

قال عليه السلام: «وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ».

إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لم يجعل بوَّابًا، ولا حارسًا، ولا جندًا على أبوابِهِ؛ بل تجلَّى لكلِّ من أقبلَ إليه بالدُّعاءِ على عكسِ الملوكِ والجبابرة الذينَ وضعوا أبوابًا وجندًا وحرسًا وغيرَهم قبلَ أن تدخلَ إليهم؛ وأمَّا مع الله جلَّ جلاله فهو قريبٌ إلى نفوسِنا؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[1]، وقال سبحانه وتعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾**[2].

وعنِ الإمام زينِ العابدينَ عليه السلام في دُعائِه: **«إلهي وسَيِّدي، هَدَأَتِ العُيونُ، وغارَتِ النُّجومُ، وسَكَنَتِ الحَرَكاتُ مِنَ الطَّيرِ في الوُكورِ وَالحيتانِ في البُحورِ، وأنتَ العَدلُ الَّذي لا يَجورُ، وَالقِسطُ الَّذي لا تَميلُ، وَالدَّائِمُ الَّذي لا يَزولُ، أغلَقَتِ المُلوكُ أبوابَها، ودارَت عَلَيها حُرَّاسُها، وبابُكَ مَفتوحٌ لِمَن دَعاكَ يا سَيِّدي، وخَلا كُلُّ حَبيبٍ بِحَبيبِهِ، وأنتَ المَحبوبُ إلَيَّ»**[3].

٥. التوجُّه المباشر

قال الإمام عليه السلام: **«وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ».**

القاعدةُ العامَّةُ أن يتوجَّهَ الإنسانُ مباشرةً لله سبحانه وتعالى، وبلا واسطة، وأحيانًا بسبب أعمالِهِ يحتاجُ إلى الواسطةِ والشَّفيع؛ ليُنجحَ طلبتَه.

وممَّا وردَ من الأدعية: «يستحبُّ أن يدعى بهذا الدُّعاء عقيب زياراتِ الأئمَّة عليهم السلام: **«اللَّهُمَّ إنْ كانَت ذُنُوبي قَدْ أخْلَقَتْ وَجهي عِنْدَكَ وَحَجَبَتْ دُعائي عَنْكَ وَحالَتْ**

١- سورة ق/ الآية: ١٦.

٢- سورة البقرة/ الآية: ١٨٦.

٣- الصحيفة السجاديَّة(أبطحي): ص ١٧٤.

بَيْني وَبَيْنَكَ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُقْبِلَ عَلَيَّ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَتَنْشُرَ عَلَيَّ رَحْمَتَكَ وَتُنَزِّلَ عَلَيَّ بَرَكاتِكَ، وَإِنْ كانَتْ قَدْ مَنَعَتْ أَنْ تَرْفَعَ لي إِلَيْكَ صَوتًا أَوْ تَغْفِرَ لي ذَنْبًا أَوْ تَتَجاوَزَ عَنْ خَطِيئَةٍ مُهْلِكَةٍ فَها أَنَا ذا مُسْتَجِيرٌ بِكَرَمِ وَجْهِكَ وَعِزِّ جَلالِكَ، مُتَوَسِّلٌ إِلَيْكَ مُتَقَرِّبٌ إِلَيْكَ بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْكَ وَأَوْلاهُمْ بِكَ، وَأَطْوَعِهِمْ لَكَ، وَأَعْظَمِهِمْ مَنْزِلَةً وَمَكانًا عِنْدَكَ مُحَمَّد، وَبِعِتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ الأَئِمَّةِ الْهُداةِ الْمَهْدِيِّينَ، الَّذِينَ فَرَضْتَ عَلى خَلْقِكَ طاعَتَهُمْ وَأَمَرْتَ بِمَوَدَّتِهِم، وَجَعَلْتَهُمْ وُلاةَ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِ رَسُولِكَ صلى الله عليه وآله، يا مُذِلَّ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَيا مُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ بَلَغَ مَجْهُودي فَهَبْ لي نَفْسِيَ السَّاعَةَ وَرَحْمَةً مِنْكَ تَمُنُّ بِها عَلَيَّ يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ»(١).

الفرع الثَّاني: متعلِّقات التَّوبة

١. دوام فتح باب التَّوبة

قال عليه السلام: «**وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ**».

بعدَ أن فتحَ اللهُ سبحانه وتعالى أمامَ عبادِه بابًا أسماهُ بابَ التَّوبةِ، أوضحَ في كتابِه الكريمِ عظيمَ لطفِهِ ورحمتِهِ؛ فقد دعا جلَّ جلاله جميعَ عبادِه، بمن فيهم من أسرفوا على أنفسِهم بالذُّنوب، إلى عدم اليأس من رحمتِهِ، قائلًا: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾(٢)؛ وهذهِ الآيةُ تجسِّدُ دعوةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبادِهِ ليعودوا إليه مهما عظمت أخطاؤهم. ولم يكتفِ بذلكَ، بل أمرَ المؤمنينَ بالتَّوبةِ الصَّادقةِ، مبيِّنًا أثرَها العظيمَ في تكفيرِ السَّيئاتِ وإدخالِهم جنَّاتِهِ يومَ القيامةِ، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ**

١- إقبال الأعمال: ج ٣، ص ٢٣٨.
٢- سورة الزمر/ الآية: ٥٣.

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]؛ فالتَّوبةُ ليستْ مجردَ بابٍ مفتوحٍ للعودةِ إلى اللهِ عزّ وجلّ، بل هي باب تغدق بالرَّحمة على التَّائب، والأعجبُ من فَتْحِ بابِ التَّوبةِ أنَّ اللهَ جلّ جلاله يفرح بتوبةِ عبدِه المؤمن أكثر من العبدِ نفسه؛ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَّاءِ؛ قَالَ: «**سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَ زَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ، فَوَجَدَهَا، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا**»[٢].

٢. تأخير النِّقمة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ**».

فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يؤخِّر إنزالَ العذابِ بالعاصينَ والمذنبينَ لعلَّهم يتوبونَ، مع أنَّ اللهَ عزّ وجلّ اطلعَ على معصيتِهم دونَ أن يفضحَهم؛ بل أمهلَهم وأكرمَهم وأسدَل عليهم سترَ جودِه وعطائه وحلمِه ومغفرتِه؛ قال اللهُ جلّ جلاله: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾**[٣].

١- سورة التحريم/ الآية: ٨.
٢- الكافي: ج ٢، ص ٤٣٥.
٣- سورة فاطر/ الآية: ٣٥.

٣. الاستقبال بالرَّحمة

قال الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «**وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ**».

عادةُ بعضِ النَّاسِ إذا أساءَ إليهم أحدٌ ثمَّ عادَ ذلكَ المخطئ طالبًا العفوَ، أن يستقبلوهُ بالتَّأنيبِ والعتابِ الشَّديد، مذكِّرينَ إيَّاه بخطئه ومناقشينَ أسبابَ إساءتِه؛ وكأنَّهم يجعلونَ العودةَ للاعتذارِ فرصةً لتصفيةِ الحساباتِ بدلًا من طيِّ صفحةِ الماضي، وبعدَ ذلكَ يمكن أن تحزَّ في النَّفس فلا ينساها صاحبُها إلى الموتِ؛ أمَّا الله عزَّ وجلَّ، فإنَّه لا يوبِّخ المذنبَ إذا رجعَ إليهِ وتابَ؛ بل يستقبلُهُ برحمتهِ الواسعة؛ فهو سبحانه وتعالى يمحو بتوبتِهِ كلَّ ذنوبه، ويُبدِّلها حسنات، ويكافئه على عودتهِ إليه؛ والأعظمُ من ذلكَ، أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُخفي هذهِ الذُّنوبَ تمامًا، فلا يُبقي لها أثرًا، حتَّى لا تكون شاهدًا عليهِ يوم القيامةِ. وهذا يُظهرُ كمالَ رحمتهِ ولطفهِ جلَّ جلاله، إذ لا يكتفي بمسامحةِ عبدِه؛ بل يُكرمُه بمحو آثارِ معصيتِه وجعْلِ توبته بابًا للنُّور والثَّواب؛ جاءَ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ وَهْبٍ[1] قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «**إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحًا أَحَبَّهُ الله فَسَتَرَ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: يُنْسِي مَلَكَيْهِ مَا كَانَا يَكْتُبَانِ عَلَيْهِ، وَيُوحِي الله إِلَى جَوَارِحِهِ وَإِلَى بِقَاعِ الْأَرْضِ أَنِ اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ، فَيَلْقَى الله عزَّ وجلَّ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ**»[2].

١- قال النجاشي: «معاوية بن وهب البجلي، أبو الحسن: عربي، صميم، ثقة، حسن الطريقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام. له كتب منها، كتاب فضائل الحج». معجم رجال الحديث: ج ١٩، ص ٢٤٤.

٢- الكافي: ج ٢، ص ٤٣١.

٤. ستر العيوب

قال الإمامعليه السلام: «**وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى**».

وكما صرّح سابقًا، فإنَّ الباري عزّ وجلّ لم يكتفِ بإخفاء ذنوبِ العبدِ وسترِ عيوبِه، بل منحَ عبدَه غفرانَه وعظيمَ رحمته، على الرَّغم من أنَّ العبدَ قد يكون أحقَّ بالفضيحة بالنَّظر إلى تقصيرِه وذنوبِه؛ فعبد قد غرق في رحمة الله عزّ وجلّ كيف يعصي ذلكَ الربّ العظيم سبحانه وتعالى؟

٥. شروط التَّوبة الميسرة

قالعليه السلام: «**وَلَمْ يُشدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ**».

فبمجرد أن يعودَ العبدُ إلى ساحة رحمةِ اللهِ عزّ وجلّ، يجد بابه مفتوحًا، ويغفرُ له ما مضى من الذُّنوب والمعاصي من دون أن يفرضَ قيودًا معقدةً أو شروطًا صعبة قد تعيق العبد عن التَّوبة.

بل إنَّ شروطَ التَّوبة التي وضعها الله جلّ جلاله ميسَّرة وبإمكانِ كلِّ عبد أن يؤدِّيها بيسر؛ فالإقلاعُ عن الذَّنب، والنَّدم على ما فات، والعزم على عدم العودة إليه، هي شروط تتماشى مع الفطرة الإنسانيَّة؛ وعندما يُتمُّ العبدُ هذه الشُّروط، فإنَّه لا ينال فقط مغفرة الله سبحانه وتعالى، بل تتجلَّى ثمرة عظيمة في راحة النَّفس، وتبديل السَّيئات حسنات.

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «كَانَ لِي جَارٌ يَتَّبِعُ السُّلْطَانَ فَأَصَابَ مَالًا فَأَعَدَّ قِيَانًا وَكَانَ يَجْمَعُ الْجَمِيعَ إِلَيْهِ، وَيَشْرَبُ الْمُسْكِرَ، وَيُؤْذِينِي؛ فَشَكَوْتُهُ إِلَى نَفْسِه غَيْرَ مَرَّةٍ فَلَمْ يَنْتَهِ فَلَمَّا أَنْ أَلْحَحْتُ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لِي: يَا هَذَا أَنَا رَجُلٌ مُبْتَلًى وَأَنْتَ

رَجُلٌ مُعَافًى فَلَوْ عَرَضْتَنِي لِصَاحِبِكَ رَجَوْتُ أَنْ يُنْقِذَنِي اللهُ بِكَ؛ فَوَقَعَ ذَلِكَ لَهُ فِي قَلْبِي، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام ذَكَرْتُ لَهُ حَالَهُ؛ فَقَالَ لِي: «**إِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْكُوفَةِ سَيَأْتِيكَ فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: دَعْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَأَضْمَنَ لَكَ عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ**»؛ فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْكُوفَةِ أَتَانِي فِيمَنْ أَتَى فَاحْتَبَسْتُهُ عِنْدِي حَتَّى خَلَا مَنْزِلِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ يَا هَذَا إِنِّي ذَكَرْتُكَ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عليه السلام فَقَالَ لِي إِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْكُوفَةِ سَيَأْتِيكَ فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: **دَعْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَأَضْمَنَ لَكَ عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ**. قَالَ: فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ لِي: اللهِ لَقَدْ قَالَ لَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ هَذَا؟. قَالَ: فَحَلَفْتُ لَهُ أَنَّهُ قَدْ قَالَ لِي مَا قُلْتُ، فَقَالَ لِي: حَسْبُكَ وَمَضَى، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ بَعَثَ إِلَيَّ فَدَعَانِي وَإِذَا هُوَ خَلْفَ دَارِهِ عُرْيَانٌ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَصِيرٍ لَا وَاللهِ مَا بَقِيَ فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ أَخْرَجْتُهُ وَأَنَا كَمَا تَرَى، قَالَ فَمَضَيْتُ إِلَى إِخْوَانِنَا فَجَمَعْتُ لَهُ مَا كَسَوْتُهُ بِهِ ثُمَّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ أَيَّامٌ يَسِيرَةٌ حَتَّى بَعَثَ إِلَيَّ أَنِّي عَلِيلٌ فَأْتِنِي، فَجَعَلْتُ أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ وَأُعَالِجُهُ حَتَّى نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَكُنْتُ عِنْدَهُ جَالِسًا، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ غَشْيَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَصِيرٍ قَدْ وَفَى صَاحِبُكَ لَنَا، ثُمَّ قُبِضَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا حَجَجْتُ أَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلْتُ قَالَ لِي ابْتِدَاءً مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ وَإِحْدَى رِجْلَيَّ فِي الصَّحْنِ وَالْأُخْرَى فِي دِهْلِيزِ دَارِهِ: **يَا أَبَا بَصِيرٍ قَدْ وَفَيْنَا لِصَاحِبِكَ**»[1].

١- الكافي: ج ١، ص ٤٧٤.

٦. من نتائج التَّوبة

قال عليه السلام: «وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ».

ويستمرُّ الخالقُ سُبحانَه وتعالى في إغداقِ نعمهِ ورحمتهِ على العبدِ العاصي إذا عادَ إليه تائبًا، فلا يردُّ اعتذارَه ولا يغلقُ في وجهه بابَ القبول؛ فهو عزّ وجلّ الغنيُّ عن طاعةِ عبادِه، فلا تضرُّه معصيةُ العاصين، ولا تزيدهُ طاعةُ المطيعينَ، ومع ذلكَ، يتجلَّى كرمه في قبول التَّائبين.

إنَّ اللهَ جلّ جلاله، بحكمته ورحمته، لم يتركْ لليأس سبيلًا إلى قلوبِ عبادِه؛ بل حرَّمَ القنوطَ من رحمتهِ وجعلَ اليأسَ من كبائرِ الذُّنوب، ولم يكتفِ بذلك؛ وإنَّما فتح باب التوبة على مصراعيه، ليس فقط للتكفير عن السيئات، بل ليكون التائب أهلًا لتحصيل الحسنات، وهكذا، تصبح التوبة بفضل الله عزّ وجلّ وسيلةً لتطهيرِ النَّفس ووسيلة للوصول إلى رضوانه جلّ جلاله؛ قال سُبحانَه وتعالى: **﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾**[1].

١ – سورة الفرقان/ الآية: ٧٠.

الفرع الثَّالث: الحثُّ على طلب الرَّحمة والاستعانة

١. سميع النِّداء

قال عليه السلام: «فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ».

وهنا إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾[١]؛ فلا يحجبه شيءٌ عن عبده، ولا تختلف الأصوات عنده حتَّى لو اجتمعت كلُّ الأصوات في آنٍ واحد؛ وقد ورد في دعاء علقمة: «**...يا مَنْ لا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الأَصْواتُ، وَيا مَنْ لا تُغَلِّطُهُ الحاجاتُ، وَيا مَنْ لا يُبْرِمُهُ اِلْحاحُ الْمُلِحّينَ، يا مُدْرِكَ كُلِّ فَوت، وَيا جامِعَ كُلِّ شَمل، وَيا بارِئَ النُّفُوسِ بَعْدَ المَوْتِ...**»[٢].

٢. عليم بالنَّجوى

قال عليه السلام: «وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ».

إشارة إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾[٤]؛ فهو مع عبدِه في كلِّ الأحوالِ؛ سواء طلب بالصَّوت، أو بإخفائه، وسواء طلبَها بالسِّر، أو بالجهر؛ فإنَّ الله جلَّ جلاله يقضي حاجتَه.

١- سورة إبراهيم/ الآية: ٣٩ .
٢- الكافي: ج ٢، ص ٥٩٤.
٣- سورة آل عمران/ الآية: ٢٩.
٤- سورة الزخرف/ الآية: ٧٩.

٣. الملجأ الرَّؤوف

علاقةُ العبدِ مع ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي علاقة تتَّسم بالرَّحمة والمحبَّة، والله عزّ وجلّ لا يريد لعباده إلَّا الخير؛ قال عليه السلام: «**فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ**».

وهنا يتضحُ الفرقُ بين العونِ الإلهي وغيره؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقتصر في عطائه على ما هو متاح للجميع؛ بل يعطي من خزائنِه اللامحدودة ما يعجز عنه البشر.

إنَّ طلبَ العبدِ من الله جلّ جلاله أن يفرِّجَ عنه كروبَه ويزيلَ همومه ليس محض رجاء؛ وإنَّما هو اعتراف بالضَّعف البشري وأنَّنا بأمسِّ الحاجة إلى الله عزّ وجلّ في كلِّ خطوة، وعندما يسأل العبد (من خزائن رحمته)، إنَّما يطلب ما لا قدرة للبشر على إعطائه، وهذه الصورة هي أسمى صور اللجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حين لا يجد العبد بديلاً سوى أن يلجأ إليه جلّ جلاله، الذي لا يرد يدًا رفعتها إليه، وَكَانَ مِنْ دُعَاء الإمام السجاد عليه السلام فِي التَّضَرُّعِ وَالاسْتِكَانَةِ:

«... **يَا كَهْفِي حِينَ تُعْيِينِي الْمَذَاهِبُ وَ يَا مُقِيلِي عَثْرَتِي، فَلَوْلَا سَتْرُكَ عَوْرَتِي لَكُنْتُ مِنَ الْمَفْضُوحِينَ، وَ يَا مُؤَيِّدِي بِالنَّصْرِ، فَلَوْلَا نَصْرُكَ إِيَّايَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَغْلُوبِينَ، وَ يَا مَنْ وَضَعَتْ لَهُ الْمُلُوكُ نِيرَ الْمَذَلَّةِ عَلَى أَعْنَاقِهَا، فَهُمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ خَائِفُونَ، وَ يَا أَهْلَ التَّقْوَى، وَ يَا مَنْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، أَسْأَلُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَنِّي، وَ تَغْفِرَ لِي فَلَسْتُ بَرِيئاً فَأَعْتَذِرَ، وَلَا بِذِي قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرَ، وَ لَا مَفَرَّ لِي فَأَفِرَّ**»[١].

---

١ - الصحيفة السجاديَّة (أبطحي): ص ٣٧٧.

المَبحَثُ الثَّانِي

رَكَائز وَعيّ المجتمَع

المطلب الأوَّل: الدُّعاء وسيلة لتحصيل النّعمة و الرَّحمة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفاتِيحَ خَزائِنِهِ بِما أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ»[١].

من عِلل الخلْقِ العُبوديَّةُ للهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، وجوهرُ العبادةِ وأصلُها وأساسُها الحاجةُ إلى اللهِ عزّ وجلّ، والاعتقادُ بعظمةِ اللهِ جلّ جلاله، والسَّيرُ فيما يريد ويحب سبحانه وتعالى؛ والدُّعاء يتضمنُ هذه المفاهيم بأسمى وأصدق تجسيداتها؛ وإذا تحقَّقت هذه المفاهيم الثَّلاثة في واقع الإنسان ووجدانه؛ فإنَّ الإنسانَ في هذه الحالةِ قد امتلكَ مفاتيح خزائن السَّموات والأرض؛ لأنَّه عندما يلتزم بالعبوديَّة لله سبحانه وتعالى، يصبح مرتبطًا به ارتباطًا يتيحُ له الإفادة من بركاتهِ وعطاياه عزّ وجلّ.

وإذا أُضيفَ العبد إلى اللهِ جلّ جلاله أعطاه عزّ وجلّ الوسيلة التي توجب نزولَ رحمتهِ ولطفهِ وتحقيقِ حوائجهِ من طريق السُّؤال والدُّعاء؛ وبهذا أصبحَ الدُّعاء من أهمِّ الأعمالِ وأحبِّها؛ لأنَّه من جهةٍ وجه العبادة، ومن جهةٍ أخرى بوَّابة النِّعم والرَّحمة في أيِّ وقت شاء؛ قال عليه السلام: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبِيبَ رَحْمَتِهِ».

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٠.
٢- سورة الذاريات/ الآية: ٥٦.

وهنا نجدُ روعةَ التَّعبير، وقمَّةَ البلاغة، ومرآةَ القرآن الكريم، ولسانَ الرَّسول الأعظم محمَّد ﷺ أميرَ المؤمنينَ عليًّا عليه السلام قد «استعار لفظَ المفاتيح للأدعية باعتبار أنَّها أسباب لتحصيل النِّعمة وكمالِ الرَّحمة؛ متى شاء استفتحَ بها أبوابَ خزائنها، وكذلكَ استعار لفظَ الأبوابِ لأسباب جزئيات النِّعم الواصلةِ إلى العبد... واستعارَ وصفَ الاستمطارِ لطلبِ نعم اللهِ تعالى ملاحظة لشبهها بالمطر؛ كونهما سببينِ للحياةِ وصلاحِ الحالِ في الدُّنيا، ويشبِّه طالبيها بالمستمطر...»[1]؛ وهذا يدلُّنا إلى أنَّ الدُّعاء يحققُ للدَّاعي ما يشاء من الأرزاق سواء كانت المادِّيَّة أو المعنويَّة؛ لذلكَ ينبغي الاهتمام به أشدَّ الاهتمام، وعدم تضييعه.

والأمرُ الملفت للنَّظر أنَّ الدعاء يفتح أبواب النِّعم متى شاء، وهذا ينبِّهنا إلى حقيقة أنَّ الدُّعاء لو حصل، ورفعت الكفَّين إلى السَّماء، أو طلب ذلك من دون أيِّ مظهر من مظاهر الدُّعاء؛ فلن يرجع العبد خائبًا من نعم الله عزّ وجلّ.

«وشآبيب جمعُ شؤوب؛ وهو الدُّفعة من المطر»[2]؛ أي إنَّ رحمة الله سبحانه وتعالى، ونعمته تنزلُ على شكل دفعات؛ لا على شكل أجزاء؛ وربٌّ في هكذا حال أحقُّ أن تتوجهَ إليه، وأن تطلبَ منه.

الدُّعاءُ من جملةِ القضايا التي يمتحنُ بها الإنسان في مسيرته نحو الآخرة؛ فيبيِّن إيمانَ الإنسانِ ويقينَه وعقيدتَه، وارتباطَه باللهِ عزّ وجلّ، ومدى صبرِه على المحن والعقبات التي تعترضُهُ في هذه الحياة، وأهمُّ من كلِّ ذلك أنَّ الدُّعاء يبيِّن حقيقةَ سلوكِ العبد ومقدارَ عقلِه؛ فمن الدَّاعين

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٣٥.
٢- لسان العرب: ج ١، ص٤٨٠.

من إذا أبطأت الإجابة كفر، وشكَّ بجود اللهِ جل جلاله، ومن العبادِ من يستغل ذلكَ في كسب الحياةِ الدُّنيا من دون النَّظر إلى الآخرة؛ لذلك، ينبغي الإلتفات إلى أصولِ الدُّعاء الأساسية؛ وهي:

الفرع الأوَّل: أسباب إبطاء الإجابة

قال عليه السلام: «**فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ**».

من الأسئلةِ التي يطرحُها بعضُ الناس هو: لماذا ندعو ولا يستجابُ لنا، أو لماذا تتأخر الاستجابة؟

والجواب على ذلك: إنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قد أوضحَ في هذهِ الكلمة أنَّ الاستجابةَ ليست بالضَّرورة أن تأتي مباشرةً بعد الدُّعاء؛ بل إنَّ الاستجابة تخضع لعوامل عدَّة؛ وأصلها عدم دخول القنوطِ واليأسِ إلى القلبِ بسببِ تأخيرِ الإجابة؛ «والقنوطُ من رحمة اللهِ تعالى الإياسُ منها، وقيلَ أشد الإياس من الشَّيء»[1]، والقنوط من رحمة الله جل جلاله من جملة الذُّنوب الكبائر التي تدلُّ على إنكارِ العبدِ لإله بيده خزائن كلِّ شيءٍ؛ وأهم عوامل تأخير الإجابة:

١. العطيَّة على قدر النيَّة

قال عليه السلام: «فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ».

نيَّة الإنسان وقصدُه له دخل كبير في تحقيقِ ما يصل إليه العبد، ومن مظاهر رحمة الله سبحانه وتعالى أن يثيبَ العبدَ على نيَّته، وإن لم يتجسَّد على شكل عمل وفعل في الخارج، وكما أنَّ للنيَّة أدوارها الإيجابيَّة، فلها أدوارها السَّلبيَّة؛ بل

١- مجمع البحرين: ص ١٠٨٤.

ورد في بعضِ الرِّوايات أنَّ بعضَ النَّاس مع ما هم من أعمال يدخلونَ إلى نار جهنَّم بفعل نيَّاتهم؛ عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «**مَنْ سَاءَ مَقْصَدُهُ سَاءَ مَوْرِدُهُ**»[١].

وعنه عليه السلام: «**إِذَا فَسَدَتِ النِّيَّةُ وَقَعَتِ الْبَلِيَّةُ**»[٢].

ويمكن توجيهُ حديث أميرِ المؤمنينَ عليه السلام على أنَّ الحديثَ يشكِّل قاعدةً، وأصلًا من أصولِ الدُّعاء، وإذا كانت العطيَّةُ على قدر النِّيَّة فينبغي أن نطلبَ من الله سبحانه وتعالى ما هو أعظم من الدُّنيا؛ وأن نطلبَ رضوانَ اللهِ عزّ وجلّ ومغفرتَهُ ورحمتَهُ، وإن كان لا ضير في طلب الحوائج الدُّنيوية، والعلَّ في ذلك أنَّ من طلب الأعلى؛ فإن لم يتحقَّق تحقَّق ما هو دونه؛ فلماذا لا نطلب التوفيقَ لما خُلقنا من أجلِهِ؟

وهكذا لتكن نيَّاتنا تحقيقَ الأهدافِ السَّامية، والغايات النبيلة، ويمكن توجيه الحديث كذلك «أنَّ الإجابةَ موقوفةٌ على الاستعدادِ بإخلاص النِّيَّة، فإذا تأخَّرت الإجابةُ فلعلَّ تأخيرها؛ لأنَّ النِّيَّة لم تكنْ خالصة»[٣]، أو «أنَّ الدَّاعي ليس أهلًا لذلك»[٤].

٢. الحصول على الأجزل

قال عليه السلام: «**وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الأمِلِ**».

كلَّما دخلْنا إلى نورِ المعصومينَ عليهم السلام عرفنا أسرارَ الحياةِ وأسرارَ التَّرابط بين العبدِ وبين سيِّدِهِ عزّ وجلّ؛ فالسَّيِّد والخالقُ لا يريدُ بعبادهِ إلَّا الرَّحمة؛ ولذلكَ

١- عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٤٦.
٢- م.ن: ص ١٣٥.
٣- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٣٥.
٤- في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص٢٢٠.

خلقَهم؛ وحتَّى حينما يبطأُ في إجابةِ دعوةِ عبدِه؛ فلا يعني ذلك بغضًا بعبدِه؛ وإنَّما يريدُ له السَّعادة والفلاح؛ ولو أيقن العبادُ بمقدار الرَّحمة التي تحيط بنا من خالقِنا؛ لما رفعنا رؤوسَنا من السُّجود طيلةَ أعمارِنا؛ شكرًا وتقديسًا وعبادة لهذا الرَّبِّ الرَّؤوف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نحنُ عبادٌ له عَزَّ وَجَلَّ، ولا يحقُّ لنا أن نسألَه، أو أن نجادلَه؛ فالأمرُ أمرُه، والحكمُ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع ذلكَ فحتَّى اللحظات التي يسعى فيها العبد أنَّه بحاجة لطلبته؛ يحولُ تلكَ اللحظات إلى أجر وثواب ومنفعة للإنسان، و«ربَّما أخرت قضاء الحاجة أو استجابة الدُّعاء بسبب النَّقص في بعضِ صفات السَّائل فيؤخِّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعطاء ما هو أعلى وأشرف ممَّا سأل، فيعطاه عند كمال استعداده؛ لأنَّه على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وبقدر الكدِّ يُكتب المعالي»[١].

وورد في دعاء الافتتاح: «...**اللّهُمَّ إنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبي، وَتَجاوُزَكَ عَنْ خَطيئَتي، وَصَفْحَكَ عَنْ ظُلْمي وَسِتْرَكَ عَنْ قَبيحِ عَمَلي، وَحِلْمَكَ عَنْ كَثيرِ جُرْمي، عِنْدَ ما كانَ مِنْ خَطئي وَعَمْدي، اَطْمَعَني في أنْ أسْأَلَكَ ما لا أسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، الَّذي رَزَقْتَني مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأرَيْتَني مَنْ قُدْرَتِكَ، وَعَرَّفْتَني مِنْ إجابَتِكَ، فَصِرْتُ أدْعُوكَ آمِناً، وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأنِسًا، لا خائِفًا وَلا وَجِلًا، مُدِلًّا عَلَيْكَ فيما قَصَدْتُ فيهِ إلَيْكَ، فَإنْ أبْطأَ عَنِّي عَتَبْتُ بِجَهْلي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذي أَبْطأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لي لِعِلْمِكَ بِعاقِبَةِ الأُمُورِ...**»[٢].

١- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٣٦.
٢- تهذيب الأحكام (تحقيق: خرسان): ج ٣، ص ٨٩.

وهناك توجيه آخر: «ربما تؤخرُ الإجابة، وإن كان الدَّاعي أهلٌ ومحلٌ، ولكن المصلحة توجب التَّأخيرَ؛ فعليه أن يصبر ولا ييأس؛ بل ويزداد من الدُّعاء؛ وبكلمةٍ جامعة: «إنَّ الله تعالى يستجيب ويحقِّق في الوقت الذي يراه هو جلَّت حكمته، لا في الوقت الذي يريدُ العبدُ لنفسهِ»[1]، وجوهرُ هذا السَّبب قد يكون لأجل عطاءٍ أعظم وثوابٍ أجزل.

٣. التَّأخير لما هو أفضل

قال عليه السلام: «**وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلا أَوْ آجِلًا**».

قد تتأخرُ الاستجابةُ؛ ويُعطى السَّائل في النِّهاية ما هو خيرٌ له من دعائه، سواء في الوقتِ القريبِ أو البعيدِ، والأمثلةُ على ذلكَ كثيرةٌ؛ فالله سبحانه وتعالى يقدِّر ما هو أفضل لعباده، ويعلم ما يصلحهم أكثر من معرفتهم بأنفسهم، وفي بعض الأحيان، يُمنع العبد من أمر يظنُّ أنَّه خير له، بينما يكون في ذلك وقاية من شرٍّ أو ضرر لم يدركه.

٤. الطَّلب الخاطئ

قال عليه السلام: «**أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْر قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ**».

ربما يطلب الإنسان أمرًا فيه ضياعُ دينهِ ودنياه، ولا يلتفت إلى هذا الأمر، وهذه قضيَّة يثبتُها القرآنُ الكريمُ: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[2]؛ فيتصوَّر الإنسانُ أنَّ سعادتَه في تحقيقِ الأمر، إلَّا أنَّ خالقه جلَّ جلاله وسيِّده يصرفُ عنه سوءَ

١- في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص ٢٢١.
٢-سورة البقرة/ الآية: ٢١٦.

ذلكَ الأمر؛ لأنَّه عزّ وجلّ أعلمُ من الإنسان بما يصلحه ويفسده، ويعرفُ ما ينفعهُ ويضرُّهُ؛ فقد يطلب الغنى فيُطغيه، ويطلب الاقترانَ بامرأة؛ فتحوّل حياته إلى جحيم، وأوضح مثال لذلك علاقة الطَّبيب بمرضاه؛ فالطَّبيب يعطي لمريضهِ ما ينفعُهُ، لا ما يشتهيه فقد يشتهي اللذيذَ؛ وقد يكون هلاكه فيه.

الفرع الثَّاني: ماذا نسأل الله عزّ وجلّ؟

قال عليه السلام: «**فَلْتَكُنْ مَسَأَلـتُكَ فِيما يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ**».

القاعدةُ العامَّةُ التي تشملُ جميعَ المسائل والدَّعوات التي يسعى العبد لتحقيقها هي أن يطلبَ من اللهِ سبحانه وتعالى ما يعلي شأنه ويحقِّق له ما يورثه جمالَ الذِّكر الطَّيِّب في الدُّنيا والآخرة، مع الحرص أن تكون عاقبته خيرًا، فلا تكون النَّتيجةُ في النهاية سلبيَّةً أو مؤلمةً، وإنَّما يجب أن يكون طلبه متوافقًا مع ما يحقق له السَّعادةَ الحقيقيَّةَ، التي تستمر في أثرها الطيِّب وتعود عليه بالبركة في حياته وما بعد وفاته؛ فكلُّ أمر يحقِّق سعادة الدَّارين، ويكسب رضا الله عزّ وجلّ هو ممدوح، وأوردَ الإمام عليه السلام مصداقًا مهمًّا يدور حوله فكر الإنسان، ويطلبه في كلِّ آن؛ ألا وهو المال؛ فنبَّه الإمامُ عليه السلام إلى أنَّه يجب على الإنسان أن لا يكون همَّه منصبًا على طلبِ المال، الذي لن يدومَ له، كما أنَّ الإنسان نفسه لا يخلد في هذه الدُّنيا؛ بل ينبغي للإنسان أن يطلبَ ما يبقى له في الآخرة، من عملٍ صالحٍ وذكر طيِّب؛ فذلك هو الذي يضمن له السَّعادةَ الحقيقيَّةَ والخلودَ الأبديّ.

سؤال عجوز بني إسرائيل

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله على رجل في الجاهليَّة فأكرمه، فلماَّ بعث محمَّد صلى الله عليه وآله قيل له: يا فلان ما تدري من هذا النَّبي المبعوث؟ قال: لا، قالوا: هذا الذي نزلَ بكَ يوم كذا وكذا فأكرمته، فأكل كذا وكذا، فخرج حتَّى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله تعرفني؟ فقال: من أنت؟ قال: أنا الذي نزلت بي يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا فأطعمتك كذا وكذا، فقال: مرحبًا بك سلني، قال: ثمانين ضائنة برعاتها، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة، ثمَّ أمر له بما سأل، ثمَّ قال للقوم: ما كان على هذا الرَّجل أن يسأل سؤال عجوز بني إسرائيل؟

قالوا: يا رسولَ اللهِ وما سؤال عجوز بني إسرائيل؟ قال: إنَّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يحمل عظام يوسف عليه السلام، فسأل عن قبره، فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعلم ففلانة، فأرسل إليها فجاءت فقال: أتعلمينَ موضع قبر يوسف؟ فقالت: نعم، قال: فدلِّيني عليه ولك الجنَّة، قالت: لا، والله لا أدلُّك عليه إلَّا أن تحكمني قال: ولك الجنَّة، قالت: لا، والله لا أدلّك عليه حتَّى تحكمني، قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ما يعظم عليك أن تحكمها؟ قال: فلك حكمك، قالت: أحكم عليك أن أكون معك في درجتك التي تكونُ فيها، قال صلى الله عليه وآله، فما كان على هذا أن يسألني أن يكون معي في الجنَّة»[1].

١- قرب الإسناد (ط - الحديثة): ص ٥٩.

المطلب الثَّاني: ضرورة ذكر الموت

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ المَوتِ الَّذِي، لاَ يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ ذَلِكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ**»[1].

الفرع الأوَّل: علَّة الخلق

الكلُّ يسأل؛ وخاصَّة أصحاب المآسي والآلام: لماذا خلقنا اللهُ سبحانه وتعالى؟ وتعدَّدتْ الإجابات؛ وهنا لابدَّ من الالتفات وبيان حقيقة مهمَّة قبل الإجابة؛ ألا وهي إنَّ من يخترع جهازًا، أو يكتشف اكتشافًا علميًّا فالشَّخصُ الوحيدُ الذي يمكن لهُ أن يجيبَ عن علَّة هذا الاختراع هو نفسه، أو من نُصِّب وكيلاً عنه، وهذه القضيةنفسها تتجلَّى واضحةً في خَلْقِ هذا الكون؛ فالإجابة الصَّحيحة نتلقَّاها من الخالق جلّ جلاله مباشرةً، أو ممَّن اختارهم خلفاء عنه لتبليغ الأحكام والرَّسائلِ الإلهيَّة، وهم الأنبياءُ والرُّسلُ، والأوصياء من بعد النَّبي الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله، وأشرف هؤلاء وأعظمهم مكانةً بعده هو أمير المؤمنين عليه السلام؛ الذي أوضحَ في هذه الوصيَّةِ بعضَ أسرار الخَلْق وأهدافه؛ وأحدُ هذه الأسرار قوله عليه السلام: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ**»؛ أي إنَّنا خُلقنا لعالم غير هذا العالم؛ ألا وهو عالمُ الآخرة؛ وما هذا العالم إلَّا وسيلة لإحرازِ الغاية؛ لذلك، فإنَّ أيَّ عمل يخرجُ عن هذا الإطار أو يخالفُ هذا المنظورَ ينبغي الابتعاد عنه؛ إذ الغاية من خلقِ الإنسانِ التَّدرُّجُ

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٠.

في مراتب الكمالِ والطَّاعةِ للخالقِ سبحانه وتعالى والسَّير مستقيماً على شريعةِ أوليائه عليهم السلام، وطاعتهم الذينَ نصَّبهم مصابيح هداية للبشريَّة جمعاء، وهنا الفرقُ يصبحُ واضحًا بين الدُّنيا والآخرة، وأنَّ الدُّنيا دارُ ممر، والآخرةَ دارُ المقر.

وأمَّا خلقه للفناءِ لا للبقاء فتلكَ سُنَّةُ اللهِ جلّ جلاله: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾[1]، ولا يناقض هذا من أنَّ مصيرَ الإنسانِ لا ينتهي؛ وإنَّما هو انتقال من عالم إلى عالم آخر، والفناءُ هنا للصورة دون الذَّات والرُّوح، «وأمَّا أنَّه خُلق للموت لا للحياة؛ فإنَّ الإنسان لم يُخلق لهذه الحياة؛ ليبقى حيًّا فيها؛ فنصل إلى أنَّ العلَّة الغائيَّة من خلقِ الإنسان ووجودهِ هي للآخرة، وإنَّما ذُكر الموت والفناء والحياة والبقاء؛ ليبيِّن أنَّها علل عرضيَّة؛ لكونها من ضروراتِ وجوده...»[2].

وبمعنى آخر، أشارَ إلى الأمورِ العرضيَّةِ لتكونَ حافزًا للعمل من أجل الآخرة، ولتخفيفِ التَّعلُّق بالدُّنيا والارتباط بها، حتَّى لا يغترَّ الإنسانُ بوجودِها المؤقت؛ فهي فانية لا محالة.

الفرع الثَّاني: وصف الدُّنيا

قال عليه السلام: «**وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطريقٍ إِلَى الْآخِرَةِ**».

وحتَّى لا يطمئن الإنسانُ إلى الدُّنيا والرُّكون إلى البقاء فيها أوردَ ثلاثةَ أوصاف مهمَّة للغاية، لو تدبَّر فيها العبدُ لأحسنَ التَّصرفَ والسَّيرَ في هذه الحياة حتَّى يصل إلى هدفه الأسمى؛ والصِّفات هي:

الصفة الأولى: الدُّنيا منزل قلعة؛ وتفسير وروده في معنى قلعة آراء عدَّة:

١- سورة الرحمن/ الآية: ٢٧.

٢- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٣٧.

١. «أي منزل يُقلعُ الإنسانُ عنه، وليس مستقرًّا له»[١].

٢. «همَّ على قلعة؛ أي على رحلة؛ وليس بمستوطن»[٢].

٣. «القلعة بالضَّم المالُ العارية»[٣].

فنفهمُ من ذلكَ أنَّ الدُّنيا منزلُ عبور؛ لم تخلق للاستيطانِ والإقامةِ، وإنَّها منزل يقلعُ منه صاحبُهُ، ويرتحلُ عنه، ولا يبقى فيها؛ بل يرحلُ، ويتحرَّكُ عنها؛ ليحلَّ محلَّه قوم آخرونَ.

ومِمَّا رُوِيَ أَنَّ جَبْرَئِيلَ عليه السلام قَالَ لِنُوحٍ عليه السلام: يَا أَطْوَلَ الْأَنْبِيَاءِ عُمُراً كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: «**كَدَارٍ لَهَا بَابَانِ، دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ**»[٤].

وعن الإمامِ زينِ العابدينَ عليه السلام: «**إنَّ جميعَ ما طَلَعَتْ عليهِ الشَّمسُ في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها، بَحرِها، وبرِّها، وسَهْلِها، وجَبَلِها، عندَ وَليٍّ مِن أولياءِ اللهِ وأهلِ المَعرفةِ بحقِّ اللهِ كَفَيْءِ الظِّلالِ**»[٥].

وعن الإمامِ الباقرِ عليه السلام: «**أنزِلِ الدُّنيا كمَنزِلٍ نَزلتَهُ ثُمَّ ارتَحلتَ عَنهُ، أو كمالٍ وَجدتَهُ في مَنامِكَ فاستيقَظتَ ولَيس مَعكَ مِنهُ شيءٌ، إنِّي (إنَّما) ضَربتُ لكَ هذا مَثَلاً؛ لأنَّها عِندَ أهلِ اللُّبِّ والعِلمِ باللهِ كَفَيْءِ الظِّلالِ**»[٦].

ومِمَّا ينسب للإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام:

يَا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا ... إِنَّ الْمُقَامَ بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمْقٌ[٧].

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٠.
٢- نخبة الشرحين: ج ٤، ص ١٦٠١.
٣- مجمع البحرين: ص ١٠٧٨.
٤- نزهة النواظر وتنبيه الخواطر (مجموعة ورَّام)، ورَّام بن أبي فراس المالكي الأشتري (ت: ٦٠٥هـ)، الناشر: دار الكتب الإسلاميَّة، ١٣٦٨ ش، الطبعة: الثَّانية: ج ١، ص ١٣٩.
٥- مكاتيب الأئمة عليهم السلام: ج ٤، ص ٤٩١.
٦- الكافي: ج ٢، ص ١٣٣.
٧- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام (لابن شهرآشوب): ج ٤، ص ١٥.

الصفة الثَّانية: الدُّنيا دار بُلغة

«البلغة بالضَّم الكفاية، وهو ما يكتفي به في العيش؛ ومنه الحديث في الدُّنيا: «**فإنَّها دار بُلغة، ومنزل قَلعة**»[1]؛ أي دار عمل يتبلَّغ فيها من صالح الأعمال، ويتزوَّد... «وتبلَّغ بكذا: اكتفى به»[2]؛ والمعنى «أنَّ دارَ الدُّنيا، يؤخذ منها قدر الكفاية للآخرة؛ فهي للبلاغ، لا للبقاء»[3]، وبمعنى آخر؛ إنَّها إنَّما خلقت؛ ليتَّخذ منها الإنسانُ بلاغًا للوصولِ إلى الآخرة وزادًا؛ لكونها طريقًا إليها»[4]؛ هنالك طريق سفر لا بدَّ من أن تسلكه، ويجب أن تحمل فيه الزَّاد من هذه الدَّار، على أن يكون هذا الزَّاد كافيًا للوصول إلى المحطَّة النِّهائيَّة لرحلة الإنسان.

وممَّا روي عن لقمان الحكيم عليه السلام قوله: «**يا بُنَيَّ، إنَّ الدُّنيا بَحرٌ عَميقٌ، هَلَكَ فيها بَشَرٌ كَثيرٌ، تَزَوَّد مِن عَمَلِها، وَاتَّخِذ سَفينَةً حَشوُها تَقوَى الله، ثُمَّ اركَب لُجَجَ الفُلك تَنجو، وإنِّي لَخائِفٌ أن لا تَنجُوَ. يا بُنَيَّ، السَّفينَةُ إيمانٌ، وشِراعُها التَّوَكُّلُ، وسُكَّانُها الصَّبرُ، ومَجاذيفُها الصَّومُ وَالصَّلاةُ وَالزَّكاةُ. يا بُنَيَّ، مَن رَكِبَ البَحرَ مِن غَيرِ سَفينَةٍ غَرِقَ**»[5].

١- الكافي: ج ٨، ص ٧٥.
٢- مجمع البحرين: ص١٣٧.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٠.
٤- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٣٧.
٥- الاختصاص: ص ٣٣٦.

الصفة الثَّالثة: الدُّنيا طريق الآخرة

ومن هذه الكلمة نفهمُ أنَّ الدُّنيا زائلة وليست باقية، وأنَّ الإنسانَ في سفر، وطريق ذلك السَّفر ينتهي إلى الآخرة، ولهذا على الإنسانِ أن يعملَ لدار مقرِّه لا لدار ممرِّه، وأن يكونَ شوقُهُ وهدفُهُ وغايته الوصولَ إلى ذلك المنزل الذي كان يبنيه وهو في الدُّنيا، وتأكيدًا على أنَّ دارَ الدُّنيا ليست هي العلَّة من وراءِ الخلق، وأنَّها الوسيلةُ التي يمكن أن نصلَ بها إلى الغاية؛ واستعدادًا واستثمارًا لهذه المدَّة الزَّمنية نبَّه على أنَّه طريدُ الموت، «واستعار له لفظ الطَّريد ملاحظة لشبهه بالصَّيد يطرده السَّبع، وغيره؛ إلَّا أنَّ الفرق هو أنَّ الصيد قد ينجو ممَّن يريد أن يفترسَهُ، وينجو؛ أمَّا من كان طريدًا للموت، فلا يمكن أن يهربَ منه، ولو بعد حين؛ فقد تطولُ الأعمارُ، وفي النِّهاية لابدَّ من ورود هذا الزَّائر والصَّائد؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1]؛ فمهما حاولَ الإنسانُ الهربَ، وإعداد مقدِّمات البقاءِ مثل الحفاظ على الصِّحة، والتَّحصن بالحصونِ القوِّية؛ فالموتُ يدركُهُ.

ثمَّ أشار الإمام عليه السلام إلى موعظة مهمَّة للغاية بعد أن أصبح معلومًا أنَّ الموت لا يمكن أن يفرَّ منه أحد: «**فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ**»، وأنَّ الإنسانُ إذا كانَ لا يمكن أن يهربَ أو ينجو من هذا الصَّائد؛ فاللازم أن يستعدَّ له، وأن يوطِّن نفسَه على قبوله، وأن يبقى سائرًا في خطِّ الله جلَّ جلاله وخطِّ أوليائه عليهم السلام، وأن يكون حذرًا أن يأتيه

١- سورة الجمعة/ الآية: ٨.

الموتُ وهو في حالةٍ سيئة؛ متلبسًا بالمعاصي والذُّنوب، تاركًا لفرائض اللهِ عزّوجلّ، مشتغلًا بالدُّنيا وملذّاتها، قد اسود وجهُهُ من المعاصي والآثام؛ وذلك ممَّا يورث سوء الخاتمة - والعياذ بالله عزّوجلّ- وهذه الكلمة ترشدنا إلى أنَّ الموت والتَّفكر فيه من أفضل الوسائل التي تنبِّه الإنسان، وتوقظه من سباته وغفلته؛ ولو أنَّ الإنسانَ في كلِّ معصية وضع الموتَ نصب عينيه لابتعد عنها، واجتنبها.

ثمَّ إنَّ الإمام عليه السلام بيَّن حقيقة أخرى، وهي إنَّ حديثَ النَّفس بالتَّوبة لا ينفع إن لم يتقدَّم خطوات؛ فالتَّوبة تبتني على أصول معنويَّة مثل النَّدم والحسرة على الأعمال السَّابقة، وأصول مادِّيَّة؛ وهي التَّحرك لإصلاح ما فات؛ ولذلك يفتي الفقهاء في موضوع التوبة، ويؤكدون على حقيقة: «... وجوب التَّوبة على الفور فإنَّ الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن، وكما يجب على شارب السُّمِّ المبادرة إلى الاستفراغ تلافيًا لبدنه المشرف على الهلاك ، كذلك يجب على صاحب الذُّنوب المبادرة إلى تركها والتَّوبة منها تلافيا لدينه المشرف على التَّهافت والاضمحلال...»[1].

١- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول صلى الله عليه وآله، محمَّد باقر بن محمَّد تقي المجلسي (ت: ١١١١ هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلاميَّة، المطبعة: مروي، ١٤٠٤ هـ.ق ، الطبعة: الثانية: ج ١١، ص ٣٢٩.

المطلب الثَّالث: فوائد ذكر الموت

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «يَا بُنَيَّ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ المَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلاَ يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فيبهركَ»(١).

الفرع الأوَّل: ثمار ذكر الموت

ممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ ذكرَ الموتِ وعقباتِ ما بعد الموتِ من القضايا التي ورد التَّذكير بها في القرآنِ الكريم ورواياتِ المعصومينَ عليهم السلام كثيرًا؛ وهذا الإكثار إنَّما وجد لعلَّة تأثيرهِ في سلوكِ الإنسانِ وتقويمِه، وداعيًا قويًّا لأجلِ الحذرِ والتَّزوّد لما بعد الموت؛ ولعلَّ وصية الإمام عليه السلام بالإكثار من ذكر الموت بقوله: «يَا بُنَيَّ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ»؛ لفوائد عدَّة:

١. الحثُّ على استثمار الدُّنيا على أفضل وجه، والزُّهد فيها.

ذِكرُ الموتِ من أعظم المواعظ التي توقظُ القلوبَ، وتعيدُ الإنسان إلى جادَّة الصَّواب؛ فهو يذكِّرنا بحقيقةِ الدُّنيا وزوالِها، ويحثُّنا على استثمارِ أيَّامنا في ما ينفعنا عند الله سبحانه وتعالى، وحينَ يتأمَّل الإنسانُ في حتميَّة الرَّحيل، يدركُ أنَّ كلَّ لحظة من عمرهِ هي فرصة ثمينة، لا ينبغي أن تضيع في اللهو أو الغفلة؛ فيسعى الإنسانُ إلى أداءِ الفرائض، والإكثارِ من الطَّاعات، والإحسانِ إلى النَّاس، مدركًا أنَّ ما يقدِّمه في الدُّنيا هو زاده الحقيقي في الآخرة، كما يزرعُ في النَّفس الزُّهد، فلا يتشبَّث بمتع الدُّنيا الزَّائلة؛ بل

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٠.

يسعى لتحقيقِ الغاياتِ العُليا؛ لأنَّ ذكرَ الموت يعيدُ ترتيبَ الأولويات، ويجعل العمل الصَّالح هو الهدف، فتكونُ الدُّنيا وسيلةً للسَّعادة الأبديَّة، لا غاية. وبالتَّالي الإسهام في تهذيب النَّفس وتزكيتها؛ عن الإمام علي عليه السلام: **«مَن ذَكَرَ المَوتَ رَضيَ مِن الدُّنيا باليسير»**[١].

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: **«أَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْثِرْ إِنْسَانٌ ذِكْرَ الْمَوْتِ إِلَّا زَهِدَ فِي الدُّنْيَا»**[٢].

٢. **إعطاء صورة حقيقية** وواقعيَّة للهدف النِّهائي للإنسان؛ ألا وهو السَّير باتجاه الآخرة.

٣. **ذكر الموت عبادة**؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أفضَلُ الزُّهدِ في الدُّنيا ذِكرُ الموت، وأفضلُ العِبادةِ التَّفكُّرُ؛ فمن أثقَلَهُ ذِكرُ المَوتِ وَجَدَ قَبرَهُ رَوضَةً مِن رِياضِ الجَنَّةِ»**[٣].

الفرع الثَّاني: لماذا يكره بعض الناس ذكر الموت؟

إذا كانَ لذكر الموتِ فوائد عظيمة تتجلَّى في تهذيبِ النَّفس، وحثِّ الإنسانِ على الاستعدادِ للآخرة، وتوجيهه للعيشِ بوعي، فلماذا نجدُ بعضَ النَّاس ينفرونَ من هذا الذِّكر، ويكرهونه؟

الجواب: هناك مجموعة من الأسباب تدعو لذلك، وأبرزها:

١. **عدم معرفة حقيقة الموت**، وأنَّه انتقالٌ من عالم إلى عالم آخر أكثر ملائمة للإنسانِ، والجهلُ بهذه الحقيقة هو جهل بالمصير، بينما الرِّوايات

١- غرر الحكم ودرر الكلم: ص٦٤٢.
٢- الكافي: ج٢، ص ١٣١.
٣- بحار الأنوار: ج ٦، ص ١٣٧.

الشَّريفة تبيّن أنَّ الموتَ كمال للإنسان، وبه يصيرُ إلى أفق أعلى؛ ولكن قلّة الإيمان أو ضعف اليقينِ بالحياةِ الآخرة يجعل بعضَ الناس ينظرُ إلى الموتِ وكأنّه النِّهاية المطلقة، بدلًا من كونه بوّابة للقاء الله جلّ جلاله والنَّعيم الأبديّ؛ «قيلَ لمحمَّد بن عَليٍّ بن موسى عليهم السلام: ما بالُ هؤلاءِ المُسلمينَ يَكرَهونَ الموتَ؟

قالَ: لأنَّهُم جَهلوهُ فكَرِهوهُ، ولو عَرَفوهُ وكانوا مِن أولياءِ الله عزّ وجلّ لأحَبُّوهُ، ولَعلِموا أنَّ الآخِرَةَ خَيرٌ لَهُم مِن الدُّنيا. ثُمَّ قالَ عليه السلام: يا أبا عبدِالله، ما بالُ الصَّبيِّ والمَجنونِ يَمتَنِعُ مِن الدَّواءِ المُنقِّي لبَدَنِه والنَّافي للألَمِ عنهُ؟ قالَ: لجَهلِهِم بنَفعِ الدَّواءِ. قالَ: والّذي بَعَثَ مُحمَّدًا بالحَقِّ نبيًّا إنَّ مَن استَعَدَّ للمَوتِ حَقَّ الاستِعدادِ فهُو أنفَعُ لَهُ مِن هذا الدَّواءِ لهذا المُتعالِجِ، أما إنَّهُم لَو عَرَفوا ما يُؤدِّي إلَيهِ المَوتُ من النَّعيمِ لاستَدعَوهُ وأحَبُّوهُ أشَدَّ ما يَستَدعي العاقِلُ الحازِمُ الدَّواءَ لدَفعِ الآفاتِ واجتِلابِ السَّلاماتِ»[1].

وعن الإمام العسكري عليه السلام: «دَخَلَ عليُّ بن محمَّدٍ عليهما السلام على مَريضٍ من أصحابِهِ وهو يَبكي ويَجزَعُ من المَوتِ، فقالَ لَهُ: يا عبدَ الله، تَخافُ من المَوتِ لأنَّكَ لا تَعرِفُهُ، أرأيتُكَ إذا اتَّسَختَ وتَقذَّرتَ وتَأذَّيتَ مِن كَثرَةِ القَذَرِ والوَسَخِ عليكَ، وأصابَكَ قُروحٌ وجَرَبٌ، وعَلِمتَ أنَّ الغَسلَ في حَمّامٍ يُزيلُ ذلكَ كلَّهُ؛ أما تُريدُ أن تَدخُلَهُ فَتَغسِلَ ذلكَ عنكَ؟ أوَما تكرَهُ أن لا تَدخُلَهُ فيَبقى ذلكَ عليكَ؟ قالَ: بلى يَا بنَ رسولِ الله. قالَ: فذاكَ المَوتُ هو ذلكَ الحَمّامُ، وهو آخِرُ ما بَقِيَ عَليكَ مِن تَمحيصِ ذُنوبِكَ وتَنقِيَتِكَ مِن سَيّئاتِكَ؛ فإذا أنتَ وَرَدتَ عليهِ وجاوَزتَهُ فقد نَجَوتَ مِن كُلِّ غَمٍّ وهَمٍّ وأذىً، ووَصَلتَ إلى كُلِّ سُرورٍ وفَرَحٍ، فَسَكَنَ الرَّجُلُ واستَسلَمَ ونَشِطَ وغَمَّضَ عينَ نَفسِهِ ومضى لِسَبيلِهِ»[2].

١- معاني الأخبار: ص ٢٩٠.
٢- تحف العقول: ص ٥٣.

٢. **عدم معرفة ما يقدم عليه بعد الموت**، وبمعنى آخر؛ يمكن أن يُعزى كره بعض الناس لذكر الموتِ إلى الخوفِ من المحاسبةِ والعقابِ على الذُّنوب؛ فيشعرونَ أنَّ الابتعادَ عن هذا الذِّكر يمكن أن يريحَ ضمائرَهم المضطربة، ولو بشكل مؤقت، وعلاجه أن يقدِّم لآخرته، ويعمِّر منزلَه ومأواه الأخير؛

فالموت له صورة أخرى غير ما نتصور؛ عن الإمام زينِ العابدينَ عليه السلام: «**لمّا اشتَدَّ الأمرُ بالحُسينِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليهما السلام نظَرَ إليهِ مَن كانَ مَعهُ فإذا هُو بخِلافِهِم؛ لأنـَّهُم كُلَّما اشتَدَّ الأمرُ تَغيَّرَت ألوانُهُم وارتَعدَت فَرائصُهُم ووجَبَت قُلوبُهُم؛ وكانَ الحُسينُ عليه السلام وبعضُ مَن مَعهُ مِن خَصائصهِ تُشرِقُ ألوانُهُم وتَهدَأُ جَوارِحُهُم وتَسكُنُ نُفوسُهُم. فقالَ بَعضُهم لبَعضٍ: انْظُروا، لا يُبالي بالمَوتِ! فقالَ لَهُمُ الحُسينُ عليه السلام: صَبرًا بَني الكِرام! فما المَوتُ إلَّا قَنطَرَةٌ تَعبُرُ بِكُم عَنِ البُؤسِ والضَّراءِ إلَى الجِنانِ الواسِعَةِ والنَّعيمِ الدَّائمَةِ، فأيُّكُم يَكرَهُ أن يَنتَقِلَ مِن سِجنٍ إلى قَصرٍ؟!**»[١].

٣. **الحزن على ما يخلف من الأموال والأهل والأولاد**؛ مع أنَّ هذه جميعًا ودائع عند الإنسان، ولا بدَّ أن تُرد الودائع إلى أهلها.

عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «**جاء رَجُلٌ إلى أبي ذرٍّ فَقالَ: يا أبا ذرٍّ ما لَنا نَكرَهُ المَوْتَ؟ فقالَ: لأَنَّكُمْ عَمَّرْتُمُ الدُّنْيا وأَخْرَبْتُم الآخِرَةَ، فَتَكرَهُونَ أَنْ تُنْقَلُوا مِن عِمْرانٍ إلى خَرابٍ، فَقَالَ لَهُ: فَكَيْفَ تَرى قُدُومَنا عَلَى اللهِ؟ فَقالَ: أَمَّا المُحْسِنُ مِنْكُمْ فَكَالغَائِبِ يَقْدُمُ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَمَّا المُسِيءُ مِنكُمْ فَكَالآبِقِ يُرَدُّ عَلَى مَوْلاهُ...**»[٢].

١- تحف العقول: ص٥٣.
٢- الكافي: ج٢، ص ٤٥٨.

إنَّ طبيعةَ النَّفس البشريَّة تميلُ بطبعِها إلى الرَّاحة والأمان، وذكر الموتِ يوقظُها من هذا الشُّعور، ويذكِّرها بفناءِ الدُّنيا وزوالِ متاعها، ممَّا يسبب لها القلق والخوف.

فيظهر ممَّا تقدَّم أنَّ ذكرَ الموت ليس مجرَّد تذكير بنهاية الحياة؛ بل هو دعوة للتأمُّل في مسارنا وأعمالنا، وأن ندركَ أنَّ الموتَ ليس نهاية مأساويَّة، بل هو خطوة نحو حياة أبديَّة في جوار الله عزّ وجلّ، وبتذكر الموت، نصبحُ أكثر وعيًا بأهميَّة الوقت وقيمة الأعمال، وبضرورة الاستعداد للآخرة؛ لذا، ينبغي أن نعيدَ النَّظر في علاقتنا بالموت ونراه دافعًا للتقوى والوعي، بدلًا من كونه مصدر القلق والخوف.

الفرع الثَّالث: عقبات ما بعد الموت

أشار الإمام عليه السلام إلى بعض العقبات والمحن التي تأتي بعد الموت؛ وما سيقدم عليه؛ لتكون حافزًا على العمل؛ فقال عليه السلام: «**وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ**»؛ أي ما ترد أنت عليه بعد الموت فجأة، وبلا تدرّج، «**و**»ما«**تُفْضِي**»؛ أي تصل «**بَعْدَ المَوْتِ إِلَيْهِ**» من المنزل الجديد، ذي الأهوال العظيمة؛ فإذا فعلت ذلكَ «**يأتيك**» الموت، «**وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلاَ يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ**».

«فإنَّ الإنسان عندما يذكر ما يخيفه، يسعى للابتعاد عنه، ويجمع قواه حتَّى يتغلَّب عليه، وأمَّا التَّسويف في العمل وتضييع العمر بالمعاصي والذُّنوب سيجعل صاحبه يتفاجأ بالموتِ؛ لأنَّه لم يستعد لتلك اللحظات الرَّهيبة والصَّادمة»[١].

١- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧١.

ومن هذا النَّص، يمكن استخلاص العديد من الفوائد التي تدعونا إلى التَّأمل والعملِ الجاد في حياتنا:

١. يذكِّرُنـا الإمـامُ عليه السلام بالعقبـاتِ والمحـنِ التـي نواجهـا بعـدَ المـوتِ بشـكل مفاجـئ، ممَّـا يثيـرُ فينـا الدَّافـعَ للاسـتعدادِ الجـاد لهـذه اللحظـاتِ الرَّهيبـة.

٢. التَّحذيـر مـن المفاجـأة يُظهـر أهميَّـةَ التَّأهـب الدَّائـم، ممـا يجعلنـا أكثـر حـذرًا في حياتِنـا اليوميَّـة، والحـذرُ لا يعنـي الخـوف، بـل الاسـتعداد الكامـل لملاقـاةِ تلـك اللحظـاتِ العصيبـة.

٣. التَّسـويفُ في العمـلِ الصَّالـح وتضييـعُ الوقـت في المعـاصي يمكـن أن يـؤدِّي إلى مفاجـأة المـوت بـلا استعداد، ممَّـا يزيـدُ مـن حجـمِ المفاجـأة والصَّدمـة.

٤. النَّـص يدعونـا لتغييرِ أولوياتنـا في الحيـاةِ والتَّركيـزِ عـلى الأعـمالِ التـي تقربنـا إلى الله عز وجل، بـدلًا مـن الانشـغال بالأشـياء التـي تلهينـا عـن هدفِنـا الحقيقـي؛ عـن الإمـامِ عـلي عليه السلام: «**بـادروا المـوتَ وغَمَراتِـه، ومَهِّـدُوا لـه قبـلَ حُلولـهِ، وأعِـدُّوا لـه قبـل نُزولـهِ؛ فـإنَّ الغايـة القيامـة**»[1].

١- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ١١٠.

المطلب الرَّابع: معرفة أهل الدُّنيا

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا؛ فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلاَ مُسِيمٌ يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا»[1].

الفرع الأوَّل: التَّعامل مع الدُّنيا

لما كانت الدُّنيا هي رأس كلِّ خطيئة وبابَ كلِّ غفلة، وحتَّى لا نكون من أبناءِ الدُّنيا فنلحقُ بها يومَ القيامة؛ ذكرَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام صفات الدُّنيا وصفات أبنائِها؛ حتَّى نعرف حقيقتَها، وندركَ عمقَها، وأين محلُّها من هذا الكون، وما هو تكليف العباد اتِّجاه هذه الدُّنيا؛ فهل نرتبطُ معها ونتفاعلُ معها إلى الحدِّ الذي تصبحُ هدفنا؟ أو نعرفها، ونعرف حقيقتها، وأنَّها زائلة فنأخذ منها لدارِ مقرِّنا؟

حذَّر الإمام عليه السلام بأسلوب بليغ من الاغترار بمظاهر الدُّنيا الفانية، قائلًا: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا» و«من معاني الاغترار إلصاق

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥١.

النَّفس بهم»(١) فنبَّه الإمام عليه السلام وحذَّر من خطورةِ الانخداع بما يبدو من استقرارِ أهلِ الدُّنيا واطمئنانهم إليها؛ إذ تظهرُ الدُّنيا كأنَّها دارُ قرار وأنَّها الغايةُ القصوى، في حين أنَّها لا تعدو كونها مرحلة مؤقتة في مسيرة الإنسان، ودار عبور وزوال.

وكيف يغترُّ بالدُّنيا مع أنَّ خالقها سبحانه وتعالى أخبرنا عنها، ووصفها وصفًا دقيقًا: «**فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا**»، والدُّنيا كشفت عن نفسها بنفسها؛ «**وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا**»؛ إذ تهلك إنسانًا بعد إعطائه الحياة، وتفقره بعد الغنى، وهي بنفسها أخبرتك بفنائها، عندما يقول: «**وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا**»؛ «إذ النَّعي خبر الموت، أو النَّعي الوصف الدَّقيق لها»(٢).

إنَّ الدُّنيا بنفسها تكشفُ حقيقتها بوضوح؛ فهي دارُ الفتن والابتلاء، ومنزلُ الأمراض والزَّوال، وبيتُ الهموم والمآسي، وهذه الحقائق لا تخفى على أحد، فنحن نشهدُها بأعيننا يومًا بعد يوم، وإذا كان الله عزّ وجلّ قد وصفها بهذا الوصف، والدُّنيا تعلنُ عن حقيقتها بهذا النَّعت؛ فهل يليق بعاقل أن ينخدع بها، أو يتَّخذها غايتَه الكبرى، ويطمئنُ إليها؟ مع العلم أنَّها لم تستقر يومًا لأحدٍ ممَّن سبق، فكيف يمكن أن تكونَ مستقرَّة لنا؟

«**رُوِيَ أنَّ عيسى عليه السلام كُشِفَ لَهُ الدُّنيا فَرَآها في صورَةِ عَجوزَةٍ شَمطاءَ عَلَيها مِن كُلِّ زينَة، فَقالَ لَها: كَم تَزَوَّجتِ؟ قالَت: لا أُحصيهِم، قالَ: فَكُلُّهُم ماتَ عَنكِ، أو طَلَّقوكِ؟ قالَت: بَل كُلَّهُم قَتَلتُ. قالَ عيسى عليه السلام: بُؤسًا لأزواجِكِ الباقينَ، كَيفَ لا يَعتَبِرونَ بِأَزواجِكِ الماضينَ؟ كَيفَ أهلَكتِهِم واحِدًا واحِدًا ولا يَكونونَ مِنكِ عَلى حَذَرٍ؟!**»(٣).

١- ينظر: مجمع البحرين: ص٩٤٠.
٢- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج٣، ص١٠٧.
٣- بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٣٢٨.

إنَّ التَّعلُّق بالدُّنيا والاطمئنان إليها والسُّكون لها يشكِّل مدخلًا للاعتداء على الآخرينَ والانحرافِ عن الحقِّ؛ إذ إنَّ حبَّ الدُّنيا يعمي البصيرة ويصمُّ الآذان، وإذا صارت الدُّنيا غايةً للنفس، أفسدت جوهرها وأبعدتها عن السَّعادة الأبدية؛ فالعقل يُحجب حينها بستار الضَّلال، فيتخبَّط في ظلمات الهوى، ويستبيح المحرَّمات، وينفر عن الطَّاعات.

قال الله سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

١- سورة القصص/ الآيات: ٧٦ - ٨٣.

الفرع الثَّاني: صفات أبناء الدُّنيا

وصفَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام أهلَ الدُّنيا بأعمق وأبلغ وصف؛ إذ رسمَ صورة واقعية تعكسُ الصِّراعَ الذي يدورُ فيها، ولإبراز هذا الوصف وجعله أكثر وضوحًا وتأثيرًا، يمكنُنا تنظيم هذه الصِّفات تحت عنوانات شاملة توضِّح الفكرةَ الأساسيَّة لكلِّ جانب من جوانب هذا الوصف:

١. معركة البقاء

فبعض هؤلاء استحكمت فيهم القوَّةُ الغضبيَّةُ، وطغتْ، وأطفأتْ، وحجبتْ نورَ العقل؛ فتحوَّلوا إلى كلاب عاوية، وسباع ضارية، وكلُّ واحدٍ يصيح في وجه الآخر، ويشنُّ عليه حملات من أجلِ القضاءِ عليه والاستئثارِ بالدُّنيا؛ العزيزُ يأكلُ الذَّليل، والكبيرُ يقهرُ الصَّغير، والقويُّ يأكلُ الضَّعيف؛ قال عليه السلام: «**فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ**».

وقيلَ: صَحِبَ رَجُلٌ عيسَى بنَ مَريمَ عليه السلام فقالَ: أكونُ مَعَكَ وأصحَبُكَ. فَانطَلَقا فَانتَهيا إلى شَطِّ نَهرٍ فَجلَسا يَتَغدَّيانِ ومَعَهُما ثلاثَةُ أرغِفَةٍ، فَأَكَلا رَغيفَينِ وبَقِيَ رَغيفٌ، فَقامَ عيسى عليه السلام إلَى النَّهرِ فَشَرِبَ ماءً، ثُمَّ رَجَعَ فَلَم يَجِدِ الرَّغيفَ، فَقالَ لِلرَّجُلِ: **مَن أخَذَ الرَّغيفَ؟**

قالَ: لا أدري. قالَ: فَانطَلَقَ ومَعَهُ صاحِبُهُ، فرأى ظَبيَةً مَعَها خِشفانِ[1] لَها، فَدَعا أحَدَهُما فَأَتاهُ فَذَبَحَهُ فَأَشوى[2] مِنهُ، فَأَكَلَ هُوَ وذلِكَ الرَّجُلُ، ثُمَّ قالَ لِلخِشفِ: قُم بِإِذنِ اللهِ، فَقامَ فَذَهَبَ. فَقالَ لِلرَّجُلِ: **أسأَلُكَ بِالَّذي أراكَ هذِهِ الآيَةَ، مَن أخَذَ الرَّغيفَ؟**

١- الخِشْفُ: وَلَدُ الغزال يطلق على الذَّكر والأُنثى. المصباح المنير: ص ١٧٠ «خشف».
٢- شَوَيتُ اللحمَ... وأشْوَيتُه ـ بالألف. م.ن: ص ٣٢٨ «شوى».

قالَ: لا أدري . ثُمَّ انتهَيا إلى وادي ماءٍ، فَأَخَذَ عيسى عليه السلام بِيَدِ الرَّجُلِ فَمَشَيا عَلَى الماءِ، فَلَمّا جاوَزاهُ قالَ: **أسأَلُكَ بِالَّذي أراكَ هذِهِ الآيَةَ، مَن أخَذَ الرَّغيفَ؟**

قالَ: لا أدري . قالَ: فَانتَهَيا إلى مَفازَةٍ[1] فَجلَسا، فَجَمَعَ عيسى عليه السلام تُرابًا أو كَثيبًا[2]، فَقالَ: **كُن ذَهَبا بِإذنِ الله!** فَصار ذَهبا، فَقَسَّمَهُ ثَلاثَةَ أثلاثٍ فَقالَ: **ثُلُثٌ لي، وثُلُثٌ لَكَ، وثُلُثٌ لِمَن أخَذَ الرَّغيفَ.**

قالَ: فَأَنَا أخَذتُ الرَّغيفَ. فَقالَ: **فَكُلُّهُ لَكَ.**

وفَارقَهُ عيسى عليه السلام، فانتهى إليهِ رجلانِ في المفازةِ ومعهُ المالُ، فأرادَ أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال: هو بيننا أثلاثًا، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتَّى يشتري لنا طعامًا قال: فبعثوا أحدهم، فقال الَّذي بعث: لأيِّ شيءٍ أقاسم هؤلاء في هذا المال؛ لكنِّي أضع في هذا الطعام سماً فأقتلهما؛ فآخذ المال وحدي قال: ففعل وقال ذانك الرَّجلان: لأيِّ شيءٍ نجعل لهذا ثلثًا؛ ولكن إذ رجع قتلناه واقتسمناه المال بيننا، قال: فلمَّا رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة قتلى عنده، فمرَّ بهم عيسى صلوات الله عليه على تلك الحال فقال لأصحابه: هذه الدُّنيا فاحذروها»[3].

١- المَفَازَة: البَرِّيّة القَفْر. النهاية: ج ٣، ص ٤٧٨ «فوز».
٢- الكَثيب: الرمل المستطيل المحدودب. النهاية: ج ٤، ص ١٥٢ «كثب».
٣- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ج ١، ص ١٨٨.

٢ . الغفلة والتَّخبط

إنَّ من تكون الدُّنيا همَّه يطفأ نورَ العقلِ، فيغفل ويتخبَّط يمينًا وشمالًا، ولا يعرف أين يتجه؛ فبعض يبقى في مكانه، وآخر يتحرَّك ضمن دائرة المجهول والعمى، فقال عليه السلام: «**نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، رَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ**»؛ «أي أنَّ بعض أهل الدُّنيا، وهم الضُّعفاء؛ كالبعير الذي عقلت يداه، فلا يتمكَّن من الحركة، «**وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ**» وهم الأقوياء، كالإبل التي أهملت فتفعل ما تشاء، «**قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا**»، أي أضاعتها؛ فلا تدرك بها، وركبت الطرق المجهولة التي لا يرى عاقبتها، «**سُرُوحُ عَاهَةٍ**»، وهنا وصف لحالةِ أهلِ الدُّنيا الذينَ ينشغلونَ بمكاسبِها وأحوالِها الزَّائلة، في إشارة إلى أنَّهم كالإبل التي تسرح لترعى؛ لكن هنا، بدلًا من أن ترعى الإبل ما ينفعها من نباتِ الأرض، فإنَّهم يسعونَ وراء «**عاهة**»، وهي كلُّ ما يسبب الآفات والأضرار، في إشارة رمزيَّة إلى أن مساعيهم تؤدِّي إلى الهلاك أو التَّعب بدلًا من النفع. «**بِوَادٍ وَعْثٍ**»؛ أي رخو يصعبُ فيه السَّير؛ لأنَّ سيرَ الإنسانِ في الدُّنيا مشكل صعب...»[١]، والظَّاهرُ أنَّ هذا الصِّنف هو الذي تغلبت عليه القوَّةُ الشَّهويَّةُ فهمُّه علفهُ، لا غير.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «**خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وهُوَ مَحزونٌ، فَأَتاهُ مَلَكٌ ومَعَهُ مَفاتيحُ خَزائِنِ الأَرضِ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، هذِهِ مَفاتيحُ خَزائِنِ الأَرضِ، يَقولُ لَكَ رَبُّكَ: اِفتَح وخُذ مِنها ما شِئتَ مِن غَيرِ أن تَنقُصَ شَيئًا عِندي. فَقالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: الدُّنيا دارُ مَن لا دارَ لَهُ، ولَها يَجمَعُ مَن لا عَقلَ لَهُ.**

١ - ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧١.

فَقالَ المَلَكُ: وَالَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ نَبيًّا، لَقَد سَمِعتُ هذَا الكَلامَ مِن مَلَكٍ يَقولُهُ فِي السَّماءِ الرّابِعَةِ حينَ أُعطيتُ المَفاتيحَ!»[1].

٣. لم يتمسَّكوا بالمعصوم عليه السلام

إنَّ أهمَّ بواعث إرسالِ الأنبياءِ والرُّسل وتنصيب الأولياء والأوصياء عليهم السلام هو لأجلِ أن يسيرَ العبادُ على الصِّراط المستقيم؛ فالمعصوم هو وسيلة التَّمسُّكِ بالغيبِ والآخرةِ، ولا يمكن لشخص أن يحل محلَّه إلَّا أن ينصِّبه المعصوم عليه السلام؛ والمعصوم له جنبتان؛ جنبة يعيشُ بها بين النَّاس، وجنبة أخرى يربطهم بالخالق جلَّ جلاله، ويدلُّهم، ويعرِّفهم على منازلِهم وديارهم التي ينبغي أن يكونوا فيها، وحينما يبتعدُ العبدُ عن الإمام المعصوم عليه السلام، وعن سلوكهِ وأقوالهِ وأفعالهِ يتحوَّل إلى شخص من أهل الدُّنيا؛ فيسعى لها، ولكن يتخبط هنا وهناك؛ والسبب في ذلك ما قاله الإمام عليه السلام: «**لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا**»؛ «أي ليس لهم إمام يقيمهم على طاعةِ اللهِ تعالى في طرق الهدى إلى مكارم الأخلاق»[2]، «وإذا كانَ ذلكَ افتقدت الرَّاعي الذي يأخذها إلى المرعى»[3]، ولا يتوقفُ الأمرُ عندَ ذلكَ؛ بل «**سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى**» وأخذتهم إلى جادَّة منحرفة؛ وسلوك الانحراف يعني سلوك طريق العمى، فأصبحوا كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيءٍ، ولا يبصر أين يضع قدمه؛ «**سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا**» فتاهوا، وضلَّوا في حيرة الدُّنيا، وغرقوا في نعمتها، «واستعار لفظ الغرق باعتبار استيلاء نعيمها على عقولهم وتملكه لهم؛

١- الكافي: ج ٢، ص ١٢٩.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٣٩.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٢.

كما يستولي الماء على الغريق»[1]، واتخذوها ربًّا، فإنَّهم يعبدونها، ويعملون لأجلها؛ فكانوا بمنزلةِ عبادِها.

٤. جعلوا أنفسهم ألعوبة بيد الدُّنيا

من جملةِ المفاسد لمن يتَّخذ الدُّنيا هدفًا؛ أنَّها تلعب بهم، وتورثهم المهالك، فقال عليه السلام: «**فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا**»، فأوردتهم المهالك، «**ولعبوا بها**»؛ «أي اشتغلوا بها غير منتفعين، وصرفوها كيف شاءوا بغيرِ مراقبة الشَّريعة فيها، «**وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا**» من أمور الآخرة والثَّواب والعقاب»[2].

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٤٠.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٢.

المطلب الخامس: ضرورة النّظرة الواقعيّة إلى الأمور

قال الإمام(عليه السلام): «رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَام، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا، وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا. وَاعْلَمْ يَقِينًا، أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا. وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا»[١].

الفرع الأوَّل: أهميَّة بناء النَّفس

بناءُ النَّفس وتزكيتُها وصيانتُها هو الوسيلةُ التي بها ندركُ النَّجاحَ والفلاحَ؛ وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريمُ في قوله(سبحانه وتعالى): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢]، ولعلَّ الإشارة إلى هذه المقدِّمة قبل بيان العوامل التي تربِّي النَّفس؛ إنَّما لأجل معرفة ضرورة الإسراع والاستعجال في صيانة النَّفس فإنَّ الموتَ وإن كان يبعثُ رسلَه قبلَ مجيئهِ يحذِّرونه بأن يتداركَ أمرَه، ومع ذلك إذا جاء وزار صاحبَه، فإنَّه لا يعطيه الوقتَ حتَّى يرجعَ، ويستأنفَ العملَ؛ لذلكَ أشارَ أميرُ المؤمنينَ(عليه السلام) إلى ضرورةِ الالتفات إلى ساعة الانتقال؛ فإنَّها لن ترجعَ بصاحبِها إلى عالمِ الدُّنيا حتَّى يتداركَ ما فات.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥١.
٢- سورة الشمس/ الآية: ٩-١٠.

قال الله عزّوجلّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١).

وعن الرَّسول الأعظم محمَّد صلّى الله عليه وآله: «**يا أبا ذرٍّ: إنَّك في ممرِّ اللَّيلِ والنَّهارِ في آجال منقوصة، وأعمالٍ محفوظة، والموتُ يأتي بغتة، ومَن يزرع خيرًا يوشِك أن يحصدَ خيرًا، ومَن يزرع شرًّا يوشِك أن يحصِدَ ندامةً، ولِكُلِّ زارعٍ مِثلُ ما زرعَ**»(٢).

وممَّا يُنسب للإمام علي عليه السلام:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ ... قَدْ غَرَّهُ طُولُ الْأَمَلِ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً ... وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلِ
وَلَمْ تَزَلْ فِي غَفْلَةٍ ... حَتَّى دَنَا مِنْكَ الْأَجَلُ(٣).

ويمكن أن نأخذَ فائدةً أخرى؛ وهي أنَّ الأيَّام تعملُ في الإنسان؛ وكلُّ يوم يمرُّ على الإنسان فإنَّه يقرِّبه أكثر إلى عالمِ الآخرة، وهذا يستدعي منَّا أن نضاعفَ الجهدَ، وأن نستثمرَ فرصةَ وجودِنا في هذهِ الحياة؛ فالأيَّام تمضي بنا سواء كنَّا نشعرُ بذلك أم لم نشعرْ؛ وسواء تحرَّكنا أم كنَّا في حالةِ سكون، فكلُّ لحظة تقرِّبنا إلى مصيرنا النِّهائي.

قال الإمام الحسين عليه السلام: «**يَا ابنَ آدمَ إنَّما أنتَ أيَّامٌ؛ كُلَّما مَضَى يومٌ ذَهَبَ بعضُكَ**»(٤)؛ حتَّى تصلَ إلى العالم المنشود والعالم الأرقى والعالم

١- سورة الأعراف/ الآية: ٣٤.
٢- الأمالي (الطوسي): ص ٥٢٧.
٣- ديوان أمير المؤمنين عليه السلام: ص ٣١٢.
٤- إرشاد القلوب إلى الصَّواب (الديلمي): ج١، ص ٤٠.

الذي هو نهاية مسير الدُّنيا، وهذا يحتاجُ إلى صبر قليل؛ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ**»؛ أي تمهَّلوا، وارفقوا، واصبروا قليلًا يُكشف ظلام الجهلِ والغفلة، فتنكشف أحوال الآخرة، وهنا وعيدٌ بالموت الذي من خلالهِ ترى الأبصارُ الحقيقةَ التي نادى بها جميعُ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام قال الله جل جلاله:

﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[1]؛ والآية تُظهرُ أنَّ الموت بوَّابةُ انكشافِ الحقيقةِ التي طالما أنكرَها الغافلونَ والجاهلونَ والمشكِّكونَ، وحينئذٍ لا يمتلكُ إلَّا النَّدم والحسرة؛ وسيرى ما أنكره في الحياة الدُّنيا حاضرًا أمامه الآن، وحينئذٍ: «**كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ**»؛ «والأضعان جمعُ ضعينة؛ بمعنى الهودج؛ أي يرد المسافرونَ إلى الآخرة، وحالهم أنَّهم يسرعونَ في سيرِهم نحو الآخرة، ويقرب أن يلحقوا بهم»[2]؛ فالسَّفر الذي أشارَ إليهِ أميرُ المؤمنين عليه السلام ليس على مطايا محسوسة، ولا في طرق محسوسة؛ بل المطيَّة فيه الليلُ والنَّهارُ، ولئن كانت مطيَّةُ السَّفر في الحياةِ الدُّنيا قد تتعبهُ وتجهدهُ وتستنفذُ قواه، وتورثُ المللَ والسَّأم فإنَّ الليلَ والنَّهارَ يسيرانِ بالإنسانِ، ويوصلانه إلى مقرِّه الأخير من دونَ أن يشعرَ بهما، أو يهتمَ بوجودِهما؛ فإنَّ التكرارَ قد يؤدِّي أحيانًا إلى غيابِ الاهتمام بما يتكرَّر، وإذا كان هذا؛ فما أحلى أن نطبقَ كلمةَ أمير المؤمنينَ عليه السلام: «**إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا**»[3].

١- سورة ق/ الآية: ٢٢.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٢.
٣- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ١٤٤.

الفرع الثَّاني: قواعد إصلاح النَّفس

إنَّ صيانـةَ النَّفـس وتهذيبَهـا وإعدادَهـا يحتـاجُ إلى قواعـد لا بـدَّ أن تـردَ عـن المعصـومعليهم السلام، لا أن نأخذهـا مـن أيِّ شـخصٍ مـن دونِ أن نعـرفَ علاقتَـه بـاللهِسبحانه وتعالى ومنزلتَـه؛ وأفـادَ أمـيرُ المؤمنـينَعليه السلام مجموعـة مـن القواعـد التـي تمثِّل أفضـلَ وسـيلة لبنـاءِ النَّفس، متوافقـة مـع السُّرعـة التـي تميِّـز الرِّحلـة التـي نحـن بصـدد خوضهـا، وأهمُّهـا:

١. «**وَاعْلَـمْ يَقِينًا، أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ**»؛ أي اعلم علمًا مطابقًا للواقع أنَّك لن تبلغَ ما تأمله من أمور الدُّنيا؛ لأنَّ الإنسانَ لا زال في الأمل، وكلَّما حصل مأمولًا وجَّه أملَه إلى مطلب آخر، وهكذا «فالأمل أبدًا متوجه إلى مطلوب ما ليس مدركًا في الحال»[١]، ولن تتجاوز ما ضُربَ لكَ من الأجل كما قالعزوجل: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[٢]، وأنَّكَ سالك طريقَ من سبقَ، فيوشكُ أن تلحقَ بهم، «ويعني بالأملِ ليس أملًا معيَّنًا؛ فلربما أدركه، ولكن ما إن يحقِّق الفرد أملًا إلَّا وبدت له آمال... وهكذا دواليك فيأتي الموت؛ والآمال تتراءى أمامَ الإنسان، ولا يدركُها، وهذا شيءٌ مدرك بالوجدان يمرُّ على كلِّ واحد منَّا...»[٣]، وجدير بمن كان كذلكَ؛ أي لا يبلغ أملَه، ولا يتجاوز أجلَه، وأنَّه في سبيلِ من سلكَ، أن يركِّز على النَّافع من الزَّاد، وأن يستثمرَ كلَّ لحظة من هذهِ الحياةِ، وأن يكونَ عملُه على وفق علم وحكمة، نأخذها من المعصومعليهم السلام؛ فإنَّ غير المعصوم لا يضع يدكَ على العلمِ النَّافع.

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص ٤٢.
٢-سورة الأعراف/ الآية: ٣٤.
٣- الوصيَّة الخالدة: ص١٣٤.

عن الرسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله: «**يَنبَغي لِلعاقِلِ إذا كانَ عاقِلًا أن يَكونَ لَهُ أربَعُ ساعاتٍ مِنَ النَّهارِ: ساعَةٌ يُناجي فيها رَبَّهُ، وساعَةٌ يُحاسِبُ فيها نَفسَهُ، وساعَةٌ يَأتي أهلَ العِلمِ الَّذينَ يُبَصِّرونَهُ أمرَ دينِهِ ويَنصَحونَهُ، وساعَةٌ يُخَلّي بَينَ نَفسِهِ ولَذَّتِها مِن أمرِ الدُّنيا فيما يَحِلُّ ويَجمُلُ**»[١].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**اِجتَهِدوا في أن يَكونَ زَمانُكُم أربَعَ ساعاتٍ: ساعَةً لِمُناجاةِ اللهِ، وساعَةً لِأَمرِ المَعاشِ، وساعَةً لِمُعاشَرَةِ الإِخوانِ والثِّقاتِ الَّذينَ يُعَرِّفونَكُم عُيوبَكُم، ويُخلِصونَ لَكُم فِي الباطِنِ، وساعَةً تَخلونَ فيها لِلَذّاتِكُم في غَيرِ مُحَرَّمٍ**»[٢].

٢. «**خَفِّض فِي الطَّلَبِ**»؛ «أي أن يُخفَض من طلب الدُّنيا، ولا يحرص عليها بل يجعل طلبه لها بقدر حاجته إليها»[٣]، و«التَّخفيض: التَّسهيل على النَّفس»[٤]. فنعرف من ذلك أنَّ طلبَ الدُّنيا لابد أن يكونَ برفق، وهون بقدر الحاجةِ والضَّرورة؛ إذ التَّوسُّع في طِلب الدُّنيا قد يأخذ، ويشغل الإنسانَ عن نفسهِ وعمَّا يصلحُه من الأعمالِ والعباداتِ والمعارف والعلوم، بل وحتَّى تضييع الآخرين مثل ذويهم وعوائلهم؛ فلا يراهم، ولا يجلس معهم.

٣. «**أَجمِلْ فِي المُكْتَسَبِ**»؛ وفيه آراء عدَّة:

الرَّأي الأوَّل: أن يفعلَ الجميلَ فيما يكتسبهُ منها، وذلكَ بأن يضعَ كلَّ شيءٍ منه موضعه فيمسكُ منه قدر ضرورته، وينفقُ فاضلَه في وجوهِ البرِّ ومصارف القربى...»[٥].

١- روضة الواعظين وبصيرة المتعظين (ط - قديمة)، محمَّد بن أحمد فتال النيشابوري (ت: ٥٠٨ هـ)، النَّاشر: منشورات الرضي، إيران- قم، ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى: ص ٤.

٢- تحف العقول: ص ٤٠٩ .

٣- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٤٣.

٤- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦٠٧.

٥- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٤٣.

الرَّأي الثَّاني: «الإجمالُ في الطَّلب: عدم الحرص»[١]؛ والمقصودُ بهذا الرَّأي ألَّا يحرص الطالبُ أشدَّ الحرص، ولا يأخذُه الطَّمعُ، وأن يكونَ مراقبًا للهِ عَزَّوَجَلَّ في أعمالِه وحركاته؛ فلا يتعدَّى حقوقَ الآخرينَ؛ بل يعطي كلَّ حقٍّ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ، أو حق للناس؛ إذ «من معاني (أجملوا)؛ أي لا يكن كدُّكم فيه كدًّا فاحشًا...»[٢]، وعلَّة الإجمال في المكسب يعودُ إلى أمرينِ:

الأمر الأوَّل: أنَّ بعض الطَّلب قد يؤدِّي إلى سلبِ المالِ والشَّقاء؛ «وهنا كناية عن لزومِ طلبِ الدُّنيا بفوات الآخرة»[٣].

الأمر الثَّاني: قد لا يرضى بما يكفيه من الرِّزق؛ فيعمل، ويكدح حتَّى يقعَ فريسة خسارة تضييع ما جناه من أرباح؛ فربَّ عمل يفي بالحاجةِ وتوفيرِ النَّفقات اللازمةِ، إلَّا انَّه يدخل في مجال أوسع منه مع عدم قدرتهِ عليهِ؛ فتربطه حبال الدَّين، وتضربه بالسِّياط من كلِّ مكان؛ حتَّى ينتهي به إلى الخذلان والحسرة والنَّدم؛ فليس كلُّ مغامرة يمكن أن تثمرَ، وإنَّما المغامرة وخوض اللجج تحتاجُ إلى علم ومعرفة ورأس مال كبير؛ وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ من كانت حرفتُه وعملُه وتجارتُه ذات رأس مال يفي بالغرض وتحقيق الهدف وتوفير المؤونة أفضل ممَّن خاض مجالًا يجهلُ عاقبتَه.

إنَّ التَّوسُّعَ في الطَّلب قد يجرُّ أحيانًا إلى نشوب الحربِ؛ سواء مع التُّجار الذينَ لا يتَّقون اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ، أو مع السُّراق، أو بسبب الحسد، وفي كلِّ الأحوال ينبغي أن يكونَ التَّوسعُ في الطلب مدروسًا بعناية مع الاستشارة، والوفاءِ بحقِّ النِّعمة، وشكر اللهِ عَزَّوَجَلَّ على كلِّ حال، والتَّحلِّي بالقناعة وتجنُّب الطمع؛ لأنَّ الطَّمع قد يكون سببًا للحرمان في بعضِ الأحيان.

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٢.
٢- مجمع البحرين: ص٢٢٧.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٣.

والعلَّة الأخرى التي تؤكِّدُ حقيقةَ الإجمال في المكسب؛ «**فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ**»؛ أي ليس كلُّ من يطلبُ المالَ والرِّزق ستزيدُ أموالِه؛ فربَّ طلب قد جرَّ إلى سلبِ النِّعمة والمال؛ كما أنَّ من أجمل بطلبه ليس بمحروم؛ فربَّما نزلَ الرِّزقُ على إنسان مجمل في الطَّلب، ولا ينزل على كادح يكدحُ في الليلِ والنَّهارِ؛ بل علينا أن نتوكل على الله عزوجل، ونسألُه التَّوفيقَ؛ لأنَّ خزائنَ السَّمواتِ والأرض بيده: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]، ولعلَّ السِّر الأهم من وراءِ هذهِ الكلمة الإلتفات إلى حقيقة أنَّ هناكَ خالقًا رحيمًا حكيمًا يرعانا دومًا ويتعامل معنا على وفق الحكمة، وهو اللهُ سبحانه وتعالى يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب، وأنَّ نتائجَ الإجمالِ أو الكدح إنَّما يخضعُ لمصالح قد نجهلُها؛ فالرِّزقُ يخضعُ لقانونِ الحكمةِ، والنَّتيجةُ الجوهريَّة أنَّ العملَ، والكدَّ، والصَّبرَ أمور مدحها الشَّارع المقدَّس، ولكن عليه أن يخلق حالة من التَّوازن بين حاجاته الضَّروريَّة للدُّنيا والتَّزود لدارِ بقائه.

٤. «**أَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً**».

«الغاية لا تبررُ الوسيلةَ» تمثِّل مبدأً أخلاقيًّا عظيمًا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، إذ تؤكِّد على أنَّ تحقيقَ الأهدافِ النَّبيلة لا يمكن أن يكونَ على حسابِ الوسائل غيرِ المشروعة؛ فلا يُقبل ارتكاب المحرَّمات أو المظالم حتَّى وإن كان الهدفُ منها تحقيقَ مصلحة كبرى؛ لأنَّ الوسيلةَ جزء لا يتجزَّأ من الحكم الشَّرعي؛ رُويَ

١- سورة آل عمران/ الآية: ٢٦.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنَّهُ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى الْحُسَيْنِ صلوات الله عليه: عِظْنِي بِحَرْفَيْنِ؟

فَكَتَبَ إِلَيْهِ: «**مَنْ حَاوَلَ أَمْراً بِمَعْصِيَةِ اللهِ كَانَ أَفْوَتَ لِمَا يَرْجُو وَ أَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَرُ**»[١]؛ ولذا يوصي أميرُ المؤمنينَ عليه السلام الإنسان أن يكرمَ نفسَه عن كلِّ الصِّفات السَّيئة، وإن أوصلته تلكَ الدَّنيَّة إلى ما يرغب، ويشتهيه من أمور الدُّنيا؛ إذ لا شيءَ أعلى من كرامةِ النَّفسِ وماءِ الوجهِ؛ فإن بذلَ لن يجدَ عوضًا وثمنًا له؛ ورغائب المالِ إنَّما تُطلب لصيانةِ النَّفسِ عن الابتذالِ؛ فلو بذلَ باذلٌ نفسَه لتحصيلِ المالِ فقد ضيَّعَ ما هو المقصودُ من المالِ، فكان جمعُ المال عبثًا، ولا عوض لما ضيَّع.

إنَّ ما يقدِّمُهُ الإنسانُ من الفضائلِ ويستبدلُهُ بالرَّذائل؛ سعيًا لتحقيق هدف أو رغبة معيَّنة، لا يمكن لتلكَ الفضائل أن تجدَ عوضًا يساويها، وكلُّ ما لا يعادله شيءٌ لا ينبغي أن يُضحَّى به مقابل أمور دنيئة، وإكرامُ النَّفس وسموها لا يُقدَّر بثمن، ومن فرَّط فيه فقد أضاع نفسه؛ فالسَّرقةُ والغدرُ والخيانةُ والغيبةُ، على الرغم ممَّا قد تجلبهُ من نفع، تبقى أعمالًا دنيئةً لا تساوي ما يُفقد من الفضائل.

---

١ - الكافي: ج ٢، ص ٣٧٣.

٥. «لا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا».

وهذه من درر كلمات أمير المؤمنين عليه السلام؛ وكلُّ كلامه لا يقاس بكنوز الدُّنيا، وقد ورد فيها آراء عدَّةُ:

الرَّأي الأول: «لا تطيعه إطاعة عمياء، وقد جعلكَ اللهُ تعالى تملكُ زمامَ أمرك»(١).

الرَّأي الثَّاني: «ألَّا يجعل لغيره عليه فضلُ إحسان يسأله إيَّاه، فيسترقه به، ويستوجبُ بذلك على نفسه خدمته، والاشتغال بشكره عن الله تعالى»(٢)؛ ولذا قال عليه السلام: «**اُمْنُنْ عَلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أميرَهُ، وَاحْتَجْ إلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أسيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظيرَهُ**»(٣).

وروي أنَّ عثمانَ بعثَ عطية مع غلام إلى أبي ذر رضي الله عنه، وقال له: إن قبلها فأنت حرٌ، فأصرَّ الغلام على أبي ذر بالقبول، فقال خذها فإنَّ فيها عتقي؛ فقال: نعم، ولكن فيها رقي(٤).

إنَّ الحريَّة لا تقدَّر بثمن، ولا تستبدل بأغلى الأثمان؛ مهما كانت، ولو خُيِّر بين العيش بإمكانات متواضعة وإن كانت مصحوبة بمشقَّة، أو أن يخضعَ للغير، فالمشقةُ والتَّعب أولى من العبوديَّةِ للغير والخنوع والذلَّة لهم؛ فالإنسان الحرُّ يفضِّل الموتَ على أن يكون عبدًا ذليلًا لغيره؛ وأفضل مصداق للحريَّة ورفض العبوديَّة ما تجلَّى في الإمام الحسين عليه السلام حينما قال: «**ألَا إنَّ الدَّعِيَّ ابنَ الدَّعِيّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْن، بَيْنَ الْقِتْلَةِ**(٥) **وَالذِّلَّةِ، وَهَيْهاتَ مِنَّا أَخْذُ الدَّنِيَّةِ، أَبَى اللهُ ذلِكَ وَرَسُولُهُ، وَجُدُودٌ طابَتْ،**

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٣.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص ٤٤.
٣- الخصال: ج ٢، ص ٤٢٠.
٤- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦٠٨.
٥- مقتل الحسين عليه السلام، الموفق الخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ)، ١٤٢٣ق، النَّاشر: أنوار الهدى - قم، الطبعة: الثانية: ج ٢، ص١٠.

وَحُجُورٌ طَهُرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، لا تُؤْثِرُ طاعَةَ اللِّئام عَلى مَصارِعِ الْكِرام ، أَلا إِنِّي قَدْ أَعْذَرْتُ وَأَنْذَرْتُ، أَلا إِنِّي زاحِفٌ بِهذِهِ الأُسْرَةِ عَلى قِلَّةِ الْعَتادِ، وَخَذْلَةِ الأَصْحابِ.

ثمّ أنشد يقول:

فَإِنْ نَهْزِمْ فَهَزّامُونَ قِـدْماً وَإِنْ نُهْزَمْ فَغَيْرُ مُهَزَّمينا

وَما إِنْ طِبُّنا جُبْنٌ وَلكِـنْ مَنايانا وَدَوْلَةُ آخَرينـا

ثـمَّ قـال عليه السلام: أَمـا إِنَّـهُ لا تَلْبَثُـونَ بَعْدَهـا إِلّا كَرَيْـثِ مـا يُرْكَـبُ الْفَـرَسُ، حَتّـى تَـدُورَ بِكُـمْ دَوْرَ الرَّحى، عَهْـدٌ عَهِـدَهُ إِلَيَّ أَبي عَـنْ جَدِّي، فَأَجْمِعُـوا أَمْرَكُـمْ وَشُرَكـاءَكُـمْ فَكيـدُوني جَميعًـا ثُـمَّ لا تُنْظِـرُونِ، إِنّي تَوَكَّلْـتُ عَـلَى اللهِ رَبّي وَرَبِّكُـم، مـا مِـنْ دابَّـةٍ إِلّا هُـوَ آخِـذٌ بناصِيَتِهـا إِنَّ رَبّي عَـلى صراطٍ مُسْتَقيم، اللّهُـمَّ احْبِـسْ عَنْهُـمْ قَطْـرَ السَّماءِ، وَبْعَـثْ عَلَيْهِـمْ سِنينَ كَسِنـيِّ يُوسُـفَ، وَسَلِّـطْ عَلَيْهِـمْ غُـلامَ ثَقيـف يَسْقيهِمْ كَأْسًـا مُصَبَّرَةً، فَـلا يَـدَعُ فيهِـمْ أَحَـدًا، قَتْلَـةً بِقَتْلَـة، وَضَرْبَـةً بِضَرْبَـة، يَنْتَقِـمُ لي وَلأَوْلِيائي وَأَهْـلِ بَيْـتي وَأَشْـياعي مِنْهُـمْ، فَإِنَّهُـمْ غَرُّونـا وَكَذَّبُونـا وَخَذَلُونـا، وَأَنْـتَ رَبُّنـا، عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنـا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنـا وَإِلَيْـكَ الْمَصيرُ»[1].

١ – مقتل الحسين عليه السلام، (الموفق الخوارزمي): ج ٢، ص١٠.

المبحَثُ الثَّالثُ

وسَائِلُ التَّغيير الفَعَّال

المطلب الأوَّل: غايات ووسائل

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لاَ يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، ويُسْر لاَ يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ. وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ بَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ، وَتَلاَفِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ**»[1].

في هذا المقطع يشيرُ الإمام عليه السلام إلى جملةٍ من الغايات والوسائل التي يتحرَّك بها الإنسان خلال دائرة الحياة الدُّنيا، وبيان التَّفاضلِ بينها؛ حتَّى يسلك الإنسان ما يوصلهُ إلى الفضيلةِ، ويجنِّبه الرَّذيلةَ.

وحتَّى تتوضح هذه السُّبل نضع عنوانًا لكلِّ مطلب:

الفرع الأوَّل: السَّعادة واختيار الوسيلة المناسبة

قال عليه السلام: «**وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍّ، ويُسْرٍ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْرٍ**».

إنَّ الوصولَ وإدراكَ الأهداف لا بدَّ أن يكونَ من طريقٍ رسمهُ اللهُ سبحانه وتعالى للإنسان، وكذلك لا خيرَ في الوسائل التي تضغطُ على الإنسان، وتجعلهُ يعيش ضغطًا ماليًّا أو نفسيًّا لغرض توفير السَّعادة والرَّاحة؛ ولذلكَ أصبحَ الشَّيءُ الحسنُ الذي لا يصل الإنسان إليه إلَّا بسبب الشَّرِّ شرًّا.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٢.

وكذلك ما خيرُ يُسرٍ لا ينال إلَّا بعسر، ومثال ذلك الغنى والفقر؛ فالغنى يُسرٌ، والفقر عسرٌ، ولكن لو أرادَ أن يصلَ إلى الغنى من طريق عسرٍ آخر مثل الذِّلَّة والطَّمع والبخل والدُّيون أو بيع ماءِ الوجهِ؛ فأيُّ يسرٍ في ذلك؟

وهناكَ بعض من فسَّرها بالاستفهام الاستنكاري[1] فيكون المعنى: ماذا ينتفعُ الإنسانُ من ذلكَ الخير الذي اكتسبهُ بالشَّر، وماذا ينتفعُ من تلكَ الرَّاحة التي اكتسبها بطريقِ العُسر؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي؛ وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ؛ وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ وَكُلُّ فُجَرَة كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ**»[2].

الفرع الثَّاني: الطَّمع هلاك

قال عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ**».

«مطايا الطَّمع؛ وهو جمعُ مطيَّة؛ كأنَّ الطَّمع له مطيَّة يركبُها الإنسانُ ليصلَ ما طمع فيه «**فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ**»؛ ومناهل: «جمعُ منهل؛ أي المحل الذي يرد الإنسانُ إلى الماءِ منه؛ وذلكَ لأنَّ الطَّمع يتسبَّبُ إذلالَ الإنسانِ وهلاكَه»[3].

والطَّمعُ له عواقبُ وخيمة؛ فربَّما قاده إلى ارتكابِ المحرَّمات مثل قطيعة الرَّحم، أو الإساءة إلى الأصدقاء؛ إذ الطَّمعُ آفة تدفعُ صاحبَها إلى ما يهلك على وجه السُّرعة؛ «ولذلك استخدم مصطلح (توجف) من الإيجاف؛ أي السَّير السَّريع»[4].

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٤٤.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١٠، ص٢١١.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٤؛ وينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج ٣، ص ١١٤.
٤- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج٣، ص١١٤.

ومن أضرار الطَّمع أن يغشي الأبصارَ، ويحجبَ العقولَ، ويخلقَ حالة التَّمرد على من يقدِّم إليه النَّصيحةَ، وأخيرًا ينتهي به حاله إلى الهاوية والخسران في الدُّنيا والآخرة.

الفرع الثَّالث: حفظ ماء الوجه

قال عليه السلام: «**وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ**».

في هذا الموقع «نهيٌ أن يجعلَ فيما بينهُ وبينَ اللهِ تعالى واسطة في وصول نعمتهِ إليه إذا استطاع ذلك؛ أي النَّهي عن مسألةِ الآخرينَ، والتَّعرض لنواله؛ بل ينتظر ما قسمه الله تبارك وتعالى من رزق مفروض له من غيرِ بذلِ ماءِ الوجه»[١]، فالكلمة تحثُّ أن تكون نعمتُك بالاكتساب؛ إذ لا وجهَ أن يذلَّ الإنسانُ نفسه في تحصيلِ رزقِهِ؛ والعلَّةُ في ذلكَ أمران:

الأمر الأوَّل: «**فإنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ**»؛ أي تدركُ ما قسمهُ اللهُ جل جلاله، وتأخذ نصيبكَ؛ وهنا ينبغي الالتفات إلى أنَّ هذا مرتبط بالعمل والمجاهدة والسَّعي.

الأمر الثَّاني: «**وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ**» فلا يذهب الإنسانُ إلى أحد لتحصيلِ أكثر من رزقِهِ، وإن كان كل منه؛ فإنَّ مصدرَ الأرزاق هو اللهُ عزّ وجلّ.

إنَّ كلَّ إنسانٍ يمتلكُ قدرات وإمكانات معيَّنة يختلفُ بها عن الآخرينَ؛ وبها يستطيع السَّعي وأن يحصِّل قوَّته، ويحفظَ ماءَ وجههِ، ويكون عملُه عبادةً وبمنزلةِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ سبحانه وتعالى وما يحقِّقه بسبب إمكاناته مع

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٤٥.

السَّعي الجاد هو أفضل وأطهر وأكثر بركة من سؤال الآخرين؛ فالرِّزقُ القليلُ مع حفظِ ماءِ الوجهِ أفضلُ من الرِّزقِ الواسعِ مع خسارةِ ماءِ الوجهِ؛ «لكن هذا لا يشمل من يدخل ضمن الإعانة على البرِّ والتَّقوى؛ إذ الظَّاهر أنَّ المذموم هنا إذا كان فيه هوان وذلَّة ومنَّة»(١).

الفرع الرَّابع: حفظ اللسان

قال عليه السلام: «**وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ**».

بيَّن الإمام عليه السلام هنا قاعدة مهمَّة في حفظِ اللسانِ، وهي تدارك ما لم يقُل أيسرُ من إدراك ما قالَ؛ فإنَّه يتمكَّن أن يتداركَ ما لم يقلْه بأن يقوله، ولا يتمكن أن يدركَ ما قاله ثمَّ ندم عليه؛ إذ الكلامُ لا يرجع بعد أن قيل؛ فالكلامُ في وثاقِ الإنسانِ ما لم يقلْه؛ فإن قاله أصبحَ في وثاقه، والكلمةُ التي لم يقلْها يملكها، وأمَّا الكلمة التي قالها فقد ملكته، فخطأُ اللسانِ صعبُ التَّدارك، فالنَّاس لا تغفر الكلمةَ السَّيئةَ بسهولة أمَّا إذا صمت، ولم يتكلمْ فإن عابه النَّاس يستطيعُ أن يتدارك؛ ويبيِّن حقيقةَ سكوتِه وصمتهِ؛ ولذلك «ولقوَّة الخطأ في القول أكثرَ النَّاس في ذمِّ الإكثار، ومدح الصَّمت»(٢)؛ فالكلام له علاقة بإمام الجوارح القلب؛ ولذلك نبَّه الإمام عليه السلام قائلًا: «**وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ**»؛ «أي الرِّباط، وهكذا قلب الإنسان؛ فإنَّه وعاء الكلام، فالتَّحفظ عليه بشدِّ اللسانِ الذي هو رباط له، فإذا لم يُشد خرج ما في

١- ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢٣٠.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٤٦.

القلب، ولا يقدر الإنسان على ردِّه»(١)، «وعلى هذا يمكن أن يحول الإنسان صمته إلى كلام، ولكن لا يستطيع أن يحول كلامه إلى صمت»(٢)؛ لذا على الإنسانِ أن يتأمَّلَ في صمتِهِ وكلامِهِ، ويمعن التَّفكير قبل اختيار أحدهما، ثمَّ يُقيِّم نتائجه، وبلا شك، فإنَّ الصَّمتَ أقلُّ ضررًا؛ لأنَّه يُمكن تداركه وشرح مضمونه لاحقًا؛ وأمَّا الكلام فلا شكَّ ولا ريب لو صدر منه الخطأ فإنَّ كلمة واحدة ستجلب له كثيرًا من الخطايا والمعاصي؛ لذلك الاستعجال مذموم إلَّا في عمل الخير، وربَّ كلمة أدخلت صاحبَها إلى نار جهنم.

إنَّ الصَّمت ليس ممدوحًا على إطلاقِهِ؛ وإنَّما قد يكون مذمومًا إذا كان الكلامُ واجبًا خاصَّة في بابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر.

وَيجدرُ التَّنبيه إلى إمكانيَّةِ تفسير «وحفظُ ما في الوعاءِ بشدِّ الوكاء» إلى أهميَّةِ الاقتصاد في صرفِ المال، وعدم الإسراف والتَّبذير، وعطفَ الجملةَ التَّاليةَ عليها... ولا يبعد هذا؛ غير أنَّ التَّفسير الأوَّل أقرب للتعبير عن القلوب بأنَّها أوعية، وأنَّ هناك علاقة بين استقامة القلب واللسان.

عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله: **«الكلامُ ثلاثةٌ: فرابِحٌ، وسالِمٌ، وشاحِبٌ؛ فأمَّا الرَّابِحُ فالذي يَذكُرُ اللهَ، وأمَّا السَّالِمُ فالذي يَقولُ ما أحَبَّ اللهُ، وأمَّا الشَّاحِبُ فالذي يَخوضُ في النَّاسِ»**(٣).

وسُئِلَ عليُّ بنُ الحُسَينِ عليه السلام عنِ الكلام والسُّكوتِ أيُّهما أفضَلُ؟ فقالَ عليه السلام: **«لِكُلِّ واحِدٍ مِنهُما آفاتٌ، فإذا سَلِما مِن الآفاتِ فالكلامُ أفضَلُ مِن السُّكوتِ. قيلَ: كيفَ ذلكَ يا ابنَ رسولِ اللهِ؟ قالَ: لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ ما بَعَثَ الأنبياءَ والأوصياءَ**

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٧٤.
٢- ينظر: نخبة الشرحين: ج ٤، ص١٦١٠.
٣- الزهد: ص ٧.

بالسُّكوتِ، إنَّما بَعَثَهُم بالكلام، ولا استُحقَّتِ الجَنَّةُ بالسُّكوت، ولا استُوجِبَت وَلايَةُ اللهِ بالسُّكوتِ، ولا تُوُقِّيَتِ النّارُ بالسُّكوتِ، إنَّما ذلكَ كُلُّهُ بالكلام»[١].

وعن داوودَ عليه السلام لِسليمانَ عليه السلام: **«يا بُنَيَّ، عليكَ بطُولِ الصَّمتِ إلّا مِن خَيرٍ؛ فإنَّ النَّدامَةَ على طُولِ الصَّمتِ مَرَّةً واحِدَةً خَيرٌ مِن النَّدامَةِ على كَثرَةِ الكلامِ مَرّاتٍ، يا بُنَيَّ، لو أنَّ الكلامَ كانَ مِن فِضَّةٍ يَنبَغي للصَّمتِ أن يكونَ مِن ذَهَبٍ»**[٢].

الفرع الخامس: الاقتصاد والتَّبذير

قال عليه السلام: **«وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ»**.

التَّبذيرُ والبُخلُ؛ إفراط وتفريط؛ والحالة الوسطى بينهما هو البذلُ الذي يكون على وفق ما أرادَ اللهُ عزّ وجلّ؛ فلا إسرافَ ولا تبذيرَ ولا بخَل وكنز للمال؛ ولذا نجدُ الأميرَ عليه السلام يوصي بأهميَّة حفظِ المالِ، والاقتصاد في صرفه؛ حتَّى لا يحتاج إلى ما في أيدي النَّاس، ويمكن الرَّبط بين حفظ المالِ وحفظِ الوجه؛ إنَّ تضييعَ المالِ يمكن أن يؤدِّي إلى بذلِ ماءِ الوجهِ وسقوطِ العزَّة والكرامةِ في أحيان كثيرة مع أنَّ اللازم تجرُّعُ مرارةِ اليأسِ وإكرام النَّفس حتَّى وإن كان سؤالُ النَّاسِ يجلب لكَ نفعًا إلَّا أنَّه ضيَّع ماءَ الوجهِ، وأهدرَ الكرامةَ.

إنَّ الإنفاق المدروس، والذي يكونُ ضمنَ السَّقف الواقعي والحقيقي للدخل هو الحلُّ الأنسبُ لتفادي السُّؤال من النَّاس؛ فمن أنفق أكثر ممَّا يدخل إليه من دون اضطرار لذلك؛ فإنَّه يعرِّضُ نفسه الى المشاكل والفقرِ والاحتياج الذي يدفعُ في غالب الأحيان إلى سؤالِ النَّاس.

١- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول صلى الله عليه وآله: ج ٨، ص ٢١٤.

٢- بحار الأنوار: ج١٤، ص ٣٥.

إنَّ المطلوبَ من الإنسانِ هو الاعتدالُ في الطَّعام والشَّراب واللباس وحتَّى الكلام والوقت؛ فالإنسانُ ليس حرًّا في التَّفريط بصحَّته أو مالِه أو طاقاتِه التي أودعها اللهُ عزوجل لديه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً**﴾[١]؛ فالإسرافُ يبدِّدُ الطَّاقات؛ لأنَّه يخرجُ عن حدِّ التَّوازنِ الذي بنى اللهُ عزوجل على أساسِه الكونَ والحياةَ، وأرادَ للإنسانِ أن يلتزمَ به ولا يخرج عنه، والإسلامُ حين حذَّر من الإسراف لم يمنعْ الإنسانَ من لذائذ الدُّنيا وطيِّباتها، فقد قال عزوجل: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[٢]؛ بل حذَّر الإنسانَ من الوقوعِ في الإسرافِ المذمومِ.

ويمكن علاج الإسرافِ من خلالِ اتِّباع الأمور الآتية:

١. ضرورةُ التَّفكير والتَّأمُّل في العواقب الوخيمةِ التي يُخلِّفها الإسرافُ على الأفرادِ والمجتمعات.

٢. السَّعي إلى مجاهدةِ النَّفس وترويضِها لتحقيقِ الاعتدال.

٣. التَّعمُّقُ في دراسةِ سيرةِ المعصومينَ عليهم السلام والاستمرارُ في تأمُّلِها للاقتداء بهديهم في الجوانب العامَّة والخاصَّة من الحياة.

٤. اجتناب مخالطة المسرفينَ إذا كان ذلك يُعدُّ تشجيعًا لهم على الإسرافِ، والبحثُ عن صداقةِ ذوي النُّفوس المتوازنة؛ الذين يحقِّقونَ التَّوازنَ في حياتِهم.

٥. اهتمام الفرد ببناء شخصيَّة أفرادِ أسرتِه، ويعملُ على تعويدِهم على نمطِ حياة صحيحة؛ تقومُ على ثقافة حفظ النِّعم، مستلهمين من توجيهات الإمام عليٍّ عليه السلام الذي كان يُرشد عمَّاله حتَّى في دقَّة الكتابة وتقارب السُّطور بقوله: «**أَلِقْ دَوَاتَكَ وَأَطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وَفَرِّقْ بَيْنَ سُطُورِكَ، وَقَرْمِطْ بَيْنَ حُرُوفِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ**

١- سورة الفرقان/ الآية: ٦٧.
٢- سورة الأعراف/ الآية: ٣١.

بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ»[١]، لتفادي إهدار الورق، مُعلِّماً بذلك قيمة التَّرشيد والاعتدال.

٦. العمل على نشر الفضائل الخُلقيَّة التي تنظمُ سلوكَ المستهلك؛ ومن أهمِّها:

أ. تشجيع الأفراد على اتخاذ قرارات استهلاكيَّة متوازنة، والابتعاد عن الإفراط أو التَّبذير، من خلالِ تعليمِهم أهميَّة استهلاك الموارد بشكل مدروس وإيجابي وتأثير ذلك على حياتهم وحياة المجتمع.

ب. نشرُ الوعي بأهميَّةِ الحفاظِ على النِّعم والموارد، وتوجيهُ الأفراد إلى استثمارها بشكلٍ مفيد وفعَّال من دون هدر.

ت. العملُ على تحفيزِ المستهلكينَ على اختيارِ السِّلع والخدمات التي تُسهمُ في تنميَّةِ الفرد والمجتمع.

١- غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣٤٥.

المطلب الثَّاني: صلاح الفكر والعمل

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يُضُرُّهُ، مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِ تَبِنْ عَنْهُمْ**»[١].

في كلِّ حكمة من هذه الفقرة بابٌ من القواعد التي تنظِّم فكرَ الإنسان وسلوكَه، ويمكن الإفادة منها في أبواب عديدة من أبوابِ الحياة، ولا يقف الشَّرحُ هنا عند حدود الكلمة ومعانيها، وإنَّما يمكن وجود أكثر من معنى في الكلمة نفسها، وفي مجالات أخرى غير التي ذُهب إليها في شرح هذه الحكمة، وإليك بعض درر هذه الكلمات العلويَّة الشَّريفة:

الفرع الأوَّل: الحرفة والعفَّة علاقة لا تنفك

قال الإمام عليه السلام: «**وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ**».

ويمكن الاستدلال من هذه الحكمة على أمرينِ مهمَّين:

الأمر الأوَّل: وهو ما ذهبَ إليه أغلبُ شرَّاح هذه الكلمة، و«إنَّ الضِّيقَ في الرِّزقِ مع العفَّة، بأن يتنزَّهَ الإنسانُ، ويعفَّ عن كسبِ الحرام خيرٌ من الغنى مع عمل المحرَّم؛ إذ يبقى وبالُ الفجور، ويذهبُ ضيقُ الرِّزق؛ إذ استلزمَ ذلكَ الضِّيقُ الفضيلةَ، واستلزمَ ذلكَ الغنى الرَّذيلةَ»[٢].

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٢.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٥.

وهنا يحثُّنا عليه السلام أن نطلبَ الرِّزق من دونِ التَّعرُّض للحرام، أو الصَّبر على ذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾(١)؛ والسَّبب في ذلك: إنَّ لذَّةً واحدة من حرام يمكن أن تضيِّعَ الإنسانَ دنياه وآخرتَه.

الأمر الثَّاني: إذا أخذنا معنى «الحرفة؛ بكسر الحاء من الاحتراف، وهو الاكتساب بالصِّناعة، والتِّجارة»(٢)؛ فيكونُ المعنى أنَّ الاكتسابَ بصنعة معيَّنة أو بتجارة حتَّى لو كانت الأرباحُ قليلة مع العفَّة أفضل من الغنى الممزوج بالمحرَّم؛ إذ لا فائدة منه، وسيكونُ وبالُ أمرِه إلى الجحيم في نهايةِ الأمر، أمَّا من عملَ واكتسبَ فإنَّ عملَه عبادةٌ، وخروجه يكدُّ على عيالهِ هو بمثابة الجهاد في سبيلِ الله جلَّ جلاله، ورجوعه إلى عياله حاملاً معه قوته وقوتهم هو مغفرة، وقد ورد في الرِّوايات: «**مَنْ باتَ كالًّا مِن طَلَبِ الحَلالِ؛ باتَ مَغفورا لَهُ**»(٣). وينبغي الالتفات إلى أنَّ العفَّةَ مفهوم واسع يدخلُ في مجالات كثيرة من الحياة؛ غير أنَّ الأهمَّ أنَّ الطَّريق المشروعَ يساندُ في تنميةِ العفَّة في داخل النَّفس، بعكس الأكل الحرام الذي يولِّد الفجور والحرام؛ عن الإمام علي المرتضى عليه السلام: «**مَن أُتحِفَ العِفَّةَ والقَناعَةَ حالَفَهُ العِزُّ**»(٤).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قالَ لَهُ: إنِّي ضَعيفُ العَمَلِ قَليلُ الصِّيام، ولكِنِّي أرجو أن لا آكُلَ إلَّا حَلالًا: «**أيُّ الاجتِهادِ أفضَلُ مِن عِفَّةِ بَطنٍ وفَرجٍ؟!**»(٥).

١- سورة الطلاق/ الآيتان: ٢-٣.
٢- مجمع البحرين: ص٢٨٠.
٣- الأمالي (الصدوق): ص ٣٦٤.
٤- غرر الحكم و درر الكلم: ص ٢٥٦.
٥- الكافي: ج ٢، ص ٧٩.

الفرع الثَّاني: إفشاء السِّر

قال(عليه السلام): «**وَالمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ**».

«الإسرارُ خلافُ الإعلان... والسر هو الحديثُ المكتم في النَّفس، وساره إذا أوصاه بأن يسرَّه... وأسررت إلى فلان حديثًا، أفضيتُ إليه في خفية»[١]؛ فحفظُ السرِّ واجب؛ لأنَّ المرءَ أولى به من غيره، فهو الأقدر على صيانته عن الآخرين، فلا تفشِ سرَّك، فإن أفشيته انتشرَ بينَ النَّاس، ولا تلومنَّ إلَّا نفسَك؛ لأنَّك لم تقدر على حفظ سرِّك بنفسك؛ فغيرك أعجز.

قال الشاعر:

إذا المَرءُ أَفشى سِرَّهُ بِلِسانِهِ وَلامَ عَليهِ غَيرَهُ فَهُوَ أَحمَقُ

إذا ضاقَ صَدرُ المَرءِ عَن سِرِّ نَفسِهِ فَصَدرُ الَّذي يُستَودَعُ السِرَّ أَضيَقُ[٢].

ومَنْ أرادَ أن يبقى سرَّه محفوظًا، فيجب أن يبقى عنده، ولا يعطيهِ لأحد، «وبعضهم فسَّر: كلُّ سرٍ جاوز الاثنين شاع؛ أي أنَّ كلَّ سرٍ تجاوز الشَّفتينِ، وخرج من بينهما سوف يشيعُ، وينتشرُ»[٣].

إنَّ انتشارَ الأسرار قد يجلب السُّوء والأضرار، وقد يتسبَّب في هتك حرمته وفضيحته، وقد ورد النَّهي الشَّديد في إفشاءِ سرِّ المؤمنِ وإذاعتِه، وهناك روايات شريفة كثيرة في هذا المجالِ، نكتفي بروايتين:

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٢٢٨.
٢- المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي (ت: ٨٥٠هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال.: ج ١، ص ٣٣٩.
٣- الوصيَّة الخالدة: ص ١٤٦.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ ولَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُحَدِّثَ بِحَدِيثٍ يَكْتُمُهُ صَاحِبُهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثِقَةً أَوْ ذِكْرًا لَهُ بِخَيْرٍ**»(١).

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: «**يُحْشَرُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ومَا نَدِيَ دَمًا فَيُدْفَعُ إِلَيْه شِبْه الْمِحْجَمَةِ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لَه هَذَا سَهْمُكَ مِنْ دَمِ فُلَانٍ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّكَ قَبَضْتَنِي ومَا سَفَكْتُ دَمًا، فَيَقُولُ: بَلَى سَمِعْتَ مِنْ فُلَانٍ رِوَايَةَ كَذَا وكَذَا فَرَوَيْتَهَا عَلَيْه فَنُقِلَتْ حَتَّى صَارَتْ إِلَى فُلَانٍ الْجَبَّارِ فَقَتَلَه عَلَيْهَا، وهَذَا سَهْمُكَ مِنْ دَمِه**»(٢).

وقد «استثنى الفقهاءُ من حرمة إفشاء السرِّ عدَّة موارد، يجمعُها أن تكونَ مصلحة الإفشاء في ذلك المورد أعظمَ من مصلحةِ السِّترِ وعدم الإفشاء، ومن تلك الموارد:

«وقد تجوزُ الغيبةُ في موارد: منها المتجاهرُ بالفسقِ، فيجوز اغتيابُهُ في غير العيبِ المتسترِّ بهِ، ومنها: الظَّالمُ لغيرِه، فيجوزُ للمظلوم غيبتُهُ، والأحوطُ - استحبابًا - الاقتصارُ على ما لو كانتِ الغيبةُ بقصدِ الانتصارِ لا مطلقًا، ومنها: نصحُ المؤمنِ، فتجوزُ الغيبةُ بقصدِ النصحِ، كما لو استشارَ شخصٌ في تزويجِ امرأةٍ، فيجوز نصحُهُ، ولو استلزمَ إظهارَ عيبِها؛ بل لا يبعدُ جوازُ ذلكَ ابتداءً بدونِ استشارةٍ، إذا علمَ بترتبِ مفسدةٍ عظيمةٍ على تركِ النَّصيحةِ، ومنها: ما لو قصدَ بالغيبةِ ردعَ المغتابِ عن المنكرِ، فيما إذا لم يمكنِ الردعُ بغيرِها، ومنها: ما لو خيفَ على الدِّينِ من الشَّخصِ المغتابِ، فتجوزُ غيبتُهُ، لئلَّا يترتبَ الضررُ الدينيُّ، ومنها: جرحُ الشُّهودِ، ومنها:

١- الكافي: ج ٢، ص٦٦٠.

٢- نزهة الخواطر وتنبيه الخواطر (مجموعة ورَّام): ج٢، ص٤٨٢.

ما لو خيفَ على المغتابِ الوقوعُ في الضررِ اللازمِ حفظُهُ عن الوقوعِ فيهِ، فتجوزُ غيبتُهُ لدفعِ ذلكَ عنهُ، ومنها: القدحُ في المقالاتِ الباطلةِ، وإن أدَّى ذلكَ إلى نقصٍ في قائلِها، وقد صدرَ من جماعةٍ كثيرةٍ من العلماءِ القدحُ في القائلِ بقلةِ التدبرِ، والتأملِ، وسوءِ الفهمِ ونحوِ ذلكَ، وكأنَّ صدورَ ذلكَ منهم لئلَّا يحصلَ التَّهاونُ في تحقيقِ الحقائقِ، عصمنا اللهُ تعالى من الزَّللِ، ووفقنا للعلمِ والعملِ، إنَّه حسبُنا ونعمَ الوكيلُ»[١].

الفرع الثَّالث: بعض السَّعي ضار

قال عليه السلام: «وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ».

خلو السَّعي من المعرفةِ قد يجعلُه يخوضُ فيما يضرُّهُ، ولا ينفعُهُ؛ لذلكَ على الإنسانِ قبلَ السَّعي أن يلاحظَ ذلكَ؛ وإلَّا قد يضرُّه ذلكَ السَّعي بسببِ عدم دراسةِ العواقب؛ فالتَّثبُّت والتَّحرُّز قبلَ السَّعي يؤمنُ العبدَ من الضَّرر؛ «ورُبَّ هنا للتكثير لا للتقليل؛ إذا أردنا بالضَّرر ما يشمل حساب الآخرة وعقابها»[٢].

إنَّ الإقبالَ على أيِّ موضوع بعقل واعٍ وقلب مطمئن يتطلَّب خطوات متأنية تجمع بين التَّفكير المنهجي والتَّوكل على الله عزّ وجلّ، وحينما يدرسُ الفردُ أمرًا دراسة جيِّدة، ويتمعَّنُ في مقدِّماته وينظر بعين بصيرة إلى عواقبه، فإنَّه يبني قرارَه على أساس متين من العلمِ والتَّفكيرِ السَّليم، وهذه الدِّراسة المتأنيَّة لا تقتصر على جمع المعلومات فقط؛ بل تشمل فهم السِّياق، واستشراف النَّتائج، ومعرفة الخير فيما يُقبل عليه.

١- منهاج الصالحين، أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣هـ)، ١٤١٠هـ، الطبعة: الثامنة والعشرون: ج١، ص ١١.
٢- في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص ٢٣٢.

وأمَّا التَّوكُّل على اللهِ سبحانه وتعالى، فهو جوهر النَّجاح في أيِّ أمر؛ فالفردُ عندما يضع ثقتَهُ في الله جل جلاله ويسألُه الهداية، فإنَّه يتجاوز حدودَ قدراته البشرية، ويتَّصل بعون إلهي يمنحه بصيرة وإلهامًا لا يخطئان.

إنَّ مزيجَ الدِّراسة الجيدة والتَّوكل على الله عز وجل يجعلُ احتماليَةَ الوقوعِ في الخطأ أو التَّعرض لما يضر نادرة جدًّا؛ فالتَّفكيرُ السَّليمُ يمنعُ الزَّلل، والتَّوكل يزيل الشُّكوكَ، ويثمرُ بركة في النَّتائج؛ لهذا، علينا أن نتذكر أنَّ الاتزان بين الجهد البشري والإيمان بالله عز وجل هو مفتاح التَّوفيق والنَّجاح؛ عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «**التَّدْبِيرُ قَبْلَ الْعَمَلِ يُؤْمِنُكَ مِنَ النَّدَمِ**»(١).

الفرع الرَّابع: قيمة التَّفكُّر

قال عليه السلام: «**مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ**».

أي مَن أكثرَ من الكلام صدرَ عنه السَّيءُ والفاحشُ والهذيانُ؛ إذ كثرة الكلام تؤدِّي غالبًا لهذه النَّتائج، ومن تأمَّل بعمق أدركَ نورَ المعرفة، بينما الإقدام من دون تفكُّر ينذرُ بدخولِ صاحبه في دوائر الخطر والتِّيه، ويبدو أنَّ هناك ارتباطًا بين كثرةِ الكلامِ وقلَّةِ التَّفكير؛ فمن يكثر كلامُهُ يقلُّ تفكيرُه، ممَّا يفضي في النِّهاية إلى صدورِ الكلامِ السَّيء، وأمَّا «حقيقةُ التَّفكُّر طلبُ علم غير بديهي من مقدِّمات موصلة إليه...»(٢)؛ عن الإمام علي عليه السلام: «**الْإِكْثَارُ يُزِلُّ الْحَكِيمَ، وَيَمَلُّ الْحَلِيمَ، فَلَا تُكْثِرْ فَتُضْجِرْ وَتُفَرِّطْ [وَلَا تُفَرِّطْ] فَتُهَنْ**»(٣).

١- تحف العقول: ص ٩٢.
٢- شرح الكافي، الأصول والروضة (المولى صالح المازندراني): ج ٨، ص ١٦٩.
٣- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٦٠.

وعنه عليه السلام: «إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْكَلَام فَإِنَّهُ يُكْثِرُ الزَّلَلَ، وَيُورِثُ الْمَلَلَ»[١].

وعنه عليه السلام: «دَعِ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِه، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَلَفْظَةٍ أَتَتْ عَلَى مُهْجَةٍ»[٢]، وعنه عليه السلام: «كَثْرَةُ الْكَلَامِ تَبْسُطُ حَوَاشِيَهُ وَتَنْقُصُ مَعَانِيَهُ فَلَا يُرَى لَهُ أَمَدٌ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَحَدٌ»[٣].

الفرع الخامس: المرء على دين خليله

قال عليه السلام: «قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ».

«الاقترانُ اجتماعُ شيئينِ، أو أشياء في معنى من المعاني»[٤]، وتباين الرَّجلانِ بان كلُّ واحدٍ منهما عن صاحبِهِ، أو كذلك في الشّركة إذ انفصلا، وقارنْ أهلَ الخيرِ؛ أي كنْ معهم، فالنَّتيجة تكن منهم؛ لأنَّ أخلاقَهم، وسلوكَهم سرعان ما يسريان إليك، وابتعد وانفصل عن أهل الشّرِّ تكن خلافَهم، وعلى ضدِّ صفتهم، وكما يقال:

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهِ ＊＊ فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَدي[٥].

إنَّ للصديق أو للمصاحب دورًا مهمًّا للغاية وتأثيرًا كبيرًا على سلوكِ الإنسان وأخلاقِهِ وتوجيهاتِهِ وأهدافِهِ، سواء كانَ في مجالِ السَّلب، أو في مجال الإيجاب.

إنَّ مجالسةَ أهلِ الخيرِ والصَّلاح تدعو للعمل الصَّالح والتَّوجه للآخرة وتهذيبِ الإنسانِ نفسه وعائلته، أمَّا مجالسةُ الأشرارِ فإنَّها تعودُ إلى الشَّقاء والتَّعاسة والحسرة والنَّدم، ولذلكَ أصبح تمييزُ الإنسانِ من خلالِ هذه

١- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٩٥.
٢- م.ن: ص٢٥٠.
٣- م.ن: ص٣٩٠.
٤- مفردات ألفاظ القرآن: ص٦٦٧.
٥- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٠، ص ٤٦.

القاعدة غيرَ صعب، فمن أرادَ أن يعرفَ حقيقةَ الإنسانِ لينظر إلى أقرانه؛ لأنَّ المرءَ على دينِ خليلِهِ؛ ولذلكَ قيل: قلْ لي مَنْ تعاشر؛ أقولُ لك: من أنت. ومن الأمورِ التي يغفلُ عنها الإنسانُ أحيانًا هي مدى تأثُّره بسلوك الآخرينَ، حتَّى من دون أن يدركَ ذلكَ؛ فالطبيعةُ البشريَّةُ تميلُ إلى التَّأقلم والتَّفاعل مع البيئةِ المحيطة، ممَّا يجعل الفردُ يتبنَّى بعضَ التَّصرفات أو الأفكار بشكل لا واعٍ، خاصَّة عندما يتعرَّضُ لتأثير قويّ من المحيطينَ به. وهذا التَّأثر قد يكون إيجابيًا إذا كانت البيئة داعمة للقيم والفضائل، وقد يكون سلبيًا إذا كانت الممارسات المحيطة غير سليمة؛ لذا، من الضروري أن يكونَ الإنسانُ واعيًا للبيئةِ التي يعيشُ فيها، ويحرصُ على اختيار القدوات الصَّالحة التي تُلهمه الخيرَ، وتُعينه على السُّلوك القويم؛ قال أميرُ المؤمنينَ علي عليه السلام: «**لَا تَصْحَبِ الشَّرِّيرَ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِهِ وَأَنْتَ لَا تعلم**»[١].

إنَّ اختيار صديق السُّوء لا يجنى منه إلَّا النَّدم في الدُّنيا والآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا**﴾[٢].

١- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢٠، ص ٢٧٢.
٢- سورة الفرقان/ الآيتان: ٢٧-٢٩.

المطلب الثَّالث: الرَّأي الصَّائب

قال عليه السلام: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ»[١].

سلوكُ الإنسانِ وحركتُه تحددهما طريقةُ تفكيرِ العقل؛ فإذا استقامَ العقلُ استقامتْ الجوارحُ، وهناك عوامل تتدخل في إسداء الرَّأي الصَّائب؛ وهي:

الفرع الأوَّل: الطَّعام الحرام وأثره على الفرد

قال عليه السلام: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ!».

لا تختص مفردةُ الطَّعام بما يأكلُهُ الإنسانُ، وإنَّما يُطلق حتَّى على العلوم التي يتلقَّاها الإنسان؛ ولذلكَ ورد عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، فِي قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾، قُلْتُ: مَا طَعَامُهُ، قَالَ: «عِلْمُهُ الَّذِي يَأْخُذُهُ عَمَّنْ يَأْخُذُهُ»[٢].

فأكلُ الحرامِ له آثارٌ خطيرةٌ في الدُّنيا والآخرة؛ أكثرها تأثيرًا الخزي وغياب التَّوفيقِ في طاعةِ اللهِ عزّ وجلّ، خاصَّة إذا كان الحرام متعلِّقًا بحقوقِ الآخرينَ، كأموال اليتامى أو حقوق الفقراء والمساكين.

ويُعرَّف الطَّعام الحرام بأنَّه كلُّ طعام نهى اللهُ سبحانه وتعالى عن تناولِه، سواء أدركنا أسبابه من ضرر أو فسادٍ أم لم نُدركها؛ فالطَّعامُ الحرام يُؤثِّر في فكر الإنسان وسلوكه وأخلاقه وأهدافه، ويُوجِّهه دائماً حيث الحضيض

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٢.
٢- الكافي: ج ١، ص٥٠.

والمهانة؛ ولذلك من أركانِ التَّوبةِ إذابةُ اللحم النَّابت من الحرام؛ حتَّى ينفكَّ من الحبال التي تشدُّه إلى الأرض، وتمنعُهُ من سمو روحه؛ إذ التَّوبةُ الحقيقيَّةُ تزيلُ تبعات المعاصي والذُّنوب؛ وهناك رواية عن أميرِ المؤمنينَ عليه السلام نوردُها في هذا المطلب؛ كونها تبيِّنُ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ للتَّائب؛ فقد قال الإمام عليه السلام: «**الْاسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ، حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: (أَسْتَغْفِرُ اللهَ)**»[١].

الفرع الثَّاني: أفحش الظُّلم

قال عليه السلام: «**وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْم**».

الظُّلمُ عندَ أهلِ اللغة: «وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعهِ المختص به؛ إمَّا بنقصان أو بزيادة، وأما بعدول عن وقتِهِ ومكانِهِ»[٢]، والظُّلمُ يتفاوتُ في درجاته ومراتبه، وأشدُّها قبحًا وأعظمُها إثماً هو ظلمُ الضَّعيف؛ لأنَّ الضَّعيفَ أحوجُ ما يكونُ إلى الرَّحمة والرِّفق والإحسان، وظلمُهُ يكشف عن قسوة القلب وغياب الرَّحمة منه، وعاقبة الظُّلم النَّدمُ والحسرةُ؛ لما يراهُ من آثارِ الظُّلمِ في

١- الكافي: ج ٢، ص ٤٣١
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٥٣٤.

الدُّنيا قبلَ الآخرة؛ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: «**لَمَّا حَضَرَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام الْوَفَاةُ ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي عليه السلام حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَ بِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ.**

قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَا يَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِرًا إِلَّا اللهَ»[١].

«والفحشُ ما عظُم قبحُه من الأفعالِ، والأقوالِ»[٢].

الفرع الثَّالث: مواضع الرِّفق والخرق

قال عليه السلام: «إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا».

«الرِّفقُ بالكسر: ضدُّ الخرق؛ وهو أن يحسن الرَّجلُ العملَ»[٣]؛ أمَّا «الخرق قطعُ الشَّيءِ عن سبيلِ الفسادِ من غيرِ تدبُّر، ولا تفكُّر...»[٤]؛ وللكلمة معانٍ متعددة:

١. إذا كان الرِّفقُ في الأمرِ غيرُ نافع، فعليكَ بالخرق؛ وهو العجلة، وإذا كان الخرق؛ أي العجلةُ غير نافع فعليك بالرِّفق؛ والمرادُ بذلكَ أن تستعمل كلَّ واحد من الرِّفق، والخرق في موضعِهِ؛ «فإنَّ الرِّفق إذا استعمل في غيرِ موضعِهِ كان خرقًا، والخرقُ إذا استعملَ في غيرِ موضعِهِ كان رفقًا»[٥].

٢. الرِّفق؛ اللين، وضدُّه الخرق؛ «أي إذا كانَ استعمالُ الرِّفق مفسدةً، وزيادةً في الشر فلا تستعمله فإنَّه حينئذٍ ليس برفق بل خرق، ولكن استعمال الخرق في محلِّه يكون رفقًا»[٦]، ومن هذينِ الرَّأيينِ نفيدُ فوائد عدَّة:

١- الكافي: ج ٢، ص ٣٣١
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٦٠.
٣- مجمع البحرين: ص ٥٢٣.
٤- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٢٧٩.
٥- مجمع البحرين: ص٥٠٣.
٦- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦١٢. توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٦.

الفائدة الأولى: وضعُ الشيء في غيرِ موضعِه مضر بالفردِ والمجتمع؛ فلو عفونا عن القاتلِ المتعمد عن سبق وإصرارٍ فإنَّ هذا العفو يكون مضرًّا به؛ إذ يشجِّعُه أكثر على سفكِ الدِّماء، وكذلكَ توارثُ الأحقادُ من جيلٍ إلى جيلٍ؛ وقتله هو ما يقطعُ دابرَ الجريمةِ؛ بل وكلُّ الجرائم إذا لم تجابه بالعنف ففي أغلب الأحيان تجتاحُ المجتمعَ وتدمرهُ؛ ولذلكَ شُرِّع القصاص لأجلِ حمايةِ الحياةِ الطَّيبةِ، وقطعِ دابر العنفِ والجرائم؛ وهكذا مع أفراد الأسرة؛ فينبغي أن أدرس متى أكون رفيقًا، ومتى أخرج عن الرِّفق؛ فتأديبُ الأولادِ والأطفالِ يحتاجُ أحيانًا إلى الشدَّة، وهذا في مصلحته؛ وإن كان لا يعلم هذا إلَّا بعدَ أن يصبحَ أبًا، وهذه القاعدةُ لها مجالات واسعة في الحياةِ؛ ولو تمَّ تطبيقُ ذلك، لوجدنا أنَّ كثيرًا من المشاكل قد تلاشت.

الفائدة الثَّانية: ليس منَ الصَّوابِ رفضُ العنفِ بشكلٍ مطلق، بل يجبُ توجيهُ هذا السُّلوك الإنسانيّ والإفادةُ منه وفقًا لتعاليم الشَّرع؛ فالقرآنُ الكريمُ يدعو في مواضعَ معيَّنةٍ إلى استخدام القوَّة حينَ تكون ضروريَّة لحمايةِ الدِّين الإسلامي وصيانة المجتمع، شريطةَ أن تظلَّ هذه القوَّةُ مقترنةً بميزان الحكمةِ والعدلِ؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾[1].

الفائدة الثَّالثة: مظاهرُ العنفِ قد تدعو أحيانًا إلى هدايةِ الآخرينَ؛ ولذلكَ استخدمها الأئمَّةُ عليهم السلام في بعضِ الأحيانِ؛ ومن هذا المنطلق يُعدُّ

١- سورة الأنفال/ الآية: ٦٠.

من الأخطاء الشَّائعة أن يُصوِّرَ الأئمَّةعليهم السلام أنَّه لم يكن في حياتِهم إلَّا الرفق؛ والأصوب إنَّ رفقهم هو وضع الشَّيء في محلِّه، لا برأفته بالمجرمين وقطاعي الطُّرق والمبتدعين؛ ولذلكَ من الخطأ خلق جيل لا ينتفض إذا حاولَ بعضُهم التَّقليلَ من شأنِ المقدَّسات، وخاصَّة القرآن الكريم والمعصومينعليهم السلام.

الفرع الرَّابع: الدَّاء والدَّواء

قالعليه السلام: «**رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً**».

إذا طبَّقنا هذه الحكمةَ في مجالِ الطِّب البدني، نستخلصُ منها أنَّ الخطأَ الطِّبِّي في تشخيص المرض أو وصف العلاج قد يُحوِّل المرضَ إلى داء أشدّ خطورة، وفي المقابل، قد تتحولُ بعضُ الأمراضِ إلى سبب لعلاجِ أمراضٍ أخرى في الجسد، أو تكون وسيلةً لدفع مرضٍ أكثر خطورة، ممَّا يُبرزُ دور الحكمةِ والتَّقدير الإلهي في تدبير الأمور؛ «ومثالُ ذلكَ الزُّكام يدفعُ الجنونَ، والرَّمدُ يدفعُ العمى»[١]، وغيرها من الأمور. ولو أخذنا الكلمةِ من الجانبِ الآخر؛ ونصورها بصورة أوسع، فإنَّ بعضَ مصالح الإنسان قد تنطوي على مفاسد، وقد يرى بعض الناس مفسدة أمر قد تكونَ فيه مصلحة؛ قال اللهسبحانه وتعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[٢]، وبعبارة أشمل: يمكن إطلاق لفظ (الدَّواء) على العقاقير الطِّبِّيَّة كما يُطلق أيضًا على الحكمةِ والموعظةِ؛ فكلاهما وسيلة للعلاجِ، وإذا قُدِّما بصورةٍ

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٦.
٢-سورة البقرة/ الآية: ٢١٦.

غـيرِ صحيحـةٍ أو في غـيرِ موضعِهـما، فإنَّهـما قـد يُسـبِّبان الـضَّرر بـدلًا مـن النَّفـعِ، ممَّـا يُـبرز أهميَّـة التَّـأنِّي والمعرفـة في وصـفِ العـلاج المـادِّي أو المعنـوي؛ ولذلـكَ فـإنَّ مسـألةَ نُصـحِ الآخريـنَ، وتزويدَهـم بالحكـمِ والمواعـظ لابـدَّ أن يخضـعَ لأسـسٍ علميَّـة قائمـةٍ عـلى أصـول رصينـة؛ أصلُهـا ثابـت، وفرعُهـا في السَّـماء؛ وعـلى ضـوء ذلـك يتَّضـح أنَّ طـرحَ الأفـكارِ قضيـة بالغـةُ الخطـورةِ إذا لم تسـتندْ إلى دراسـةٍ دقيقـةٍ واستشـارةٍ متخصِّصـة في المجـالِ؛ وأمَّـا محاولـة إصـلاح المجتمـع عـبر قوانـينَ وضعيَّـة مـن صُنـع البـشر قـد تبـدو ظاهريًّـا ذات نفـع؛ لكنَّهـا تحمـلُ في طيَّاتهـا خطـرًا عظيـما وضررًا بالغًـا عـلى الإنسـانِ؛ إذ لا يمكـن للظاهـر الحسـن أن يُـبررَ تجـاوزَ مـا ينسـجمُ مـع الحـقِّ الإلهـيِّ والحكمـةِ السـليمة.

إنَّ الـدَّواء النَّاجـع هـو الـدَّواء الـذي يتـلاءمُ مـع ضـرر المريـضِ، ولا يـتركُ آثـارًا سيئةً عـلى المريـض.

الفرع الخامس: التَّدبُّر في النَّصيحة

قال عليه السلام: «**وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ**».

وهناك رأيان في هذه الكلمة:

الرَّأي الأوَّل: طلُب النَّصيحة لا يعني التَّسليم بقبولِها وتفعيلِها، وإنَّما لا بدَّ من التَّأمُّل فيها، والنَّظر في عواقبِها؛ فقد يُطلَبُ أحيانًا من شخص ليس من شأنِه النُّصحُ، ويمكن أن يغشَّ من طُلِبَ منه النُّصح، والمطلوب ألَّا يعتمد الإنسانُ كلامَ النُّصح من دونِ التَّأمُّل والتَّفكُّر في نصيحته.

الرَّأي الثَّاني: «تنبيهٌ على أنَّه لا ينبغي أن يعرضَ على مشورةِ أحدٍ من حيث أنَّه غير ناصح؛ بل ينظرُ فيها، أو يتبصرُ؛ فربَّما فيها صلاح، وكذلك لا ينبغي أن يركنَ إلى من اعتقده ناصحًا فربَّما غشَّه...»[1]، ودائرة الاهتمام ينبغي أن تكون في التَّأمُّلِ والتَّدبُّر والتَّفكُّر في مضمونِ النَّصيحة وعواقبها، فالأصل المشورة والرَّأي ودراستهما بغضِّ النَّظر عن صاحبِ الرَّأي والمشورة.

١- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٣.

المطلب الرّابع: مقدّمات الأعمال الصّالحة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى المُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ، بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلاَ كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ المَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ»[١].

العملُ الصَّالحُ يشملُ كلَّ ما ندبَ إليهِ اللهُ سبحانه وتعالى من أقوالٍ وأفعال، ويتضمَّن أعمالَ القلبِ والجوارح معًا، وفي يوم القيامة، يخسرُ الجميعُ إلَّا من عمل لآخرته، فهو بلا شكٍّ من النَّاجينَ والفائزينَ؛ قال جلّ جلاله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وقال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٤]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾[٥].

وفي هذه الكلمات يضعُ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام مجموعة من القواعد التي هي من أهمِّ مقدِّمات الأعمالِ الصَّالحة.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.
٢- سورة النحل/ الآية: ٩٧.
٣ - سورة العنكبوت/ الآية: ٧.
٤- سورة الرعد/ الآية: ٢٩.
٥- سورة طه/ الآيتان: ٧٥- ٧٦.

الفرع الأوَّل: بضائع الموتى

قال عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى المُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى**».

«التَّمنِّي تقديرُ شيءٍ في النَّفس وتصويرُه فيها، وذلكَ قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رويةٍ وبناءٍ على أصل؛ لكن بما كان أكثره عن تخمين صار الكذبُ له أملك، فأكثر التَّمنِّي تصور ما لا حقيقةَ له»(١). وبناءً على ذلك نعرفُ أنَّ المنى أقربُ إلى الخيالِ والأوهام؛ إذ لا حقيقة له، وقد حذَّر الإمام عليه السلام من الاتِّكالِ والاستنادِ على الآمالِ من دون عمل واجتهاد؛ «فإنَّها بضاعةُ الموتى؛ فكأنَّ أمنيتَه بضاعة موته»(٢)؛ و«(النَّوكى) جمعُ أنوك؛ وهو الأحمق»(٣).

من خصائص الأماني أنَّها لا تتحقَّق إلَّا في الخيال، وأمَّا في الواقع والعمل فلا تجدي نفعًا ولا ترفع أيَّ مشكلة أو تزيل ضررًا، وعلاوة على ذلكَ، فإنَّ المتمنِّي يستهلكُ طاقاتِه الفكريَّةَ والعقليَّةَ في أمور لا تعودُ عليهِ بفائدة في الدُّنيا أو الآخرة. وهذه الكلمة فيها التَّشجيع على الكدِّ والعمل، وأنَّ تحقيق الأهداف لا يكون بالصُّدفة، وإنَّما بالعزيمةِ والهمَّة والعمل الجاد والسَّعي من أجلِ تحقيقِها. ويمكن تشبيه الأماني بلا عمل بالمركبةِ التي بلا وقود؛ إذ لا فائدةَ من وجودِها؛ لأنَّها لا تتحركُ، ولا يمكن الإفادة منها. إنَّ التَّمادي في السِّباحة في بحرِ الأوهام والخيالات والشِّعارات الفارغة والأهداف الكبيرة من دون السَّعي لتحقيقِها هو من خصائص الأحمق؛ الذي يتعرَّض دائمًا للفشلِ والخذلان.

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٨٥.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٦.
٣- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٣.

الفرع الثَّاني: تحقيق العقل

قال عليه السلام: «**الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ**».

«من هذه الكلمةِ استفادَ المتكلِّمونَ أنَّ العقلَ نوعان؛ غريزي، ومكتسب؛ فالغريزي هو العلومُ البديهيَّة، والمكتسبُ هو ما أفادتهُ التَّجربةُ، وحفظته النَّفسُ»[١].

وكلُّ التَّجارب نافعة للإنسانِ، وفي تقويم سلوكِه إلَّا أنَّ أفضلَها ما وعظه ونبَّهه من غفلته، وأخذَ منها الفائدةَ والعِبرةَ؛ وأوضحَ له الرُّؤية في مسيرتِه؛ مثل النَّظر في أحوالِ الماضينَ وتقلُّب الأحوال.

حفظُ التَّجارب يمنحُ الإنسانَ القدرةَ على مواجهةِ الأحداث القادمةِ بأساليب صحيحة، ممَّا يساعدُ على اجتنابِ الأخطاءِ والمشاكل؛ ولذلكَ، فإنَّ أفضلَ طريق لحفظ التَّجارب هو قراءةُ تاريخ الأوَّلين، وخاصَّة تاريخ الأنبياءِ والرُّسل والأوصياءِ عليهم السلام، حتَّى نتمكَّن من استخلاص الدُّروس والعِبر منهم.

وكذلك فإنَّ حفظَ التَّجارب يمكنُ من خلالها أن يصوغَ الإنسانُ لنفسهِ قانونًا يقيه التَّعثر؛ سواء انتفع من تاريخ السَّابقينَ أو اللاحقينَ أو تجارب نفسِهِ؛ ففي كلِّ الأحوالِ سيجمعُ إلى تجربتهِ تجاربَ أخرى، ومن ثمَّ سيكون أعقلَ النَّاسِ في سلوكِهِ وحركتِهِ.

١- ينظر: نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٣.

الفرع الثَّالث: فوات الفرصة غُصَّة

قال عليه السلام: «**بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً**».

«الفرصةُ ما أمكن من نفسِكَ»[١]، و«أمَّا الغُصَّة الشَّجى في الحلق؛ أي يغصُّ به الحلق، فلا يسوغ»[٢].

«وهنا أطلق الإمام سلام الله عليه اسم الغصَّة على الفرصة مجازًا تسميةً للشيءِ باسمِ ما يؤولُ إليهِ»[٣].

عندما يحاولُ الإنسانُ الوصولَ إلى هدف، فإنَّه يقفُ أمامَ خيارينِ:

١. أن تتوفَّر مقدِّماته.

٢. ألَّا تتوفَّر المقدِّمات.

والإفادة من توفُّر المقدِّمات تكمنُ في المبادرةِ العمليَّةِ لاغتنام الفرص؛ فقد لا تتكرر هذه الفرصُ في المستقبلِ، وعندئذٍ يبقى الإنسان نادمًا ومتحسِّرًا على ضياعها؛ ومن صور الفرص التي ينبغي ألَّا تضيَّع فرصة الغنى، والصِّحة، والشَّباب، والفرصة الأعظم أن أتيح لنا معرفة ولايةِ أهلِ البيت عليهم السلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا أبا ذر، اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا، رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ**

١- مجمع البحرين: ص٩٩٠.
٢- م.ن: ص٩٤٩.
٣- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٤٩.
٤- وسائل الشيعة: ج ١، ص١١٤.

خَالِصًا، وَعَمِلَ صَالِحًا، اكْتَسَبَ مَذْخُورًا، وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا، رَمَى غَرَضًا وَأَحْرَزَ عِوَضًا، كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ، جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ، رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ، وَ لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ، اغْتَنَمَ الْمَهَلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»[١].

وسُئِلَ الإمام الهادي عليه السلام عن الحزمِ؟ فقال عليه السلام: «**هُوَ أن تنهزَ فُرصتَك، وتعَاجِلَ ما أمكنَكَ**»[٢].

ولأنَّ طول الأمل يُعَدُّ من أبرز أسباب تفويتِ الفرص، يأتي التَّفريط بوصفه سببًا آخر لذلكَ، غير أنَّ التَّفريط قد ينشأُ أحيانًا عن طولِ الأمل، وأحيانًا أخرى عن الجهلِ؛ فالجاهلُ بقيمةِ الفرصةِ قد تفوته الفرصُ دونَ أن يدركَها أو يلتفتَ إليها مطلقًا.

وعكسُ التَّفريط هو الحزمُ في الأمور، واتخاذُ القرارات من دونِ تركها للظروف الاستثنائية؛ لأنَّ إهمالَ الأمور يؤدِّي إلى تقويض حزم الإنسانِ وزعزعةِ قوَّته الدَّاخليَّة؛ يقولُ الإمامُ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «**ضادُّوا التَّفريطَ بالحزمِ**»[٣].

وحيث إنَّ التَّفريطَ موجبٌ لتفويتِ الفرصةِ وخسرانِها، نرى أهلَ البيتِ عليهم السلام يرسُمون للإنسان منهجًا رصينًا في التَّعامل مع الحياة، يقوم على الحزمِ في اتِّخاذ القرارات، والجدِّ في أداء الأعمال، والحذرِ من التَّهاونِ والتَّسويف؛ لأنَّ العمرَ محدود، والفرصَ إذا ضاعتْ لا تُستعاد. وكانوا عليهم السلام يحثُّون على قِصَر الأمل، وألَّا يغترَّ المرءُ بالأمانيِّ التي لا تثمر عملًا، لئلّا يخرج من الدُّنيا صفرَ اليدين؛ بل يكونُ

١- تحف العقول: ص ٢١٣.
٢- مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٤٠.
٣- غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٧٤.

غانـمًا رابحًـا، مسـتثمرًا أيَّامـه في الطَّاعـةِ والصَّـلاحِ والعمـلِ المثمـر. ويتجلَّى هـذا المنهج في مواقفهـم العمليَّـة وسـيرتهم السُّـلوكيَّة. فهـذا الإمـامُ الحسـنُ عليه السلام وهـو في آخـرِ لحظاتـهِ، يَعِـظُ أحـد؛ إذ قـال: دخلْـتُ عـلى الحسـنِ بـن عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام في مرضـهِ الـذي تـوفي فيـهِ، وبـين يديـهِ طسـت يقـذفُ عليـه الـدَّمَ، ويخـرجُ كبـده قطعـةً قطعـةً مـن السُّـم الـذي أسـقاه معاويـة، فقلـت: يـا مـولاي، مـا لـك لا تعالـج نفسَـكَ؟

فقال عليه السلام: «**يا عبد الله، بماذا أعالجُ الموتَ؟!**».

قلت: إنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ.

ثـمَّ التفت عليه السلام إليَّ فقـال: «**والله، لقـد عهـد إلينـا رسـولُ الله صلى الله عليه وآله أنَّ هـذا الأمر يملكُـه إثنـا عشر إمامًـا مـن ولـد عـلي وفاطمـة، مـا منَّـا إلَّا مسـموم أو مقتـول**».

ثـمَّ رفعـت الطَّسـت، وبكـى صلـوات الله عليـه وآلـه، قـال: فقلـت لـه: عظني يـا ابـنَ رسـولِ الله.

قـال: «**نعـم، استعدْ لسفرِكَ، وحصِّـل زادَكَ قبلَ حلـولِ أجلِكَ، واعلـم، أنَّك تطلبُ الدُّنيـا والمـوتُ يطلبُـكَ، ولا تحمـلْ هـمَّ يومِـكَ الـذي لم يـأت عـلى يومـك الـذي أنـت فيـه، واعلـم، أنَّـكَ لا تكسـب مـن المال شـيئًا فـوق قوَّتـك إلَّا كنت فيه خازنًـا لغيرِكَ. واعلـم، أنَّ في حلالِهـا حسـاب، وفي حرامِهـا عقـاب، وفي الشُّـبهات عتـاب، فأنـزل الدُّنيـا بمنزلـةِ الميتة خذْ منها مـا يكفيكَ؛ فإن كان ذلـك حلالًا كنت قـد زهـدت فيهـا، وإن كان حرامًـا لم يكـن فيـه وزر، فأخـذت كـما أخـذت مـن الميتة، وإن كان العتـابُ فـإنَّ العتـاب يسـير، واعمـل لدنيـاك كأنَّـك تعيـشُ أبـدًا، وأعمـلْ لآخرتِـك كأنَّـك تمـوتُ غـدًا. وإذا أردتَ عـزًا بـلا عشـيرة، وهيبـةً بـلا سـلطان،**

فاخرج من ذلِّ معصيةِ اللهِ إلى عزِّ طاعةِ الله عز وجَّل... »(١).

وقبل هذه الحادثة كان الرَّسولَ الكريم صلى الله عليه وآله وهو في آخر لحظات حياته الشَّريفة، قد حاول أن يستثمر تلك اللحظات ويستخدمها من أجل نفع الأمَّة، قائلًا: «**ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا** »(٢)، فكان صلى الله عليه وآله حريصًا على سعادةِ الأمَّة من بعده، وحريصًا على بقاءِ السَّير الواعي فيها، لكيلا تنقلب على عقبِها؛ فالنَّبي الكريم صلى الله عليه وآله وأهلُ بيتهِ المعصومون عليهم السلام قد سخَّروا أعمارَهم كاملة، حتَّى آخر لحظات حياتهم، في سبيل هداية البشريَّة وتحقيقِ سعادتِهم.

إنَّ تفويتَ الفرص يترك آثارًا سلبيَّة على شخصيَّة الإنسانِ وروحهِ؛ إذ يؤدِّي إلى تأخره في بلوغِ الكمالات، وحرمانهِ من المقامات والمنازلِ الرَّفيعة. كما أنَّه يغرس في النَّفس شعورًا بالندم والحسرة، ويضعفُ عزيمتَه في مواجهة التَّحدِّيات المستقبلية؛ فالفرص التي تضيع قد لا تتكرَّر، ممَّا يجعلُ استثمارَها ضرورة لتحقيق النَّجاح والارتقاء.

الفرع الرَّابع: الحزن على ما مضى

قال عليه السلام: «**لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلاَ كُلُّ غَائِب يَؤُوبُ**».

يواجهُ الإنسانُ في حياتهِ مواقفَ متباينة بين الفرحِ والحزنِ، السَّلبِ والإيجاب، والإدراكِ والجهل، ومن الضروري أن يعي أنَّ الحياة لا تسير دائمًا بحسب رغباته، فقد يواجه لحظات من الفقدان أو الإخفاق في تحقيق ما

١- بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٣٩.
٢- صحيح البخاري (ط- أوقاف مصر)، البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، ١٤١٠ هـ، الناشر: جمهورية مصر العربيَّة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الاسلاميَّة، لجنة إحياء كتب السنَّة - مصر-قاهرة، تحقيق: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، لجنة إحياء كتب السنَّة، مصر، الطبعة: الثَّانية: ج ٥، ص٢٤٤.

يطمح إليه، وكما يقال: تسري الرِّياحُ بما لا تشتهي السُّفن، ممَّا يستدعي منه التَّحلي بالصَّبِر والمرونةِ للتعامل مع تقلباتِ الحياة، وهنا تأتي أعظمُ قاعدة تعالجُ هذهِ الخسارةَ، كما قالها الأمير عليٍّ عليه السلام؛ ومن فوائد هذه القاعدة أنَّها تمنعُ الإنسان من الحزن على ما فاته، وتخفِّفُ من صدمةِ فقدانِ الأشياءِ أو الأشخاصِ الغائبينَ إلى حدٍّ لا يؤثِّر على توازنِهِ النَّفسي وتماسكه الدَّاخلي. وليس بالضَّرورة أنَّ الإنسان كلَّ شيءٍ يطلبه يمكن أن يدركه، فمن الممكن أنَّ هناك مصلحة في عدم إدراكه، والتَّأسُّف عليه لا يغيِّر الواقع.

إنَّ تضمين هذه الحالة داخل النَّفس يقلل كثيرًا من ضغط الأحداث المؤلمة، ويزيدُ إيمان الإنسان بالله سبحانه وتعالى، وعلى العموم على الإنسان أن يسعى في الكدِّ والعمل، ويبتعد عن مذلَّة السُّؤال، وعند عدم الإدراك لا ينبغي الجلوس والكسل، وهكذا في كلِّ مجالات الحياة؛ خاصَّة المصلحين ومن وضعوا أقدامهم على خطى الأنبياء عليهم السلام.

إنَّ عدم تحقيق ما تصبو إليه ليس عذرًا للجلوس، بل لابدَّ من الاستمرار وعدم اليأس، والنَّتيجة ألَّا نستسلم للحياة لو واجهتنا بالصُّعوبات والمشاكل؛ بل نزداد قوَّة وعزمًا وإصرارًا، وإنَّ الاخفاقات إنَّما هي لأجل مصلحة قد لا نعلمُها، وأنَّها في مصلحتِنا ما دمنا نسعى على وفقِ ما يتطلَّب الموقف.

الفرع الخامس: ما يفسد المعاد

قال عليه السلام: «**وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ المَعَادِ**».

أكثر النَّاس خسارة من هيَّأ الزَّاد للسفر، وتعبَ في إعداده، وبعدَ ذلكَ أتلفهُ، وضيَّعه؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[1]. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ. وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2]؛ وغايةُ إعداد الزَّاد هي أن يتسلَّحَ بهِ الإنسانُ لمواجهةِ سفر قد يعرِّضه للهلاكِ إذا لم يكن معه ما يعينه عليه. وفي هذا السِّياقِ، يصبحُ فساد المعاد أمرًا مقطوعًا به إذا غابَ الاستعدادُ الكافي؛ «والفسادُ: خروجُ الشَّيءِ عن الاعتدال؛ قليلًا كان الخروجُ عنه، أو كثيرًا، ويضاده الصَّلاح، ويستعملُ ذلك في النَّفسِ والبدنِ والأشياءِ الخارجيَّةِ عن الاستقامة»[3].

وإضاعة الزَّاد يمكن أن يتحقَّق بأمور عدَّة؛ منها:

١. ارتكاب المحرَّمات.

٢. الرِّياء.

٣. عدم التَّفقه في المسائل الابتلائية.

٤. أكلُ الحرام.

٥. عدم المحافظة على اللسان.

١- سورة الكهف/ الآيتان: ١٠٣-١٠٤.
٢- سورة النحل/ الآية: ٩٢.
٣- مفردات ألفاظ القرآن: ص٦٣٦.

لذلـك، مـن الواجـبِ عـلى الإنسـانِ أن يـولي اهتمامًـا خاصًّـا لهـذه النقطـة الجوهريَّـة، وأن يراقـبَ أفعالَـه وسـلوكيَّاتِه بدقَّـة، ويبتعـد عـن كلِّ مـا يفسـد زاده؛ فـكلُّ عمـل غـير صالـح قـد ينتهـي إلى تقليـص الاسـتعداد لمـا هـو آتٍ، ممَّـا يعرِّضـه لفسـاد المعـاد، ومـن هـذا المنطلـق يصبحُ التَّحلِّي بالوعـي واليقظـةِ ضرورة للنجـاة مـن هـذا الفسـاد، وتحقيـق التَّـوازن بـين الدُّنيـا والآخـرة.

المطلب الخامس: من درر الكلام

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ، لاَ خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلاَ فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ**»[١].

للحكمةِ والموعظةِ والكلمةِ الطيِّبةِ تأثيرٌ كبير؛ فهي ضالة المؤمن كما ورد في العديد من رواياتِ أهلِ البيتِ عليهم السلام؛ ولذلكَ أصبحت أفضلَ هدية يقدِّمها شخص لآخر؛ ولو خُيِّرَ الإنسان بين هديَّة مادِّيَّة تشبع غرائزه وشهواته، وبين حكمةٍ تضيءُ عقلَه؛ فالأفضل أن يهتمَّ بالحكمةِ؛ لأنَّ كلمة واحدة من كلماتِ الحكمةِ يمكن أن تغيِّر كيانَ الإنسان، وتبدِّلُ حالَه من حالٍ إلى حالٍ آخر؛ وفي هذا المطلب سنحاولُ التَّركيزَ على بعضِ هذهِ الدُّرر؛ إذ أنَّ كلَّ حكمة تشكِّل مصدرًا للكنوز؛ وهنا سنأخذها بشكلٍ إجمالي:

الفرع الأوَّل: عواقب الأمور

قال عليه السلام: «**لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ**».

النَّظر في العواقب من أعظم القواعد التي تضمنُ سلامةَ السُّلوك في الدُّنيا وجزاءَ الأعمال في الآخرة؛ فكلُّ فكرة أو فعلٍ أو أمرٍ، إذا تأمَّلنا وتدبَّرنا في عاقبتهِ بدقَّة استطعْنا الابتعاد عمَّا يضرُّنا والاقتراب ممَّا ينفعنا؛ والعواقب تتنوَّع بين حسنة وسيئة، وبين درجاتٍ من حسنٍ وأحسن، وسيءٍ وأسوأ، والعاقلُ هو الذي يختارُ الأحسنَ عندما يكونُ ذلكَ ممكنًا، ويبتعد عن الأسوأ ما أمكن.

---

١ - نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.

ومع البحثِ والتَّأمل والدِّراسة والاستشارة تتَّضُح لنا العواقبُ بجلاء، ممَّا ينير طريقَ الاختيار الصَّحيح، ويعينُنا على اتِّخاذ القرارات الصَّائبة.

قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[١].

الفرع الثَّاني: السَّعي المتوازن

قال عليه السلام: «**سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ**».

أمرَ اللهُ جلّ جلاله الإنسانَ بالسَّعي والعملِ وبذلِ الجهد، وأن يتَّبعَ الأسبابَ على وفق ما تقتضيه حالُهُ من النَّاحية البدنيَّة والفكريَّة، وأن لا يقدِّم شأنًا على شأنٍ آخر لا يقلّ أهميَّة؛ فلا إفراط ولا تفريط؛ أي لا أجلسُ في البيتِ وأنتظر القدر، ولا أفرِّط في السَّعي عن الحدِّ المرسوم لي؛ وما قدَّره اللهُ سبحانه وتعالى لنا سيأتي؛ والواجبُ على الإنسانِ السَّعي المتوازنُ، والباقي على اللهِ جلّ جلاله أن يختمَ ذلكَ السَّعي بما يتناسب وطبيعة حياته؛ ولذلكَ أصبحَ سوءُ الظَّنِّ أو التَّشكيك في حكمةِ اللهِ عزّ وجلّ من المحرَّمات؛ لأنَّها تخرجُ الإنسانَ عن الثِّقةِ باللهِ سبحانه وتعالى، وهذه الكلمةُ تدفعُ الإنسانَ إلى السَّيرِ في طريقِ الحقِّ والعملِ وعدم الخروج عن خطِّ الاستقامة، وهذا ما يحققُ الأهدافَ، وإن تأخَّرت؛ لكن ينبغي أن لا يغيب عن فكر الإنسان أنَّ ما قُدِّر لي من اللهِ سبحانه وتعالى سأحصلُ عليه في الوقتِ المناسب؛ فلا أحرص في طلبِهِ؛ فإنَّ الحرصَ قد يسبِّبُ الخسارةَ والتَّعبَ والشَّقاءَ.

١- سورة القصص/ الآية: ٨٣.

الفرع الثَّالث: أخطار التِّجارة

قال عليه السلام: «**التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ**».

لعلَّ التَّركيز على التَّاجر في هذه الحكمة؛ إنَّما يعودُ إلى أهميَّة هذا العمل في تقدُّمِ عجلةِ الاقتصادِ في البلادِ؛ هذا إذا أخذنا مجالَ التِّجارة في الحياةِ الدُّنيا ضمن إطارِ هذا العمل المعروف؛ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**مَنْ طَلَبَ التِّجَارَةَ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ. قُلْتُ وَإِنْ كَانَ مُعِيلاً؟ قَالَ وَإِنْ كَانَ مُعِيلًا؛ إِنَّ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الرِّزْقِ فِي التِّجَارَةِ**»[1]؛ وإلَّا فإنَّ التِّجارةَ مفهوم أوسع من ذلكَ بكثير، فهي تشملُ مجالات متعدّدة؛ ولهذه الكلمة أكثر من توجيه ودلالة:

التَّوجيه الأوَّل: أن تكونَ هذه الكلمةُ وهذه الحقيقةُ نصبَ عينيه؛ فلا يحزن إذا خسر؛ فقد وضع نفسه في موضع الخطر؛ ولأنَّ هذا الأمر متوقَّع وممكن الحصول مع أغنى التجَّار وأذكاهم؛ وصدمةُ الخسارةِ ممكن أن تسبِّب موت التَّاجر أو إحداث الضرر البليغ؛ فعلى التَّاجر السَّعي على وفق علمٍ ومعرفةٍ وتوقع كلِّ شيءٍ.

التَّوجيه الثَّاني: أكثرُ النَّاسِ شغفًا بجمعِ الأموالِ التُّجار؛ فالتَّاجر يقضي أغلب وقته في الشراءِ والبيعِ والقبضِ والتَّسليم والتَّعاملِ مع الآخرينَ، وهذا يضعه في موضعٍ يعرِّضه للحرام، ويقودُهُ إلى الوقوعِ فيهِ، ممَّا يجعلُه ضمن دائرة الخطر.

التَّوجيه الثَّالث: في الكلمةِ إشارة إلى أنَّ التِّجارة تحيطُ بها الأخطار من كلِّ جانب، والطَّريق الأوَّل والأخير أن يتفقَّه التَّاجر في دينه ومعاملاته؛ ليتمكَّنَ

١- الكافي: ج٥، ص ١٤٨.

من اجتناب أخطارِ الرِّبا، والغبنِ، والغشِّ، وكلِّ ما يتعلَّق بمسائل التِّجارة.

التَّوجيه الرَّابع: «التَّاجر عادة يُخرجُ الثَّمن، ولا يعلم هل يعودُ أم لا؟ وهذا يجعلُه في دائرةِ الخطر حتَّى يرجعَ إليهِ رأسُ مالِهِ»[١]، وإذا رجعْنا إلى ما ذكرنا أنَّ التِّجارةَ لها باطن، ولها ظاهر، «وتوجيه هذه الكلمة من حيث الباطن؛ أنَّ مَنْ مزجَ الأعمالَ الصَّالحةَ بالأعمالِ السَّيئةِ؛ فإنَّه مخاطر؛ لأنَّه لا يأمن أن يكونَ بعضُ السَّيئات تحبطُ أعمالَهُ الصَّالحةَ؛ كما لا يأمن أن يكونَ بعضُ أعمالِهِ الصَّالحة تكفِّر السَّيئات»[٢].

ولذا شرعت مجموعة من الأحكام والمندوبات في هذا المجال؛ عَن أَمير المُؤْمِنِينَ عليه السلام: **«يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ الْفِقْهَ ثُمَّ المَتْجَرَ، الْفِقْهَ ثُمَّ المَتْجَرَ، الْفِقْهَ ثُمَّ الْمَتْجَرَ؛ وَاللهِ لَلرِّبَا فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، شُوبُوا أَيْمَانَكُمْ بِالصِّدْقِ، التَّاجِرُ فَاجِرٌ، وَالْفَاجِرُ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ أَخَذَ الْحَقَّ، وَأَعْطَى الْحَقَّ»**[٣].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: **«قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ بَاعَ وَاشْتَرَى فَلْيَحْفَظْ خَمْسَ خِصَالٍ وَإِلَّا فَلا يَشْتَرِيَنَّ، وَلا يَبِيعَنَّ: الرِّبَا، وَالْحَلْفَ، وَكِتْمَانَ الْعَيْبِ، وَالْحَمْدَ إِذَا بَاعَ، وَالذَّمَّ إِذَا اشْتَرَى»**[٤].

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: **«كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِالْكُوفَةِ عِنْدَكُمْ يَغْتَدِي كُلَّ يَوْم بُكْرَةً مِنَ الْقَصْرِ فَيَطُوفُ فِي أَسْوَاقِ الْكُوفَةِ سُوقاً سُوقاً وَمَعَهُ الدِّرَّةُ عَلَى عَاتِقِهِ وَكَانَ لَهَا طَرَفَانِ، وَكَانَتْ تُسَمَّى السَّبِيبَةَ، فَيَقِفُ عَلَى أَهْلِ كُلِّ سُوقٍ فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ اتَّقُوا**

١- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦١٥.
٢- م.ن: ص ١٦١٥.
٣- الكافي: ج ٥، ص ١٥٠
٤- م.ن: ج ١٠، ص ١٦.

اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَإِذَا سَمِعُوا صَوْتَهُ عليه السلام أَلْقَوْا مَا بِأَيْدِيهِمْ، وَأَرْعَوْا إِلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ وَسَمِعُوا بِآذَانِهِمْ، فَيَقُولُ عليه السلام: قَدِّمُوا الاسْتِخَارَةَ، وَتَبَرَّكُوا بِالسُّهُولَةِ، وَاقْتَرِبُوا مِنَ الْمُبْتَاعِينَ، وَتَزَيَّنُوا بِالْحِلْمِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْيَمِينِ، وَجَانِبُوا الْكَذِبَ، وَتَجَافَوْا عَنِ الظُّلْمِ وَأَنْصِفُوا الْمَظْلُومِينَ، وَلا تَقْرَبُوا الرِّبَا، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَيَطُوفُ عليه السلام فِي جَمِيعِ أَسْوَاقِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَقْعُدُ لِلنَّاسِ»[١].

الفرع الرَّابع: ميزان القلَّة والكثرة

قال عليه السلام: «**وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ**».

وفي هذهِ الحكمةِ أكثرُ من رأي:

الرَّأي الأوَّل: «أنَّ اليسير الحلالَ أغنى من الكثيرِ الحرام في الآخرة؛ لأنَّه يُترتَّب عليهِ زيادةُ الثَّواب»[٢].

الرَّأي الثَّاني: «إنَّ نماءَ اليسيرَ يمكن أن يكونَ أكثرَ؛ فلا يهتمّ الإنسانُ بالقلَّة وبالكثرة في الأوائل؛ وإنَّما يلزم أن يلاحظ النَّتائج»[٣].

الرَّأي الثَّالث: «رُبَّ يسير وضع في محلِّهِ أنمى من كثير وضِعَ في غيرِ موضعِهِ، وقد رأينا الكثير من أصحاب الملايين آل أمرهم إلى البؤس من تصرفاتهم»[٤].

الرَّأي الرَّابع: «إنَّ الإنسانَ لا ينبغي أن ينظرَ إلى كميَّةِ الأعمالِ والأفعالِ فقط؛ بل الأهم هو الكيفيَّة والنَّوعيَّة؛ فكم من الأعمالِ القليلةِ، إذا تمَّت بكفاءةٍ أكبر وإخلاص أعمق، تعطي ثمارًا أكثر»[٥].

١- الكافي: ج ٥، ص ١٥١.
٢- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٥.
٣- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٧.
٤- في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص٢٣٧.
٥- نفحات الولاية: ج٩، ص٥٦٠.

الرَّأي الخامس: «إنَّ القليلَ مع التَّوجه به إلى اللهِ تعالى، والإخلاصِ في طريقةِ تقديمِهِ يكون أنمى أجرًا وثوابًا من الشَّخص الذي يقدِّم الكثير؛ وهو عارٍ عن نيَّةِ التَّقربِ إلى اللهِ تعالى والتَّوجهِ إليه»[١].

الفرع الخامس: الاستعانة المذمومة

قال(عليه السلام): «**لاَ خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلاَ فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ**».

«المهين: الحقير»[٢].

أمَّا «الظَّنين المتَّهم»[٣]؛ فيكونُ المعنى: لا خيرَ في شخصٍ حقير النَّفس، ولا في صديق متَّهم؛ فكلاهما يجرَّان الشَّر، ولا يتخذان عونًا وظهيرًا؛ إذ المهين لا ينهض بمعالي الأمور، وأمَّا الظَّنين فله معنيان:

المعنى الأوَّل: «إنَّه متَّهم لصديقه؛ أي يبطن الشَّر له»[٤]، فنفسيته مملوءة بالشَّكِّ، ويحمل كلَّ بادرةٍ من صديقه على أسوئها.

المعنى الثَّاني: منْ «توجهت له أصابع الاتهام في مجالٍ من المجالات»[٥].

وأغلب الشُّروح لهذه الكلمة تشير إلى ضرورة الابتعاد عن الصَّديق المتَّهم الذي يُظهرُ خلافَ ما يخفي؛ فهو يتلاعب، ويراوغ، ويخادع، ولا يأتي منه إلاَّ الشر؛ كذلك فإنَّ صحبته قد تؤثِّر سلبًا على سمعة الشَّخص نفسه، فقد تهتُّز صورته في نظر الآخرين عندما يرون ارتباطه بذلك الصَّديق المشتبه به. ومن هذه الرؤية فإنَّ الابتعاد عن هذا النَّوع من الأصدقاء خطوة هامَّة للحفاظ على القيم والمبادئ في العلاقات الاجتماعيَّة.

١- الوصيَّة الخالدة: ص١٧٦.
٢- مجمع البحرين: ص١٢٣٢.
٣- لسان العرب: ج ١٢، ص٣٧٣.
٤- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٥١.
٥- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٧.

الفَصْلُ الثَّانِي

مُرتَكَزاتُ البِنَاءِ المجتَمَعِي

المبحَثُ الأَوَّلُ

أصُولُ العلَاقَاتِ الاجتمَاعِيَّة

المطلب الأوَّل: قواعد التَّعامل مع بعض الأخطار

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلاَ تُخَاطِرْ بِشَيءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ...**»[(١)].

تتقاطعُ معظمُ مشاريع الحياةِ مع المخاطر؛ وأهمُّ ما يخففُ من تلكَ المخاطر فهمُ القضايا التي تمنع حدوثها، إضافة إلى معرفة الردِّ الفعَّال اتِّجاه أسباب المخاطر في أثناء السَّير في هذهِ الحياة، وتعتمدُ إدارةُ المخاطر على أخذِ خطوة استباقية اتِّجاه التَّهديدات المُحتمل حدوثها، بدلًا من تلقِّي المفاجآت، وبعد ذلك البحث في كيفيَّةِ التَّعاملِ معها؛ لذلكَ وجبَ معرفتها؛ وإلَّا غالبًا ما تبدأ المشاريع لتكون على المسار الصَّائب؛ وتحدث أشياء لتضعَها خارجَ ذلكَ المسار.

وهنا يبيِّنُ الأميرُ عليه السلام بعضَ قواعد التَّعامل مع بعضِ المجالات التي يمكن أن يتعرَّض صاحبُها للأزمات والأخطار:

الفرع الأوَّل: التَّعامل مع منعطفات الدَّهر

قال عليه السلام: «**سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُه**».

«الدَّهرُ عبارة عن الزَّمانِ، ومرورِ السِّنينَ، والأَيَّامِ، والجمعُ دهور»[(٢)]؛ وأمَّا «القعود: البكر حينَ يمكِّن ظهرَه من الرُّكوب؛ إلى أن يثني»؛ اُستعير للزَّمان الذي يتيسَّر فيه الرِّزق، وتسهل فيه مهمَّاته، و«ما» بمعنى المدَّة؛ ووجه الشَّبه؛ إنَّ ذلك الزَّمان يمكِّن من بعض مهمَّاته وحوائجه، وهو

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.
٢- مجمع البحرين: ص٤٤٥.

بمعرض أن ينفر براكبه إذا استزادَ، وشدَّ عليه[١]؛ والمراد أنَّ الدُّنيا؛ إذا كانت سهلة للإنسان لزمَ عليه أن ينتفعَ بها، ولا يكدِّر صفوة نفسه بالطَّمع في أمور أخرى، لا يُعلم هل تستقيم له أم لا؛ إذ ربما أوجبَ ذلكَ ذهاب السَّهل، وعدم إدراك القصد...»[٢].

والزَّمن من أبرز القضايا التي يجب التَّعامل معها بحكمة وفهم، وإلَّا أصبَح دهرًا قاسيًا لا يرحم، وهنا يضع الإمامُ عليه السلام مجموعة من الأسس التي تساعدُنا في استثمارِ فرصةِ اليومِ الذي نعيشهُ، وأهمُّها: إنَّ سهولةَ الزَّمن قد تكونُ فرصة قد لا تتكرر في المستقبل، وبالتَّالي فإنَّ مبدأَ العقلِ يدعونا إلى مقابلةِ الإحسانِ بالإحسان، والمداراةِ بالمداراة. وهناك حديث مشهور يقول: «الدَّهر يومان: يومٌ لكَ، ويومٌ عليكَ، فإن كانَ لكَ فلا تبطر، وإن كانَ عليكَ فاصطبر»[٣]؛ ومقتضى الحال إذا كان لك فينبغي أن تظفرَ به، وإذا كان عليكَ فالصَّبر أولى؛ حتَّى يكونَ معكَ؛ والاستثمار الحقيقي للفرصة يتمثَّل في استثمارها بما يتناسب مع ما يملكه الشَّخص من طاقة وقدرة، من دون أن يتحمَّل ما يفوق ذلك، ومحاولة التَّوسُّع بشكل مفرط قد تنتهي إلى الفشل؛ لأنَّ الدَّهر قد يخدع الشَّخص ويجعلَه يظنُّ أنَّه قادر على تجاوز قدراته، ولذلك، من الحكمة أن يظلَّ الإنسان واعيًا لحدوده ويستثمر الفرص في إطار ما يستطيع؛ فالتَّوازن هو الطَّريق للنَّجاح المستدام.

١- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٦.
٢- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٧.
٣- عيون الحكم والمواعظ: ص٢١.

الفرع الثَّاني: التَّحذير من المجازفة المفرطة

قال عليه السلام: «**وَلاَ تُخَاطِرْ بِشَيءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ**».

«أي لا تخاطر بشيءٍ تملكُهُ في يدِكَ رجاءَ أكثر منه؛ إذ كان في مظنَّته أن لا يعود، فيوشكُ أن يضيعَ الأصلُ؛ يعني إذا كان شاكًّا في سلامته؛ أمَّا مع ظن السَّلامة فلا خطر كما هي عادة التُّجار؛ ونحو قولهم من طلب الفصل حُرم الأصل...»(١)؛ ولذلك من قواعد التِّجارة الأساسيَّة أن لا يجعل التَّاجر كلَّ أموالِهِ مع شكِّه في نجاحِها؛ فقد يفقدُ كلَّ شيءٍ حتَّى أملاكه الباقية؛ لذلك ينبغي للتاجر أن يكون حذرًا أكثر من غيره.

الفرع الثَّالث: ترك اللجاج

قال عليه السلام: «**وَإِيَّاك أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ**».

الاستبدادُ والإصرارُ واللجاجُ من دون مسوّغ شرعيٍّ من القضايا التي لطالما سببت الأضرار لمن تخلَّق بها، وخاصَّة اللجاج في طلبِ الأمر عند تعسُّره؛ وهنا أميرُ المؤمنينَ عليه السلام يحذِّر من هذا الخُلقِ المذمومِ «مستعيرًا لفظ المطيَّة الجموح؛ ووجه الشَّبه كونه يؤدِّي بصاحبِهِ إلى غايةٍ غيرِ محمودة كالجموح من المطايا»(٢)، ولعلَّ هذه الاستعارة جاءتْ للتنفيرِ منه والتَّحذير من الوقوعِ فيهِ، بهدفِ دفعِ الإنسانِ إلى التَّعاملِ مع الزَّمن بحكمة وتفادي العواقب الوخيمة للإهمالِ أو سوءِ التَّدبير.

١- نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦١٦.
٢- م.ن: ص١٦١٦.

إنَّ طلبَ الحقِّ يحتاجُ إلى وعي، ومعرفة، وجدال بالتي هي أحسن؛ أمَّا الخصومةُ؛ فإنَّها تفتحُ أبوابَ الشَّر، ويمكن أن تُفقدَ حقَّه الثَّابت له، أو يضيِّع فرصةَ إقناع الطَّرف المقابل بسببِ ذلكَ اللجاج، وورودُ لفظِ (إيَّاكَ) تعطي وتعكس معنى أهميَّة الالتفات إلى هذا المضمون؛ إذ معناها احذِّرك أن يغلبَكَ اللجاجُ، واللجاجُ لغةً؛ ولج في الأمر لجًّا من بابِ تعبَ، ولجاجة: إذ لازمَ الشيء وواظبَه...»[١].

«واللجاج: التَّمادي، والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه»[٢].

أمَّا اصطلاحًا:

«اللجاج هو التَّمادي في الأمر، ولو تبيَّن الخطأ»[٣]؛ وبمعنى آخر: المواظبة على الطَّلب بإصرار وعناد وإلحاح من دونِ دليلٍ شرعيٍّ على الفعل.

اللجاجة تُعدُّ بوَّابة لفقدانِ الرَّأي السَّديد والتَّدبير الحكيم، كما أنَّها تزرع بذورَ الشَّر في قلوبِ الآخرينَ، ممَّا يتسبَّب في تفكُّك العلاقات وانعدامِ الثَّقة؛ كذلك فإنَّه قد يسقطُ صاحبَه في المهالك، وتعودُ أسبابُ اللجاج إلى اعتداد الإنسانِ بنفسِه، وما يملكُ من آراء حتَّى لو كانت لا تقوم على أسسٍ صحيحة؛ فيحاولُ أن يجبرَ الآخرينَ بالأخذ بها والاعتقادِ بها، مع أنَّ النَّتائجَ قد تكونُ عكسيَّة، وعلاج هذا الخلق المذموم تنويرُ القلبِ بالعلمِ والمعرفةِ، وحسنِ الخُلق، وطيبِ المعاشرةِ، والتَّواضعِ للحقِّ.

١- مجمع البحرين: ص١١٥٦.

٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٦٥٠.

٣- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، النَّاشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، تحقيق: علي شيري: ج ٣، ص ٤٦٩.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِيَّاكَ وَاللَّجاجَةَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَها جَهلٌ وآخِرَها نَدامَةٌ»(١).

وقالَ الإمامُ عليُّ بن الحسين السَّجادُ عليه السلام: «اللَّجاجَةُ مَقْرُونَةٌ بِالجَهالَةِ، وَالْحَمِيَّةُ مَوْصُولَةٌ بِالْبَلِيَّةِ، وَسَبَبُ الرِّفْعَةِ التَّواضُعُ» (٢).

وقال الإمام عليُّ بنُ محمَّد الهاديّ عليه السلام: «مُخالَطَةُ الْأَشْرارِ تَدُلُّ عَلى شِرارِ مَنْ يُخالِطُهُمْ، وَالْكُفْرُ لِلنِّعَمِ أَمارَةُ الْبَطَرِ(٣)، وَسَبَبٌ لِلْغِيَرِ، وَاللَّجاجَةُ مَسْلَبَةٌ لِلسَّلامَةِ، وَمُؤَدِّيَةٌ إِلَى النَّدامَةِ، وَالْهُزُوءَةُ فُكاهَةُ السُّفَهاءِ، وَصِناعَةُ الْجُهَّالِ، وَالتَّسَوُّفُ مَغْضَبَةٌ لِلْإِخْوانِ وَمُورِثُ الشَّنَآنِ، وَالْعَقِبُ(٤) يُعَقِّبُ الْقِلَّةَ، وَيُؤَدِّي إِلَى الذِّلَّةِ»(٥).

وقال الإمام علي عليه السلام: «لَيْسَ لِلَجُوجٍ تَدْبِيرٌ»(٦).

وعنه عليه السلام: «اَللَّجاجُ يُنْتِجُ الحُرُوبَ، وَيُوغِرُ القُلُوبَ»(٧).

وعنه عليه السلام: «اَللَّجاجُ أَكْثَرُ (أكبَرُ) الأَشْياءِ مَضَرَّةً فِي العاجِلِ وَالآجِلِ»(٨).

وعنه عليه السلام: «راكِبُ اللَّجاجِ مُتَعَرِّضٌ لِلبَلاءِ»(٩).

وعنه عليه السلام: «لا مَرْكَبَ أَجْمَحُ مِنَ اللَّجاجِ»(١٠).

وتُبرز هذه النصوصُ أنَّ اللجاجة من أشدِّ الآفات ضررًا على الفرد والمجتمع في العاجل والآجل، ما يدلُّ على ضرورة ضبط الانفعال والجدلِ العقيم.

١- تحف العقول: ص ١٣.
٢- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ٩١.
٣- البطر: التبختر وإنكار الحقوق، والطغيان والتكبر والترفع. ينظر: لسان العرب: ج ٤، ص ٦٨.
٤- اسْتَعْقَبَ فلانًا: تطلَّب عورَتَهُ أو عَثْرَتَه. ينظر: المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦١٣.
٥- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص١٤٠.
٦- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص٤١٠.
٧- م.ن: ص ٥٢.
٨- تصنيف غرر الحكم و درر الكلم: ص ٤٦٣.
٩- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٢٧٠.
١٠- م.ن: ص٥٤٠.

المطلب الثَّاني: حقوق الأصدقاء

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ**»(١).

مفهوم الصَّديق والصَّداقة من المفاهيم الهامَّة في الإسلام، التي ركَّز عليها القرآنُ الكريمُ ورواياتُ المعصومينَ عليهم السلام لما له من دور في التَّأثير على السُّلوكِ الإنسانيّ وأهدافهِ وارتباطهِ باللهِ سبحانه وتعالى؛ وكم من إنسانٍ صالح تحوَّل إلى طالح بفعل صديق؛ وكم من طالح تحوَّل إلى صالح بفعل صديق أيضًا، وهذا يتوقَّفُ على إعطاءِ الصَّداقة مفهومها الحقيقيّ؛ والظَّاهرُ أنَّ الإمامَ عليه السلام أشارَ إلى مفهوم في بدايةِ الحكمةِ أعلى من مفهوم الصَّديقِ؛ ألا وهو مفهوم الإخوة، والظَّاهرُ أنَّ الإخوةَ أخصُّ وأعظم من مفهوم الصَّداقة وأدق؛ فالإخوة خاصَّة بالوحدة الإيمانيَّة. وأهم قواعد الحفاظ على الإخوة؛ وثمارها هي:

الفرع الأوَّل: إلزام النَّفس بالصِّلة

قال عليه السلام: «احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ».

قد يصدرُ من الأخِ بعضُ الرَّذائل لكونهِ غير معصوم، ويمكن أن تؤثِّر عليه بعضُ ما يخرجُهُ من طريقِ الاستقامةِ في التَّعامل؛ ومنها قطعُ التَّواصلِ في بعض الأحيانِ؛ ويوضِّح الإمامُ عليه السلام أنَّ الحلَّ ليسَ في مقابلةِ ذلكَ الخُلُقِ بالخُلق نفسهِ؛ وإنَّما

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.

لابدَّ من المقابلةِ بخُلق هو حلٌ وعلاجٌ لتلك الرَّذيلة؛ وفي هذه الحالة يكون العلاج «بأن يلزمَ نفسَهَ، ويحملَها في حقِّ صديقهِ الحقِّ على أن يقابلَ رذائلَه بالفضائل؛ كالقطيعة بالصِّلة، وسائر ما يأتي لقدومِ المودَّة، والصَّرم هو القطع...»[١]، واللازمُ الصِّلة؛ وإن قطع هو عنك؛ وأمَّا من كان شعارُهُ من وصلني وصلته، ومن قطعني قطعته؛ فهذه أخلاقُ تاجر وليس مؤمنٍ.

ومن هذهِ الحكمة نستطيعُ استخلاص قاعدةٍ عامَّة، وهي: التَّسامحُ يطهِّرُ القلوبَ من الغضبِ أو الكراهيَّةِ، والمعاملةُ الطيِّبةُ مع الأصدقاءِ تسهمُ في تقويةِ العلاقاتِ، وأحسنُ طريقةٍ لبقاءِ الصّداقَةِ هي التَّغاضي عندَ الزَّلَّاتِ.

الفرع الثَّاني: اللطف عند الصُّدود

قال عليه السلام: «**وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ**».

«الصَّد: الإعراض»[٢]؛ و«الظَّاهرُ أنَّ الصُّدودَ أكثرُ تأثيرًا من القطيعةِ؛ إذ يحملُ معنى الهجرِ والتَّعنيفِ، والحلُّ هو أن تستخدمَ اللينَ، وتقتربَ منهُ في مقابلِ هجرِهِ لكَ»[٣].

١- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦١٧.
٢- لسان العرب: ج٨، ص ٢٠٩.
٣- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٨.

الفرع الثَّالث: البذل عند الجمود

قال‏عليه السلام: «**وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ**».

أحيانًا نجدُ بعضَ الإخوان لا يمتلكُ شجاعةَ الجودِ والعطاءِ والإنفاقِ؛ وإخراجُهُ من هذه الحالةِ يكونُ بمبادرةِ البذلِ له والإنفاقِ عليه؛ والعلَّة في ذلكَ أنَّه قد يُخرجُ ذلكَ البخيل من بخلِهِ؛ فإذا كان الأخ لا يبذل لك مالًا أو جاهًا فعملك هنا البذل له؛ حتَّى وإن كان بخيلًا.

الفرع الرَّابع: الدُّنو عند التَّباعد

قال‏عليه السلام: «**وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ**».

قد لا تقطعُ صلات الإخوة؛ إلَّا أنَّه يبتعد، وهنا ينبغي الاقتراب منه؛ فقد يعاني من مشكلة أو ظرف طارئ، وأنت لا تعلمه؛ ودُنوك منه يساعدُ كثيرًا في تنفيسِ كُربِهِ، أو تغييرِ تصوراتِهِ التي قد تكون منطبعة لديه؛ غير أنَّها ليست واقعيَّة.

الفرع الخامس: اللين عند الشِّدة

قال‏عليه السلام: «**وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ**».

يمكن أن يصبحَ الأخُ في بعضِ الأحيانِ بسببِ الظُّروف التي تحيطُ بهِ، أو بسببِ تعرُّضِهِ لمرض إلى أن يكون شديدًا في أخلاقِهِ وطباعِهِ؛ ومواجهةُ الشِّدَّة بالشِّدة ليس من أخلاقِ المؤمنِ؛ وإنَّما ينبغي أن نواجهَ تلكَ الشِّدَّة باللينِ في الكلامِ، وحسنِ المعاشرةِ، والتماسِ الأعذار، وحملِهِ على أكثر من محمل.

الفرع السَّادس: العذرُ عند الجرم

قال(عليه السلام): «**وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ**».

«والجُرمُ بضم الجيم؛ الذَّنب»[١]. ويحتملُ هنا معنيانِ:

المعنى الأوَّل: وهو أكثرُ ما ذهبَ إليه شرَّاح هذه الوصية: «إذا أذنبَ أو أساءَ إليكَ أخوكَ فاحتملْ له العذرَ، ولا تقاطعه، وتغاضى عن هفواته؛ فالجميع غير المعصوم(عليه السلام)؛ معرَّض لارتكاب الجُرم»[٢].

المعنى الثَّاني: ويحتملُ أيضاً أنَّ صدورَ الذَّنبِ والمعصيةِ من العبادِ ليس سببًا لقطعِ الصِّلات الاجتماعيَّة إلَّا إذا كانت تضرُّ صاحبَها بهذا الوصل، أو كانت ممَّا حرَّم الشَّرع ذلكَ؛ فصدورُ الذَّنب لا يُجعل سببًا لقطع الصِّلات؛ وإنَّما الحلُّ إلتماس العذرِ له، وإعانتهِ؛ حتَّى يعبرَ مرحلةَ المعصيةِ وآثارَها، ويرجعَ إلى خطِّ الاستقامة، وقد بالغَ الإمامُ(عليه السلام) في أهميَّةِ هذه الوصايا مع الأخ؛ حتَّى قال: «**حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَة عَلَيْكَ**»؛ «وهذه كناية عن حُسنِ المعاملةِ، والتَّسامحِ معَ الإخوانِ...»[٣]؛ «فالأخلاقُ التي ذُكِرت في النِّقاط السَّابقة بها يستقيمُ الوداد، ويصفو القلب، وتقوى الإخوة...»[٤].

١- مجمع البحرين: ج٦، ص ٢٨.
٢- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٨؛ في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص٢٤٠.
٣- في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص٢٤٠.
٤- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٨.

الفرع السَّابع: اختيار الموضع المناسب.

ثـمَّ حـذَّر عليه السلام بقولـه: «**إيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ في غَيْرِ مَوْضِعِه، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِه**»، لأجل بيانِ قاعدة بالغة الأهميَّة؛ وهي:

إنَّ الصفات التي ذُكرت يجب أن توضع في مكانها الصحيح؛ فبعضُ النَّاسِ قد يستغلونَ هذهِ الأخلاق والصِّفات المحمودة للتجرؤ والعنفِ؛ إذ وردَ في بعضِ الرِّوايات: إنَّ بعضَ أنواعِ الأخوةِ لا يُستحسنُ الإخاء معَها، أو قد لا يكون الإخاءُ معها مناسبًا.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «قامَ رَجُلٌ بِالبَصرَة إلى أميرِ المُؤمنين عليه السلام فَقالَ: يا أميرَ المُؤمنين، أخبرنا عَنِ الإخوان؟

فَقالَ: **الإخوانُ صِنفان: إخوانُ الثِّقة، وإخوانُ المُكاشَرَةِ؛ فَأَمَّا إخوانُ الثِّقةِ فَهُمُ الكَفُّ، وَالجَناحُ، وَالأَهلُ، وَالمالُ. فَإذا كُنتَ مِن أخيكَ عَلى حَدِّ الثِّقةِ فَابذُل لَهُ مالَكَ وبَدَنَكَ، وصافِ مَن صافاهُ، وعادِ مَن عاداهُ، وَاكتُم سِرَّهُ وعَيبَهُ، وأظهِر مِنهُ الحَسَنَ. وَاعلَم أيُّها السَّائلُ أنَّهُم أقَلُّ مِنَ الكِبريتِ الأحمَر.**

وأمَّا إخوانُ المُكاشَرَةِ فإنَّكَ تُصيبُ لَذَّتَكَ مِنهُم، فَلا تَقطَعَنَّ ذلِكَ مِنهُم، ولا تَطلُبَنَّ ما وَراءَ ذلِكَ مِن ضَميرِهِم، وَابذُل لَهُم ما بَذَلوا لَكَ مِن طَلاقَةِ الوَجهِ وحَلاوَةِ اللِّسانِ»[١]، وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «**الإخوانُ ثَلاثَةٌ: فَواحِدٌ كَالغِذاءِ الَّذي يُحتاجُ إلَيهِ كُلَّ وَقتٍ فَهُوَ العاقِلُ، وَالثَّاني في مَعنَى الدَّاءِ وهُوَ الأحمَق، والثَّالِثُ في مَعنَى الدَّواءِ فَهُوَ اللَّبيبُ**»[٢].

١- الكافي: ج٢، ص ٢٤٩.
٢- بحار الأنوار: ج٧٥، ص ٢٣٨.

وأمَّا خيرُ الإخوانِ فقد وردت نصوص عدَّة شريفة في بيانها: عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله: «**خَيرُ الإخوانِ المُساعِدُ عَلى أعمالِ الآخِرَةِ**»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**خَيرُ إخوانِكَ مَن أعانَكَ عَلى طاعَةِ اللهِ، وصَدَّكَ عَن مَعاصيهِ، وأمَرَكَ بِرِضاهُ**»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**خَيرُ إخوانِكُم مَن أهدى إلَيكُم عُيوبَكُم**»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله لمّا قيلَ لَهُ: يا رَسولَ الله، أيُ الجُلَساءِ خَيرٌ؟: **مَن ذَكَّرَكُم بِاللهِ رُؤيَتُهُ، وزادَكُم في عِلمِكُم مَنطِقُهُ، وذَكَّرَكُم بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ**»[٤].

فنستنتجُ من هذه الرِّواياتِ الشَّريفةِ أنَّ أفضلَ أصنافِ الإخوةِ هم أولئك الذين: يساعدونكَ على أعمالِ الآخرةِ، ويصدُّونكَ عن المعاصي، ويأمرونَكَ بما يرضي الله عزّ وجلّ، ويُهدونَكَ عيوبَكَ وينبِّهونَك إلى ما ينقصك، ويذكِّرونك بالله جلّ جلاله عندَ رؤيتِهم، ويزيدونَكَ علماً بكلامِهم؛ وباختصار، هم الذينَ يعينونَكَ على تحسينِ علاقتِكَ بالله سبحانه وتعالى ويقرِّبونَك من طريقه عزّ وجلّ.

١- نزهة النواظر وتنبيه الخواطر (مجموعة ورَّام): ج ٢، ص ١٢٣.
٢- م.ن.
٣- م.ن.
٤- بحار الأنوار: ج ٧١، ص ١٨٦.

المطلب الثَّالث: الحركة بين الصديق والعدو

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ**»[١].

واقعُ أغلب النَّاسِ أنَّهُ أمامَ خيارينِ وصنفينِ؛ إمَّا صديق، أو عدو؛ والحركةُ بينهما تحتاجُ إلى حكمةٍ وحنكةٍ في التَّعاملِ؛ فما هي أهم القواعد حتَّى نستطيعَ أن نحفظَ حقوقَ الإخوة والصَّداقةِ من جانب، وأن نأمنَ من شرِّ الأعداءِ منهم من جهةٍ أخرى؟

أشار أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الموضع إلى مجموعةٍ من الدُّرر التي تخلقُ حالةَ التَّوازن بينَ الطَّرفينِ؛ بل، وأكثر من ذلك إنَّها تدعو إلى إصلاح العدوّ، وتغييرِ طبعِهِ لو طُبِّقت فعلًا على أرض الواقع:

الفرع الأوَّل: انعكاسات اتِّخاذَ عدوّ الصَّديقِ صديقًا

قال عليه السلام: «**لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا**».

إنَّ اتِّخاذَ عدوِّ الصَّديقِ صديقًا فيه انعكاسات عدَّة:

١. مصداقةُ العدو تجعلُ النَّفسَ في حالةِ شكٍّ من طرف الصَّديقِ الذي قامَ بهذا الفعل، ممَّا يثيرُ التَّساؤلَ حولَ مصداقيَّة إخلاصه، وقد يدخلُ هذا ضمنَ دائرةِ حديثِ: «**مَنْ عَرَّضَ نَفْسَه لِلتُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**»[٢].

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.
٢- الكافي: ج ٨، ص١٥٢.

٢. «**المرءُ على دينِ خليلِه**»[١] حديث مرويّ عن المعصومِ﴿ع﴾، ويعني أنَّ الإنسانَ يتأثَّرُ بتصرُّفات ومعتقدات من يصاحبه؛ لذا، فإنَّ مصادقةَ العدوّ من العواملِ التي قد تؤثِّر في سلوكِ الشَّخص وطبيعتِهِ، ممَّا يستوجب قطعها حفاظًا على نقاءِ الدِّينِ والطَّبعِ.

٣. ظلمُ الصَّديق، والخليلِ، وذي الرَّحم له سطوة على من يقع عليه؛ كونه يخلق حالةً من القناعةِ لدى النَّاس أنَّه لو كان على حقٍّ لما تركه صديقه؛ وفي ذلك إضعاف لجانبِ الصَّديقِ وتقوية لجانبِ العدوّ؛ اذ ينشأ من ذلكَ إلقاء اللوم من بعض النَّاس عليه؛ لأنَّه تركه صديقه، وأصبح مع أعدائه.

٤. الجمعُ بينَ صداقةِ العدوِّ والصَّديقِ يعدُّ حالة من النِّفاق؛ لأنَّ الشَّخصَ الذي يسايرُ الأعداءَ بينما يظهر الودَّ مع الأصدقاء يكون قد فشل في الوفاءِ لمبادئهِ وولاءاته، متناقضًا في سلوكيَّاته، ممَّا يخلق تناقضًا بين الظَّاهر والباطن؛ وهذا يدلُّ على لبسِ أكثر من وجه؛ وبئس العبد ذو وجهينِ؛ «قال رجل للإمام علي﴿ع﴾: إنِّي أحبُّكَ، وأحبُّ معاوية؛ فقال: **أنت أعور؛ إمَّا أن تعمى، وإمَّا أن تبصرَ**»[٢]؛ فغرض صاحب الوجهينِ الانتفاع الشَّخصي من الطَّرفينِ.

١- الكافي: ج ٢، ص ٣٧٥.

٢- بحار الأنوار: ج ٢٧، ص ٥٨.

الفرع الثَّاني: تعريف العدوان

«مصطلحُ (العدوان) يحملُ معانٍ متعدِّدة؛ منها:

١. شعور داخليٌّ بالغضبِ والاستياءِ، وقد يظهرُ على شكل أفعالٍ أو سلوكيَّات تهدفُ إلى إلحاقِ الأذى سواء بالآخرينَ أو بالنَّفسِ أو الممتلكات، ويتجلَّى العدوانُ بطرق مختلفة، وقد يشملُ:

الطريق الأوَّل: العنفُ الجسديُّ؛ مثل الضَّرب والتَّشاجر، حيث يستخدمُ الشَّخص القوَّة البدنيَّة للإضرار بالآخرينَ.

الطريق الثَّاني: التَّدميرُ والإتلافُ؛ مثل تحطيم الممتلكات أو إتلاف الأشياء التي تعود للآخرينَ.

الطريق الثَّالث: العدوانُ اللفظيُّ؛ مثلُ الكيدِ، والتَّشهير، والتَّهديد، ويستخدمُ الشَّخصُ الكلماتِ لإيذاءِ الآخرينَ نفسيًّا أو لإثارةِ الخوفِ.

وتصنف هذه الأنماط من العدوانِ ردود فعل للمشاعر السَّلبية التي قد تنجمُ عن الإحباطِ أو الاستياءِ العميق، وقد تكون مدمَّرة إذا لم تُعالج بشكلٍ صحِّي.

٢. استجابةٌ تعقبُ الإحباطَ، ويُستخدم العدوان كأداة لإلحاقِ الأذى بشخص آخر أو بالنَّفسِ، ويبدأُ من الاعتداءِ البدني وصولًا إلى الهجومِ اللفظيِّ والسُّخريَّة.

٣. انتهاك للمعايير الاجتماعية، ويُظهر الشَّخص العدوانيُّ مشاعرَ الكراهيَّة اتِّجاه الآخرينَ، ويُعتبر بذلك مخالفًا للمعايير الاجتماعيَّة المقبولة...»[1].

١- ينظر: سيكولوجيَّة العدوانيَّة وترويضها، عصام عبد اللطيف العقَّاد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى: ص٩٧-٩٩.

ومـن الملاحـظِ كذلـكَ أنَّ العـداوةَ قـد تـتراوحُ بـين مـا هـو مـادِّي محسـوس بالجـوارح ومـا هـو غـير محسـوس؛ عـلى سـبيلِ المثـالِ، في القـرآن الكريـمِ، وردَ لفـظ (العـدو) في سـياقات مختلفـة تشـملُ الشَّـيطانَ بوصفـه عـدوًّا للبشريـة، كـما في قولـه عزوجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(١)، وهـو عـدو لا ندركـه بجوارحنـا، ويقـفُ ضـدَّ الخـيرِ والهدايـةِ؛ لذلـك، فـإنَّ مفهـومَ العـدو يتحـدَّدُ بحسـبِ مسـتوى الـصِّراع، وطبيعـة العلاقـة، والغايـات المرتبطـة بتلـك العـداوة.

الفرع الثَّالث: الإخلاص في إبداء النَّصيحة

قال عليه السلام: «**وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً**».

أي أخلـصْ لـهُ النُّصـحَ سـواء أدَّت النَّصيحـةُ إلى قبولِهـا بـينَ النَّـاسِ، أو قبولِهـا منـه، أو رفضهـا، أو ترتـب عليهـا فعـل حسـن أو قبيـح مـن جانبـهِ؛ «فـإنَّ للنصيحـةِ ثـمارًا طيِّبـة، حتَّـى وإن جـاءت مصحوبـة باصطـدام؛ فالنَّصيحـة حـقٌّ عليـك لأخيـك»(٢).

والمطلـوبُ الإخـلاصُ فيهـا مهـما كانـت وجهـة نظر الطَّـرف المقابـل، وإنَّـما ركَّـز عليه السلام عـلى قبولِهـا حتَّـى لـو كانـت الـرُّدودُ سيئةً؛ لأنَّ قبـولَ النَّصيحـةِ ليس بالأمـرِ السَّـهل، ومـن دلائـلِ أصحـابِ العقـولِ قبولهـم للنصيحـة؛ وعـلى العاقـل أن يبـدي نصيحتَـهُ ويظهرَهـا سـواء لقيـت قبـولًا أم لا؛ فـإن قُبلـت حـازَ شـكرًا وأجـرًا، وإن رُفضـت كُتـب لـه أجـرًا وعـذرًا، وخـرج مـن صفـةِ الغـشِّ المذمومـة،

١- سورة فاطر/ الآية: ٦.
٢- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج ٣، ص ١١٥؛ توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٨.

وفي جميع الأحوالِ، علينا أن نتأمَّلَ النَّصيحةَ من الطَّرفين؛ فإن كانت مفيدة، فما المانعُ من قبولِها؟

إنَّ كثيًرا من الأخطارِ والأهوالِ دُفِعت بفعل قبولِ نصيحة، وأمَّا إخفاء العيوب بين الإخوان مع العلم بها وعدم النَّصيحة؛ هو نوع من الغشِّ وعدم الإخلاص له؛ فلو كان مخلصًا له لدفعَ عنهُ أخطار ذلكَ المرض، أو الآفة، أو العيب بنصحه، والمفروضُ أن يكونَ النَّاصحُ هو أحبُّ الخلق للمنصوح؛ لا أن يواجهه بالعتاب إذا نصحه.

عن الإمام الصَّادق (عليه السلام) قال: «**أَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي**»[١].

وليس من المبالغة القول: إنَّ الواجبَ على الإنسانِ أن يطلبَ من إخوانِهِ المخلصينَ أن يكشفوا له عيوبَه، وأن يكونوا له مرآة صادقة؛ ليتمكَّن من إصلاحِها في الوقتِ المناسب.

والخلاصةُ أنَّ النُّصح بالحقِّ للإخوان، وإن أدَّى إلى غضبِ الطَّرف الآخر أو ردِّ فعل غيرِ لائق، يجعلُكَ مأجورًا في الحالتينِ؛ لأنَّكَ بذلكَ تكونُ قد أدَّيْت ما عليكَ من تكليف.

عَنْ أَبِي عَبْدِ الله (عليه السلام): «**عَلَيْكَ بِالنُّصْحِ لله فِي خَلْقِهِ فَلَنْ تَلْقَاهُ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْهُ**»[٢].

١- الكافي: ج٢، ص ٦٣٩.
٢- م.ن: ج٢، ص ١٦٤.

الفرع الرَّابع: من آثار تجرُّع الغيظ

قال(عليه السلام): «**وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً**».

«أي اكظمْ الغيظ، ولا تظهره؛ بل اكتمْه في نفسِكَ إذ يوجب المحبَّة والأُلفةَ وعدمَ الانجرار إلى ما لا يحمد عقباه؛ وكذلك فإنَّه يسببُ لذَّةً نفسيَّةً وراحةً عقليَّةً».

« ومعنى المغبَّة: العاقبة»[1].

إنَّ عدمَ السَّيطرة على الغضِب بالحلم قد يجرُّ إلى ما لا يحمُد عقباه، وبالعكسِ فإنَّ مرارةَ ساعةِ حلم قد تورث حلاوةَ دهر كامل.

ونستطيع تشبيه كظم الغيض وآثاره أنَّه شبيه بالدَّواء المرِّ للمريض إلَّا إنَّه يلتذُّ به؛ لما سيحصل عليه من لذَّة الشِّفاء. ويعرَّف كظم الغيظ: «الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب في من يجنى عليه جناية يصلُ مكروهُها إليه»[2].

إنَّ الاستجابةَ للغضبِ هو استجابة لعدو يقوم بحجب العقلِ وضعف دوره، والحدِّ من سيطرتِهِ، ولذلك وصفَ الغضب بالجنون؛ والسُّكر تارةً أخرى؛ والخلاصة؛ من لم يصبر على كلمة سمعَ كلمات؛ عنْ أَبِي عبدالله (عليه السلام) «**مَا مِنْ عَبْدٍ كَظَمَ غَيْظًا إِلَّا زَادَهُ الله (عزّ وجلّ) عِزًّا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَقَدْ قَالَ الله (عزّ وجلّ) ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَأَثَابَهُ الله مَكَانَ غَيْظِهِ ذَلِكَ**»[3].

١- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج٣، ص١١٥؛ توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٨.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ص٥٢.
٣- الكافي: ج ٢، ص ١١٠.

وعنه عليه السلام: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ أَمْلأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاهُ**»(١)، وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أَحَبِّ السَّبِيلِ إِلَى اللهِ عز وجل جُرْعَتَانِ جُرْعَةُ غَيْظٍ تَرُدُّهَا بِحِلْمٍ، وَجُرْعَةُ مُصِيبَةٍ تَرُدُّهَا بِصَبْرٍ**»(٢).

الفرع الخامس: من آثار اللين

قال عليه السلام: «**وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَك، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ**».

المداراةُ خُلقٌ كريم يُثمر نتائجَ طيِّبة إذا وُضعت في موضعِها، من دون إفراط أو تفريط؛ ومن آثارِها تحويلُ غلظة الآخرينَ في القولِ والفعلِ إلى لينٍ ورحمة؛ إذ يُحدثُ اللينُ ردَّة فعل قويَّة لدى الطَّرف الآخر باتِّجاه إيجابي؛ قال الله عز وجل:

﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾(٣).

إنَّ الغلظةَ في حالةِ مواجهتها بالغلظةِ نفسها، فإنَّ ذلكَ يُفاقمُ المشكلةَ؛ وقد ثبت أنَّ مواجهةَ الغلظةِ بالحلم واللينِ تُحوِّل ذلك الخلقِ السَّيء إلى خير.

إنَّ اللينَ في مواجهةِ الغضبِ والتَّعصبِ والغلظةِ؛ بمثابةِ سكبِ الماءِ على النَّار، ونزولِ المطرِ على الجمر؛ ولو كان هذا الخلق متجذِّرًا؛ وخاصة في الأسرة؛ لرأينا أنَّ حالات الطَّلاق ستقل إلى أقل نسبة؛ فأغلب المشاكل بين الزَّوجينِ إنَّما تتفاقم بسبب عدم اتِّباع هذا الخلق؛ ولذلك من أفضل علاجات المشاكل الزَّوجيَّة السُّكوت والحلم واللين إلى أن يهدأَ الطَّرفُ الآخر، ويشعر بخطئه.

١- الكافي: ج ٢، ص ١١٠.
٢- م.ن.
٣- سورة فصلت/ الآيتان: ٣٤-٣٥.

اللين نوع من الإحسانِ للآخرينَ؛ ولذلك جُبلت القلوب على حبِّ من أحسن إليها؛ أمَّا الغلظة فإنَّها تبعد الآخرينَ، وتنفِّرُ القلوب سواء حصلت الغلظة بنظرة أو حديث أو سلوك؛ وكلُّ هذه الأنواع علاجها اللين.

الفرع السَّادس: أحلى الظفرين

قال عليه السلام: «**وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ**».

حينما تنشبُ معركة أو حرب بين طرفينِ؛ فإنَّ انتصارَ أحدهما يجعلُه يحصلُ على ظفرينِ هما؛ ظفر القصاص والانتقام، وظفر العفو والإحسان؛ والإمامُ عليه السلام يوصي بالخيار الثَّاني؛ أي التَّفضُّل عليه والعفو عنه ضمنَ حدودٍ معيَّنة؛ لا مطلقًا؛ وهذا من شأنِه أن يحقِّقَ مجموعة من الفوائد:

١. إنَّ العفوَ يضاعفُ الحسناتِ، ويمحو السَّيئات.

٢. إنَّ إبرازَ المودَّة، والتَّفضل على العدو بعد النَّصر ممَّا يبعدُ نيَّة الانتقام من طرف العدو؛ لو تمكَّن في المستقبلِ من ذلكَ؛ أمَّا إذا كان القصاصُ هو الخيار فلا تؤمن عداوتَه؛ وإذا تمكَّن فإنَّ أوَّل شيءٍ يفكِّر به الظَّفر ممن اقتصَ منه.

٣. الفضلُ والإحسانُ من أسبابِ كسب القلوبِ وإقبالها نحو المحسن؛ إذ إنَّ هذا العمل يورث رفعةَ الإنسانِ حتَّى في نظرِ عدوِّه، ممَّا يسبِّب ارتياحًا في المتفضِّل نفسه.

٤. العفو والتَّفضل على العدوِّ من الأمور التي تُعدُّ من وسائل الإعلام التي تسهم في نقل الصفات الطيِّبة ورفع الغموض عن الصورة الحقيقيَّة للمبادئ.

المطلب الرَّابع: من أحكام الإخوَّة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْمًا مَا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّه**»(١).

صرَّحَ القرآنُ الكريمُ أنَّ الإخوةَ في الله سبحانه وتعالى نعمةٌ إلهيَّةٌ، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾(٢). ومن دلائلِ أهميَّتِها أنَّ اللهَ جلّ جلاله جعلَ لها الأجرَ العظيمَ، وهي عبادة نتقرَّبُ بها إليه عزّ وجلّ، وقد تكونُ سببًا من أسبابِ دخولِ الجنَّة، والإخوة لها حقوق وواجبات وآداب، وقد أشارَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام في هذا النَّصِّ إلى جملةٍ منها:

الفرع الأوَّل: علاج القطيعة

قال عليه السلام: «**وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْمًا مَّا**».

القطيعةُ بينَ الإخوانِ من الأخلاقِ التي ذمَّها وحاربَها الإسلامُ إلَّا في مجالات محدَّدة؛ لأنَّها تدعو إلى كثير من الآفاتِ؛ مثل سوء الظَّنِّ، والتَّشكيكِ بنوايا الطَّرفِ الآخر، والعداوةِ، وأحيانًا تجرُّ إلى الغيبةِ، والبهتانِ خاصَّة إذا لم يحملْهُ على محامل عدَّة.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٣.
٢- سورة آل عمران/ الآية: ١٠٣.

قـدْ تتعـرَّضُ العلاقـةُ للهجـرانِ أو القطيعـةِ لأسـباب متعـدِّدة، فيتَّخـذ الشَّـخصُ قـرارًا بعدمِ التَّواصل مع الآخر، وفي هـذا السياق، يقف الإمام عليه السلام ليضـع حـدًا ونـورًا يسـير بـه بعلـم ومعرفـةٍ وحكمـةٍ؛ ضمـنَ ثـلاث نقـاط:

النُّقطة الأولى: التَّفكير والتَّدبر والتَّأمل قبلَ اتِّخاذ القرار

إنَّ التَّفكيَر في العواقب يقي مـن النَّـدمِ، وإذا أرادَ الإنسـانُ أن يتأمَّـلَ في كلِّ فعـل قبـلَ أن يقـدمَ عليـه، مـن خـلال تقييـم الجوانـب الإيجابيَّـة والسـلبيَّة لـه، ثـمَّ المضي فيـهِ بعـدَ ذلـكَ، فإنَّـه يسـتطيع الوصـول إلى القمَّـة في مجـال السـلوك الإنسـانيِّ الـذي يعـود عليـه بالخير في الدُّنيـا والآخـرة.

النُّقطة الثَّانية: حافظ على الصِّلة

إنَّ اختيـار الشـخص للإخـوة ليـس عشـوائيًا، بـل يجـب أن تتوافـر فيـه صفـات وفضائـل وأخـلاق ومزايـا معيَّنـة؛ وقطيعـةُ مثـل هـذا الشَّـخص قطيعـة تامَّـة ليـس أمـرًا ممدوحًـا؛ بـل لابـدَّ مـن التَّفكـير في صفاتـه الطيِّبـة، والمواقـف التـي بينكـما، وأحيانًـا الاشـتراك في كثـير مـن المواقـف والمجـالات التـي كنـتَ فيهـا تعيـشُ ظرفًـا صعبًـا، وكلُّ هـذا يفـرض علينـا أن لا تكـون القطيعـة تامَّـة؛ بـل لابـدَّ مـن فتـحِ المجـالِ، وإبقـاء بقيـة في الحسبـانِ حتَّـى إذا رجـعَ تلتئـمُ كلُّ الفواصـل والشُّقوق، بـل قـد ترجـعُ العلاقـةُ أوثـق وأقـوى مـن ذي قبـل؛ خاصَّـة إذا كانَ الطَّرفـانِ يتسـامانِ بالتَّواضـع، ويحسـنانِ الظَّـنَّ ببعضهِـما؛ « فـإنَّ الرُّجـوعَ بعـدَ القطيعـةِ التَّامَّـة أشـكل مـن الرُّجـوع إذا بقـي بعـضُ الصِّلـة»[(١)].

١- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٩.

ومن أخطر القضايا التي تدمِّر البقيَّةَ الباقيةَ من الصِّفاتِ المحمودة للأخ في داخلِ النَّفسِ هو الوقيعةُ فيهِ والنَّيلُ منه وكَيْلُ التُّهم، وبيانُ العيوبِ؛ بخلافِ إذا اختارَ مبدأَ الصَّمت وترك الوقيعةَ فيهِ، فإنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى العودةِ في الأيَّام القادمةِ وندمِهِ على ما فات.

والخلاصة أنَّ كلا الطَّرفين قد فازا، ونالا رضا الله سبحانه وتعالى، ولعلَّ كل واحد منَّا قد شهد خلافًا بين أخوينِ، وكان في نفسهِ يأملُ أن يصمتَ الطَّرفانِ ويبتعدا عن كشفِ الأسرارِ، حتَّى لا تتفاقم المشكلةُ وتزدادُ تعقيدًا؛ لكن المؤسف أن يتمَّ كشف الأسرار وإفشاء المستور، ممَّا يؤدِّي في النِّهاية إلى الوصولِ إلى طرق مسدودة.

عَنْ أَبي عَبْدِ الله عليه السلام: **«مَنْ رَوَى عَلَى مُؤْمِنٍ رِوَايَةً يُرِيدُ بِهَا شَيْنَهُ وَهَدْمَ مُرُوءَتِهِ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ؛ أَخْرَجَهُ الله مِنْ وَلايَتِهِ إِلَى وَلايَةِ الشَّيْطَانِ فَلا يَقْبَلُهُ الشَّيْطَانُ»**[١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِيمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: **«عَوْرَةُ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَامٌ، قَالَ مَا هُوَ أَنْ يَنْكَشِفَ فَتَرَى مِنْهُ شَيْئًا إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَرْوِيَ عَلَيْهِ أَوْ تَعِيبَهُ»**[٢].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: **«إِذَا اتَّهَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ انْمَاثَ الإِيمَانُ مِنْ قَلْبِهِ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»**[٣].

١- الكافي: ج٢، ص ٣٥٨.
٢- م.ن: ص ٣٥٩.
٣- م.ن: ص ٣٦١.

الفرع الثَّاني: تصديق الظَّن

قال عليه السلام: **«وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ»**.

من القضايا التي تدعو إلى نشرِ الفضيلةِ وإشاعتها أن يكونَ الإنسانُ عندَ حسنِ ظنِّ النَّاسِ، والقصدُ من ذلكَ أنَّ النَّاس إذا كانت تظنُّ بكَ من أهلِ الجودِ والعطاءِ، أو من أهلِ العلم والمعرفةِ، أو من أهلِ الصَّلاحِ والفلاحِ فصدِّق ظنَّهم، وحوِّل ذلكَ الظَّنَّ إلى تجسيد عمليٍّ يظهرُ أمامهم بالمواظبةِ على ذلكَ الخُلُقِ، أو تلكَ الفضيلةِ، وهذه القاعدةُ من أسسِ الإعدادِ التربويّ للأفراد، فكثيرٌ من النَّاس يدفعُهم حُسنُ الظَّنِّ إلى الالتزام بنوع ذلكَ العمل وذلك السُّلوك، وبمعنى آخر: من فوائدِ حُسنِ ظنِّ النَّاس بالآخرينَ أنَّه يدعو إلى سلوك طريقِ الخيرِ والصَّلاح؛ لذلك ينبغي الاهتمامُ بتصديقِ ظنِّهم وعدم معارضتهم في قناعاتهم، وإلَّا تحول ذلك الحسن إلى قبح وسوء، وكما نطبِّق هذه القاعدة في الجانب الإيجابيّ، يجب أن نفعِّلها أيضًا في الجانب السَّلبي؛ فمن ظنَّ بك شرًّا فادفعْ ظنَّه بعمل الخير.

إنَّ حُسن ظنِّ الناس يشبه دعوة مستمرَّة إلى الخير؛ ولكنَّه يأتي في إطار لا يُرفض؛ لأنَّه يجسِّد أجملَ الصِّفات التي اتفقَ عليها النَّاسُ، فلا يوجد شخص لا يحب أن يُنعتَ بالصِّفاتِ الطَّيبة، وتكرار حسن الظَّنِّ بنفسه دافع نحو الفضائل، حتَّى وإن تأخَّر ذلك ولو بعد حين؛ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي كَلامٍ لَهُ: ضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ مَا يَغْلِبُكَ مِنْهُ، وَلا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخير مَحْمِلا**»[1].

١ - الكافي: ج٢، ص ٣٦٢.

الفرع الثَّالث: تضييع الحقوق

قال عليه السلام: «**وَلاَ تُضيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّه**».

كلُّ العلاقات التي توجدُ بينَ الخالقِ والمخلوقِ أو بينَ المخلوقينَ تقومُ على مجموعة من الحقوقِ المتبادلةِ بينَ الطَّرفينِ، حتَّى يبقى مبدأُ الإخوة قائماً، ولا يخرج الشَّخصُ عن حدودِ التَّكليفِ والواجب الشَّرعي، ولتعزيز أواصر المحبَّة بينَ الإخوة.

لكن مشكلة بعض الناس تكمنُ في ضياع بعضِ الحقوقِ أو إهمالِها، متكئينَ على العلاقةِ القويَّة التي تربطُهم بإخوتهم، فيظنُّونَ أنَّه لا حاجة لتأدية الحقوق ما دام بينهما صلة صداقة، وهذا خطأ وتضييع للحقوق وخروج عن مبدأ الإخوة.

فلا يكون لك أخًا من ضيَّع حقوقك؛ لأنَّ إضاعةَ الحقوقِ تؤدِّي إلى قطيعةِ الصِّلةِ وإضعافِ روابط الإخوة، مما يسبِّب في النهاية الخسارة؛ ومن خلال هذا الارشاد يجدر الإشارة إلى نقاط عدَّة:

١. تضييعُ الحقوقِ في العلاقاتِ الاجتماعيَّة أوَّلُ خطواتِ قطعِ الصِّلة.

٢. لا نستطيع أن نطلقَ مفهومَ الإخوة إلَّا بعد أن ندركَ، ونطبِّقَ، ونفعِّل الحقوق المترتبة على الجانبين، وعلى ضوء ذلك نستعرض بعض روايات المعصومين في هذا المجال:

عنْ أبي عَبْدِ الله عليه السلام: «**... إِنَّ مِنْ أَشَدِّ مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ ثَلَاثًا إِنْصَافَ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى لَا يَرْضَى لِأَخِيهِ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا بِمَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مِنْهُ، وَمُوَاسَاةَ الْأَخِ فِي الْمَالِ، وَذِكْرَ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلَكِنْ عِنْدَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ فَيَدَعُهُ**»[١].

١- الكافي: ج٢، ص ١٧٠.

وعَـنْ أَبِي عَبْـدِ اللهِ عليه السلام: «**لِلْمُسْـلِمِ عَـلَى أَخِيـهِ الْمُسْـلِمِ مِـنَ الحَـقِّ أَنْ يُسَـلِّمَ عَلَيْـهِ إِذَا لَقِيَـهُ، وَيَعُـودَهُ إِذَا مَـرِضَ، وَيَنْصَـحَ لَـهُ إِذَا غَـابَ، وَ يُسَـمِّتَهُ إِذَا عَطَـسَ، وَيُجِيبَـهُ إِذَا دَعَـاهُ، وَيَتْبَعَـهُ إِذَا مَـاتَ**»[١].

وعَـنْ أَبَـانِ بْـنِ تَغْلـبَ[٢] قَـالَ: كُنْـتُ أَطُـوفُ مَـعَ أَبِي عَبْـدِ اللهِ عليه السلام، فَعَـرَضَ لِي رَجُـلٌ مِـنْ أَصْحَابِنَـا كَانَ سَـأَلَنِي الذَّهَـابَ مَعَـهُ فِي حَاجَـةٍ فَأَشَـارَ إِلَيَّ، فَكَرِهْـتُ أَنْ أَدَعَ أَبَـا عَبْـدِ اللهِ عليه السلام وَأَذْهَـبَ إِلَيْـهِ فَبَيْنَـا أَنَـا أَطُـوفُ إِذْ أَشَـارَ إِلَيَّ أَيْضًـا، فَـرَآهُ أَبُـو عَبْـدِ اللهِ عليه السلام؛ فَقَـالَ: **يَـا أَبَـانُ إِيَّـاكَ يُرِيـدُ هَـذَا.**

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: **فَمَنْ هُوَ؟**

قُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا.

قَالَ: **هُوَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟**

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: **فَاذْهَبْ إِلَيْه.**

قُلْتُ: فَأَقْطَعُ الطَّوَافَ؟

قَالَ: **نَعَمْ.**

قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ طَوَافَ الْفَرِيضَةِ؟

قَالَ: **نَعَمْ.**

١- الكافي: ج ٢، ص ١٧١.

٢- قال النجاشي: «أبان بن تغلب بن رباح (رياح) أبو سعيد البكري الجريري، مولى بني جرير بن عبادة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكاشة بن صعب بن صعب بن علي بن بكر بن وائل: عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي علي بن الحسين، وأبا جعفر، وأبا عبد الله عليه السلام وروى عنهم، وكانت له عندهم منزلة وقدم. وذكره البلاذري، قال: روى أبان عن عطيَّة العوفي، قال له أبو جعفر عليه السلام: اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحبُّ أن يرى في شيعتي مثلك. وقال أبو عبد الله عليه السلام – لما أتاه نعيه –: أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان. وكان قارئًا من وجوه القراء، فقيهًا لغويًّا سمع من العرب وحكى عنهم». معجم رجال الحديث: ج ١، ص١٣١.

قَالَ: فَذَهَبْتُ مَعَهُ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْدُ فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ حَقِّ المُؤْمِنِ عَلَى المُؤْمِنِ، فَقَالَ: **يَا أَبَانُ دَعْهُ لَا تَرِدْهُ.**

قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ فَلَمْ أَزَلْ أُرَدِّدُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: **يَا أَبَانُ تُقَاسِمُهُ شَطْرَ مَالِكَ،** ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَرَأَى مَا دَخَلَنِي؛ فَقَالَ: **يَا أَبَانُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ المُؤْثِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.**

قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَقَالَ: **أَمَّا إِذَا أَنْتَ قَاسَمْتَهُ فَلَمْ تُؤْثِرْهُ بَعْدُ؛ إِنَّمَا أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؛ إِنَّمَا تُؤْثِرُهُ إِذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَهُ مِنَ النِّصْفِ الآخَرِ**»[1].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ[2] قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَدَخَلَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ: كَيْفَ مَنْ خَلَّفْتَ مِنْ إِخْوَانِكَ؟

قَالَ: فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ وَزَكَّى وَأَطْرَى، فَقَالَ: **لَهُ كَيْفَ عِيَادَةُ أَغْنِيَائِهِمْ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،** فَقَالَ: قَلِيلَةٌ.

قَالَ: **وَكَيْفَ مُشَاهَدَةُ أَغْنِيَائِهِمْ لِفُقَرَائِهِمْ؟**

قَالَ: قَلِيلَةٌ.

قَالَ: **فَكَيْفَ صِلَةُ أَغْنِيَائِهِمْ لِفُقَرَائِهِمْ فِي ذَاتِ أَيْدِيهِمْ،** فَقَالَ: **إِنَّكَ لَتَذْكُرُ أَخْلَاقًا قَلَّ مَا هِيَ فِيمَنْ عِنْدَنَا.**

قَالَ: **فَقَالَ فَكَيْفَ تَزْعُمُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ شِيعَةٌ**»[3].

١- الكافي: ج ٢، ص ١٧٢.

٢- «وقع بهذا العنوان في إسناد جملة من الروايات، تبلغ خمسة عشر موردًا؛ فقد روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. وروى عنه ابن فضال، وعبد الله بن سنان، وعثمان بن عيسى، ومحمَّد بن سنان.أقول: هذا متَّحد مع أحد من يأتي: محمَّد بن عجلان: من أصحاب الباقر عليه السلام... أو محمَّد بن عجلان المدني:عدَّه الشيخ في رجاله من أصحاب الباقر عليه السلام... أو محمَّد بن عجلان مولى بني هلال: الكوفيّ: من أصحاب الصَّادق عليه السلام...». معجم رجال الحديث: ج١٧، ص٣٠٠.

٣- الكافي: ج٢، ص١٧٣.

المطلب الخامس: عوامل تُفككُ الروابطَ الاجتماعيَّة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَلاَ يكُن أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ فِيكَ، وَلاَ يَكُونن أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِه، وَلاَ تكُونَّن عَلى الْإِسَاءَةِ أَقْوى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَلاَ يَكْبرنَّ عَلَيْك ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِك، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ»[١].

كلُّ مجالٍ نتأمَّلُ فيه في هذا الكون نجده قد نُظِّمَ بتكاليف وأحكام وسنن من شأنِها أن تحافظَ على مسيرتهِ التي تنتهي إلى غاية معلومة.

وحينما نفكِّر في بعضِ مجالات الحياةِ نجدُ أنَّ المجالَ الذي يستوعبُ لحركةِ الإنسانِ أكثر يُحاطُ بمعارف وعلوم قد لا نجدها في حيِّز آخر، وبعبارة أوضح؛ إنَّ كثرةَ الحركة وكثرةَ العلاقات تفرضُ على الإنسانِ أن ينظِّمَها ضمنَ إطار خاص مستمد من جهة معصومة، لكي يصل إلى غايته، والعلاقاتُ الاجتماعيَّة من أكثر البرامج والأفعال والأعمال التي يعيشُ فيها الفردُ؛ فهو طوال يومِهِ يتنقَّلُ بين هذه الدَّوائر الاجتماعيَّة، ممَّا يفرضُ على الإنسانِ أن يتعلَّمَ ما يتعلَّق بكلِّ هذه المجالات؛ وإلَّا، إذا تصَّرفَ خارجَ الأُطرِ والتَّكاليف المرسومة له، فقد يصيبُهُ الضَّررُ في الدُّنيا أو يتسبَّب في ضرر للآخرين؛ إضافةً الى تبعاتِ الآخرة؛ لذلكَ سنحاولُ في هذهِ الكلمةِ أن نمسكَ بمفاتيح العلاقاتِ الاجتماعيَّة النَّاجحة، ولنتأمَّل فيها تباعًا كما ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٤.

الفرع الأوَّل: جوهر العلاقة مع الأهل

قال عليه السلام: «**وَلاَ يكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ**».

«أهلُ الرَّجل من يجمعُه، وإيَّاهم نسب، أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد، فأهلُ الرَّجلِ في الأصلِ من يجمعُه وإيَّاهم مسكن واحد، ثمَّ تجوَّز به فقيل: أهل بيت الرَّجل لمن يجمعه وإيَّاهم النَّسب، وعُبِّر بأهل الرَّجل عن إمرأته»(١).

أمَّا الشَّقي فهو «ضدُّ السَّعيد، وشقى يشقى فهو شقيٌّ»(٢).

الأسرةُ هي النَّواة الأولى للمجتمع فإن صلحَت صلحَ المجتمعُ، وإن فسدت فسد المجتمع، وبناءُ الأسرةِ يتوقَّفُ على إعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه والتَّعاملِ بأخلاق طيِّبة، وإذا حصلَ ذلكَ تحوَّل البيتُ إلى بقعة لا يخرج منها إلَّا العمل والسُّلوك الصَّالح؛ ولذلكَ أصبحَ خيرُ النَّاس هو خيرُهم لأهلِه؛ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي**»(٣).

وللأب التَّأثير الأكبر على الأسرة، وسلوكه يحدِّد مدى الصَّلاح والفساد اللذينِ يصل إليهما أفراد الأسرة؛ فإمَّا أن تصلَ إلى نعيم بفعلِ الأخلاق الطَّيِّبة، وإمَّا أن يتحوَّلَ البيتُ إلى جحيم بفعلِ العنفِ والأخلاقِ السَّيئة.

«والعاملُ الأساسيُّ في جعلِ الأهلِ أشقى النَّاسِ بالأبِ أو ربِّ الأسرةِ هو تضييعُه وحرمانُه من حقوقِهم، وإعطاءُ حقوقِ الآخرينَ خارج إطارِ الأهلِ؛ اتِّكالًا على أنَّهم أهلُه، ولا يهم أمرهم؛ وإنَّما المهمُّ أمر الأجانب...»(٤).

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص٩٦.
٢- مجمع البحرين: ص ٧٠٢.
٣- مكارم الأخلاق: ص ٢١٦.
٤- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٩.

والفرقُ بين شقاءِ النَّاسِ وشقاءِ الأهلِ؛ أنَّ أذيَّةَ الأهلِ وشقاؤهم أكثر من شقاءِ النَّاسِ؛ لأنَّه أقربُ إليهم وأكثرُ ملازمة لديهم، ونستطيع أن نذكرَ بعضَ المصادق التي تورثُ الشَّقاءَ:

١. تضييعُ حقوقِ الأهل.

٢. سوءُ الخلق.

٣. قطيعةُ الرَّحم.

٤. عدمُ الاهتمام بالأهل، وتفضيلُ الآخرينَ عليهم.

٥. قضاءُ أغلب الوقتِ مع الأصدقاءِ خارج البيت، وحرمانهم من وقتِه.

إنَّ التَّقصير في حق الأسرةِ له عواقب وخيمة؛ سواء في الأسرةِ والأهل أنفسِهم، أو من باب النَّتائج في قضايا تتعلَّق بسعي الإنسان؛ ولذلك يعبِّر بعضُ أهل الدِّين أنَّ أفضلَ هديَّة يهديها الأبُ لعيالِه وأهلِه أن يخلقَ البسمةَ على وجوهِهم، وإذا لم يتمكَّنْ فعلَ ذلكَ أو أن يكونَ مصدرًا للسعادة؛ فالأولى ألَّا يكونَ وسيلة للشقاءِ، وممَّا يؤسف له أنَّ كثيرًا حينما يكونُ خارجَ البيتِ يضحكُ، ويفرحُ، وينشرُ السَّعادة؛ لكن إذا دخل دارَه أقفلَ كلَّ ذلك، وبدأ بنشر التَّعاسة والشَّقاء، في حين أنَّ المرأة نعمة من الله سبحانه وتعالى؛ عن الإمام زين العابدينَ عليه السلام: «**وأمَّا حَقُّ الزَّوجَةِ فأن تعلَمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعَلَها لكَ سَكَنًا وأُنْسًا، فَتَعلَمَ أنَّ ذلكَ نِعمَةٌ مِنَ اللهِ عليكَ فَتُكرِمَها وتَرفُقَ بها، وإن كانَ حَقُّكَ عليها أوجَبَ، فإنَّ لَها عليكَ أن تَرحَمَها**»[1].

١- من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص ٦٢١.

وعن الإمامُ الصَّادقُ عليه السلام: «إنَّ المَرءَ يَحتاجُ في مَنزلِه وعِيالِه إلى ثلاثِ خِلالٍ يَتَكَلَّفُها وإن لَم يَكُن في طَبعِهِ ذلكَ: مُعاشَرَةٍ جَميلةٍ، وسَعَةٍ بِتَقدِيرٍ، وغَيرَةٍ بتَحَصُّنٍ»(١).

وعنه عليه السلام: «لا غِنى بالزَّوجِ عن ثلاثةِ أشياءَ فيما بَينَهُ وبينَ زَوجَتِهِ وهِيَ: المُوافَقَةُ لِيَجتَلِبَ بها مُوافَقَتَها ومَحَبَّتَها وهَواها، وحُسنُ خُلُقِهِ مَعها، واستِعمالُهُ استمالَةَ قَلبِها بالهَيئَةِ الحَسَنَةِ في عَينِها وتَوسِعَتِهِ عليها»(٢).

وعن إسحاقِ بنِ عمَّارٍ(٣): «قلتُ لأبي عبدِ اللهِ عليه السلام: ما حَقُّ المرأةِ على زَوجِها الذي إذا فَعَلَهُ كانَ مُحسِنًا؟ قالَ: يُشبِعُها ويَكسُوها، وإن جَهِلَت غَفَرَ لَها»(٤).

وعن الحسنِ بنِ جَهمٍ(٥): «رأيتُ أبا الحسنِ عليه السلام اختَضَبَ، فقلتُ: جُعِلتُ فِداكَ، اختَضَبتَ؟ فقالَ: نَعَم، إنَّ التَّهيئَةَ مِمَّا يَزيدُ في عِفَّةِ النِّساءِ، ولَقد تَرَكَ النِّساءُ العِفَّةَ بِتَركِ أزواجِهِنَّ التَّهيئَةَ، ثُمَّ قالَ: أيَسُرُّكَ أن تَراها على ما تَراكَ عليهِ إذا كُنتَ على غَيرِ تَهيِئَةٍ؟ قلتُ: لا، قالَ: فهُوَ ذاكَ»(٦).

وعَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا حَقُّ ابْنِي هَذَا قَالَ تُحْسِنُ اسْمَهُ وَأَدَبَهُ وَضَعْهُ مَوْضِعًا حَسَنًا»(٧).

١- تحف العقول: ص ٣٢٢.
٢- م.ن: ص٣٢٣.
٣- قال النجاشي: إسحاق بن عمار بن حيان، مولى بنى تغلب، أبو يعقوب الصيرفي، شيخ من أصحابنا، ثقة، وإخوته يونس، ويوسف، وقيس، وإسماعيل، وهو في بيت كبير من الشيعة، وابنا أخيه، علي بن إسماعيل، وبشير بن إسماعيل، كانا من وجوه من روى الحديث. معجم رجال الحديث: ج٣، ص٢٢٢.
٤- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٢٠، ص٣٢٤.
٥- قال النجاشي: الحسن بن الجهم بن بكير بن أعين، أبو محمد الشيباني، ثقة، روى عن أبي الحسن موسى والرضا عليهما السلام. معجم رجال الحديث: ج ٥، ص ٢٨٢.
٦- الكافي: ج ٥، ص ٥٦٧.
٧- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٢١، ص٨٤.

وعَنِ السَّكُونِيِّ[١] قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام وَأَنَا مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ، فَقَالَ لِي: يَا سَكُونِيُّ مِمَّا غَمُّكَ. قُلْتُ: وُلِدَتْ لِي ابْنَةٌ، فَقَالَ: يَا سَكُونِيُّ عَلَى الأَرْضِ ثِقْلُهَا وَعَلَى اللهِ رِزْقُهَا، تَعِيشُ فِي غَيْرِ أَجَلِكَ، وَتَأْكُلُ مِنْ غَيْرِ رِزْقِكَ فَسَرى وَاللهِ عَنِّي. فَقَالَ لِي: مَا سَمَّيْتَهَا. قُلْتُ: فَاطِمَةَ. قَالَ: آهِ آهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ فقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ إِذَا كَانَ ذَكَرًا أَنْ يَسْتَفْرِهَ[٢] أُمَّهُ وَيَسْتَحْسِنَ اسْمَهُ، وَيُعَلِّمَهُ كِتَابَ اللهِ، وَيُطَهِّرَهُ وَيُعَلِّمَهُ السِّبَاحَةَ، وَإِذَا كَانَتْ أُنْثَى أَنْ يَسْتَفْرِهَ أُمَّهَا وَيَسْتَحْسِنَ اسْمَهَا، وَيُعَلِّمَهَا سُورَةَ النُّورِ، وَلا يُعَلِّمَهَا سُورَةَ يُوسُفَ، وَلا يُنْزِلَهَا الْغُرَفَ وَيُعَجِّلَ سَرَاحَهَا إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَمَّا إِذَا سَمَّيْتَهَا فَاطِمَةَ؛ فَلا تَسُبَّهَا وَلا تَلْعَنْهَا وَلا تَضْرِبْهَا»[٣].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله أَبَى اللهُ عز وجل لِصَاحِبِ الْخُلُقِ السَّيِّئِ بِالتَّوْبَةِ قِيلَ وَكَيْفَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لأَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ فِي ذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْهُ»[٤].

وقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «أَوْحَى اللهُ عز وجل إِلَى بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ الْخُلُقُ السَّيِّئُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»[٥].

١- هو ابن أبي زياد السكوني الكوفي، من أصحاب الصادق عليه السلام. معجم رجال الحديث: ج ٤، ص ٩٨.
٢- يستفره في الموضعين أي يستكرم أمه، ينظر: القاموس المحيط: ج٤، ص٢٨٨.
٣- جامع أحاديث الشيعة (البروجردي): ج ٢٦، ص ٦٥٨.
٤- مكاتيب الأئمة عليهم السلام: ج ١، ص ٥٤٨.
٥- الكافي: ج ٢، ص ٣٢٢.

الفرع الثَّاني: تقدير النَّفس والعلاقات

قال عليه السلام: «**وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ فِيكَ**».

أي إذا استغنى عنكَ بعضُ الناس، فلا ترغب فيهم؛ فإنَّ ذلكَ يوجبُ الذِّلَّة والمنقصة؛ «فلا تطلب مودَّةَ من يكره محبَّتك؛ فإنَّه مذلَّة عليك»[1].

وهذا الصِّنف يختلفُ عن الأصنافِ المذكورةِ سابقًا في طريقةِ التَّعاملِ؛ إذ تناولنا في السَّابق أنَّ كلَّ نوع من الإخوان يرتبط بصفة معيَّنة أو فعل محدد اتِّجاهَ أخيه.

إنَّ قمَّة الذُّلِّ أن ترغبَ فيمن زهدَ فيكَ وأعرضَ عنك، حتَّى لو كان يملكُ من الدُّنيا ما يملكُ، ومن التَّجارب المتكرِّرة أنَّ الرَّغبةَ في هذا الصِّنف لا يحقِّق إلَّا الإنكار والاستحقار والتَّوهين والإذلال، وقد يُطرحُ سؤال: ما الفرقُ بين هذا الصِّنف والأصناف الأخرى التي ذُكرت سابقًا؟

الجواب: إنَّ احتفاظَ الإنسان بعلاقتهِ مع مَنْ قطعه؛ إنَّما تصحُّ إذا وقفَ موقفًا إيجابيًّا، وأمَّا إذا تعاملَ من موقفِ الإذلال والإهانة والتَّنقيص فلا ينبغي للإنسان أن يذلَّ نفسَه؛ بل عليه أن يغضَّ النَّظر عنه ويتركه؛ فإنَّ الزُّهدَ في هذا المتكبِّر المتعالي هو الأفضلُ لحالِهِ، وأحسنُ علاج لغرورِهِ.

الفرع ثالثًا: توفير أسباب الصِّلة

قال عليه السلام: «**وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ تكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ**».

مواجهةُ الصِّفات السَّيئة بالصِّفات الحسنة من أهمِّ السُّبلِ في دفعِ آثارِها

١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (الراوندي): ج٣، ص١١٥.

وتغييرها نحو الأفضل؛ فمن أتى بأسباب القطيعة فالواجبُ أن نقابلَه بأسبابِ الصِّلة؛ حتَّى تتبدَّلَ القطيعةُ بالصِّلة.

وهنا تنبيه على أهميَّة الصِّلة والتَّواصل؛ خاصَّة مع مَنْ قطعَها من الإخوانِ، وأن نكونَ في توفيرِ أسبابِ الصِّلة أقوى ممن يمتلكُ أسبابَ القطيعة.

فلو قصَّر أحدُ الإخوان، وأرادَ القطيعةَ عبر اتِّخاذِ موقف، أو القيام بعمل من شأنِهِ أن يقطعَ العلاقةَ فلا تجعله أقوى منك؛ بل عليك أن تبادرَ، وأن تكونَ المنتصر في هذهِ المعركة من خلالِ صلةٍ ومقابلة ذلك التَّقصير بأداءِ المفروض أداؤه. والأمرُ الآخر الضروريُّ الذي ينبغي فعله، «**وَلاَ تكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ**» بأن تسرعَ إلى الإساءة، وتبطأ عن الإحسان.

قَالَ الْمُفَضَّلُ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «لا يَفْتَرِقُ رَجُلانِ عَلَى الهِجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبَرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلاهُمَا.

فَقَالَ لَهُ مُعَتِّبٌ: جَعَلَنِيَ الله فِدَاكَ هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُوم. قَالَ: لأَنَّهُ لا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِهِ وَلا يَتَغَامَسُ لَهُ عَنْ كَلامِهِ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِذَا تَنَازَعَ اثْنَانِ فَعَازَّ أَحَدُهُمَا الآخَرَ فَلْيَرْجِعِ الْمَظْلُومُ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقُولَ لِصَاحِبِهِ: أَيْ أَخِي أَنَا الظَّالِمُ حَتَّى يَقْطَعَ الهِجْرَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ؛ فَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ يَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ»[(١)].

إنَّ مواجهةَ الإساءةِ بالإحسانِ من الأخلاقِ الرَّفيعةِ التي تدلُّ على إيمانٍ وحُسن خُلقِ صاحبِهِ ورجاحةِ عقلِهِ؛ إذ لهذا الخلق أثر تربويٌّ مهم يتمركز في ردع الطَّرفِ المقابل؛ ولكن بصورة تربويَّة من شأنِها أن تغيِّر

١- الكافي: ج٢، ص ٣٤٤.

الطَّرفَ المقابلَ، أو تؤثّر فيه أشدَّ التَّأثير؛ فإنَّ مقابلةَ السَّيئةِ بالحسنة تُقلِّلُ من تأثيرِ الشَّرِّ في داخلِ النَّفس، وتطفأُ نارَ الحقد، وتزيلُ غمامةَ كيدِ الشَّيطان عن عقلِ المسيء؛ فينتبهُ إلى سوءِ فعلِه، ويندمُ على ذلكَ.

وهذا ينطبقُ أيضًا على مَنْ يتأثَّر بذلكَ، أمَّا إذا زادَ غرورُه وإساءتُه، فذلكَ يكونُ في غيرِ محلِّه والتَّرك أولى وأفضل في هذا الموضع؛ حتَّى لا نحصل على أضرار إضافة إلى الأضرار التي كانت ملازمةً لذلكَ الفعل؛ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ الرِّضَا عليه السلام فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَتَى وَاحِدٌ مِنْهُمُ الثَّلَاثَةَ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ فِي مُنَاظَرَةٍ بَيْنَهُمْ، فَقَرَعَ الْبَابَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ فَقَالَ: أَيْنَ مَوْلَاكَ. فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ فِي الْبَيْتِ فَرَجَعَ الرَّجُلُ وَدَخَلَ الْغُلَامُ إِلَى مَوْلَاهُ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ كَانَ الَّذِي قَرَعَ الْبَابَ. قَالَ: كَانَ فُلَانٌ فَقُلْتُ لَهُ: لَسْتَ فِي الْمَنْزِلِ، فَسَكَتَ وَلَمْ يَكْتَرِثْ وَلَمْ يَلُمْ غُلَامَهُ وَلَا اغْتَمَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِرُجُوعِهِ عَنِ الْبَابِ وَأَقْبَلُوا فِي حَدِيثِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَكَّرَ إِلَيْهِمُ الرَّجُلُ فَأَصَابَهُمْ وَقَدْ خَرَجُوا يُرِيدُونَ ضَيْعَةً لِبَعْضِهِمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَنَا مَعَكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: نَعَمْ وَلَمْ يَعْتَذِرُوا إِلَيْهِ وَكَانَ الرَّجُلُ مُحْتَاجًا ضَعِيفَ الْحَالِ فَلَمَّا كَانُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذَا غَمَامَةٌ قَدْ أَظَلَّتْهُمْ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَطَرٌ فَبَادَرُوا فَلَمَّا اسْتَوَتِ الْغَمَامَةُ عَلَى رُءُوسِهِمْ إِذَا مُنَادٍ يُنَادِي مِنْ جَوْفِ الْغَمَامَةِ: أَيَّتُهَا النَّارُ خُذِيهِمْ وَأَنَا جَبْرَئِيلُ رَسُولُ اللهِ فَإِذَا نَارٌ مِنْ جَوْفِ الْغَمَامَةِ قَدِ اخْتَطَفَتِ الثَّلَاثَةَ النَّفَرِ وَبَقِيَ الرَّجُلُ مَرْعُوبًا يَعْجَبُ مِمَّا نَزَلَ بِالْقَوْمِ وَلَا يَدْرِي مَا السَّبَبُ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَقِيَ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ عليه السلام

فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ وَمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ، فَقَالَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ عليه السلام: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ سَخِطَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَنْهُمْ رَاضِيًا؛ وَذَلِكَ بِفِعْلِهِمْ بِكَ، فَقَالَ: وَمَا فِعْلُهُمْ بِي فَحَدَّثَهُ يُوشَعُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَأَنَا أَجْعَلُهُمْ فِي حِلٍّ وَأَعْفُو عَنْهُمْ. قَالَ: لَوْ كَانَ هَذَا قَبْلُ لَنَفَعَهُمْ، فَأَمَّا السَّاعَةَ فَلا وَعَسَى أَنْ يَنْفَعَهُمْ مِنْ بَعْدُ»[١].

الفرع الرَّابع: عاقبة الظُّلم

قال عليه السلام: «**وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِك، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ**».

الظُّلمُ عندَ أهلِ اللغة: ويقال «الظُّلم ... في مجاوزة الحقِّ الذي يجرى مجرى نقطة الدَّائرة، ويقالُ فيما يكثر، وفيما يقل من التَّجاوز؛ ولذا يستعملُ في الذَّنب الكبيرِ وفي الذَّنبِ الصَّغير...»[٢].

ويقسم على ثلاثةِ أقسام:

١. ظلم بينَ الله سبحانه وتعالى والعبد.

٢. ظلم بينَ العبدِ وبين النَّاس.

٣. ظلم بينَ العبدِ ونفسِهِ.

والمقصود في هذه الفقرة هو الظُّلم الذي يحدثُ بينَ العبادِ، وهو يتفاوتُ في درجاتِهِ، وفي بعضِها يُعدُّ من الكبائر التي تدخلُ صاحبَها نارَ جهنم.

إنَّ ظلمَ العبادِ بعضهم لبعض يجعلُ الإنسانَ أمام طريقينِ:

١- الكافي: ج ٢، ص ٣٦٥.

٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٤٤.

الطَّريق الأوَّل: يستطيعُ مواجهَةَ ذلكَ الظُّلمِ، ولو بمرتبة من مراتب الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ضمنَ الشُّروط الموجودةِ في هذا البابِ؛ وهنا يجب المواجهةُ ودفعُ الظُّلم؛ لأنَّ السكوتَ يدفعُ صاحبَه إلى إشاعةِ الظُّلم شيئًا فشيئًا؛ قالَ الأميرُ عليه السلام في إحدى وصاياه: «**وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا**»[1].

الطَّريق الثَّاني: لا يمتلك القدرةَ على ردعِ الظُّلمِ بأيِّ مرتبة؛ فهنا ينبغي أن لا يدخل اليأسُ إلى قلبِهِ، وتكبر صنيعته عليه، وتؤثِّر على دورِه في هذهِ الحياةِ؛ فالصُّورةُ والأمرُ غير ما يظن؛ فإنَّ الظَّالمَ يعذِّبُ نفسَه، ويضر بها، ويسعى برجلِهِ الى نار جهنم، وفي نفسِ الوقتِ ما دمت غير قادرٍ على رفعِ الظُّلم عنك؛ فإنَّ هذا يجلبُ لكَ عظيمَ الثَّوابِ في الآخرة؛ فقد وعد الله جل جلاله الصَّابرين أن يثيبَهم على صبرِهم، وتعويضهم على ذلكَ الظُّلمِ بالجنَّةِ والرِّضوان.

ثمَّ يشيرُ الإمامُ عليه السلام إلى نقطة أخرى لها علاقة بالظُّلم، وهي: إذا أتى إنسان إليكَ بما يسرُّك فلا تفعل ما يوجبُ حزنَه، «**وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ**»؛ فجزاءُ الإحسانِ بالإحسانِ هو من صفاتِ المؤمنِ وأخلاقِه، وأمَّا الجحودُ ومقابلةُ الإحسان بالسَّيئات فهذا يدلُّ على حقارةِ وضِعَةِ النَّفسِ.

إنَّ الإنسان حين يُقابَل بالإحسان يُمتحَن جوهره الحقيقيّ. فصاحب النَّفس النَّقيَّة يرى في إحسان الآخرينَ بابًا يفتح له مجالًا ليرتقي في أخلاقه، فيقابل الجميل بجميل، ويزداد تواضعًا وشكرًا. أمَّا من يردّ الخير بالشَّر، ويستقبل اللطف بالجفاء، فإنَّ فعله هذا يكشف تعكُّرًا في صفاء الرُّوح؛ إذ يعجز عن إدراك ما يحمله الإحسان من قيمة أخلاقيَّة تُهذِّب العلاقات وتسمو بها.

١- مكاتيب الأئمة عليهم السلام: ج٢، ص ٢٥٥.

ومن هنا فإنَّ مقابلة الإحسان بالإساءة هي مؤشر واضح على اهتزازٍ في بنية الشَّخصيَّة؛ إذ تتراجع القيم الرَّفيعة أمام نزعات الأنانيَّة والازدراء. ومثل هذه النَّفس لم تتربَّ على مكارم السُّلوك، ولم تتذوَّق جمال التَّعامل، فصارت تنظر إلى من يحسن إليها بعين الضِّيق لا بعين الامتنان، وبمشاعر الامتعاض لا بروح التَّقدير.

وتدلُّ التَّجربة الإنسانيَّة في أبعادها المختلفة على أنَّ النُّفوس الواسعة، التي امتلأت نضجًا ورحابة، تستقبل الإحسان بوصفه امتدادًا لطريقتها في فهم الوجود، فتزداد به ثباتًا وسموًّا. فهذه النُّفوس ترى في الخير الوارد إليها مرآةً لنبلها، فتتفاعل معه بوعي يعبِّر عن قدرتها على تقدير المعاني الرَّفيعة في العلاقات بين البشر.

أمَّا النُّفوس التي يضيق أفقها، ويختنق وجدانها تحت وطأة القلق والاضطراب، فإنَّها تتعامل مع الإحسان تعاملًا مشوَّهًا، فتتوجَّس منه أو تردّه ببرود، وقد تنقلب عليه إساءةً وجفاء. والسَّبب في ذلك أنَّ الدَّاخل المظلم لا يتَّسق مع النُّور الخارجي؛ فالقلوب المعتمة تتبرَّم حتَّى من الخير إذا لم يتوافق مع بنائها المضطرب.

والشَّخص الذي لا يرى في الإحسان إلَّا عبئًا أو تهديدًا لم يتجاوز بعد المرحلة التي يستطيع فيها قراءة الفعل الصَّالح قراءة صحيحة، ولم يبلغ الدَّرجة التي يرى فيها أنَّ الاعتراف بالجميل والوفاء لصاحبه جزء من كرامته قبل أن يكون من أخلاقه.

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم وجدنا أنَّ مقام الإحسان هو من أشرف المنازل التي يرفع الله عزّوجلّ إليها عباده المصطفين. فالمحسنون هم الفائزون أوّلًا بمحبّة الله جلّ جلاله؛ إذ يشهد لهم بقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وهم السُّعداء بمعيَّته التي هي أعظم ما يُرجى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[2]. والمحسنون هم الأقرب إلى نيل رحمة ربِّ العالمين جلّ جلاله، كما وعد: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وهم الأكرم عند الله سبحانه وتعالى يوم يلقونه، حيث تُعطى لهم رغائبهم ويتضاعف لهم الجزاء: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]. ثمّ يزيدهم الله عزّوجلّ من فضله، فيُضاعف لهم العطاء: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[5].

١- سورة آل عمران/ الآية: ١٣٤.
٢- سورة النحل/ الآية: ١٢٨.
٣- سورة الأعراف/ الآية: ٥٦.
٤- سورة الزمر/ الآية: ٣٤.
٥- سورة البقرة/ الآية: ٥٨.

المبحَثُ الثَّانِي

سُبُل الكَسبِ والحِكمَة

المطلب الأوَّل: السَّبيل إلى طلب الرِّزق

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ جزعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ»[1].

مفهومُ الرِّزقِ منَ المفاهيم التي تحتاجُ إلى دراسة خاصَّة؛ وذلكَ لكثرةِ ورودِ هذا المصطلح في القرآنِ الكريم ورواياتِ المعصومينَ عليهم السلام؛ فالرِّزق حقيقة أساسيَّة في حياةِ كلِّ مخلوق؛ وفي هذهِ الكلمات للإمام علي عليه السلام بيان مهمٌّ لمحاور عديدة تخصُّ الرِّزقَ، وما يتعلَّق بهِ.

الفرع الأوَّل: أنواعُ الرِّزق

«الرِّزقُ يقالُ للعطاءِ الجاري تارةً؛ دنيويًّا كانَ أم أخرويًّا، وللنصيبِ تارةً، ولِما يصلُ إلى الجوفِ، ويتغذَّى بهِ تارة...»[2]، «والأرزاقُ نوعانِ؛ ظاهرة للأبدانِ كالأقوات، وباطنة للقلوبِ كالمعارفِ والعلوم»[3]؛ ولذلكَ يمكنُ تعريف الرِّزقُ بالمفهومِ العام: بأنَّه كلُّ ما أنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ على مخلوقاتِهِ من نِعَم سواء ماديَّة أو معنويَّة. وهناكَ تقسيمات أخرى للرِّزق بحسبِ الحالةِ التي ينظرُ لها، وما موجود في هذه الفقرة تقسيم مهم جدًّا لأميرِ المؤمنينَ عليه السلام؛ قسَّم فيه الرِّزق على قسمينِ:

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٤.
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٣٥١.
٣- مجمع البحرين: ص٥٠٥.

القسم الأوَّل: رزق مطلوب

وهو الرِّزقُ الذي يتطلَّبُ السَّعي والجهدَ، ومن تقاعسَ عنه كانَ ملامًا ومذمومًا، وقد وردت فيهِ العديدُ من النُّصوصِ التي ترفع من قدره؛ ومجالاتُهُ كثيرة؛ مثل الصِّناعة، والتِّجارة، والزِّراعة، ويتوقفُ الحصولُ عليهِ أن ننهجَ الأسبابَ الطَّبيعيَّةَ التي سنَّها الشَّارع المقدَّس؛ أمَّا البقاءُ في البيتِ من دونَ السَّعي وراءَ الرِّزق، فذلكَ ما ذمَّه الشَّارع في القرآنِ الكريم وأحاديث المعصومينَ عليهم السلام؛ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ كَانَ يَقُولُ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يَدَعُ خَلَفًا أَفْضَلَ مِنْهُ حَتَّى رَأَيْتُ ابْنَهُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليهما السلام فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِظَهُ فَوَعَظَنِي فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَعَظَكَ.

قَالَ: خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي سَاعَةٍ حَارَّةٍ، فَلَقِيَنِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ وَكَانَ رَجُلًا بَادِنًا ثَقِيلًا وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى غُلَامَيْنِ أَسْوَدَيْنِ أَوْ مَوْلَيَيْنِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: سُبْحَانَ اللهِ شَيْخٌ مِنْ أَشْيَاخِ قُرَيْشٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا؛ أَمَا لأعِظَنَّهُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِنَهْرٍ وَهُوَ يَتَصَابُّ عَرَقًا، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ شَيْخٌ مِنْ أَشْيَاخِ قُرَيْشٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَلَى هَذِهِ الحَالِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، أَرَأَيْتَ لَوْ جَاءَ أَجَلُكَ وَأَنْتَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ.

فَقَالَ: لَوْ جَاءَنِي الْمَوْتُ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، جَاءَنِي وَأَنَا فِي [طَاعَةٍ مِنْ] طَاعَةِ اللهِ عزّ وجلّ أَكُفُّ بِهَا نَفْسِي وَعِيَالِي عَنْكَ وَعَنِ النَّاسِ؛ وَإِنَّمَا كُنْتُ أَخَافُ أَنْ لَوْ جَاءَنِي الْمَوْتُ وَأَنَا عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ مَعَاصِي اللهِ.

فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ؛ أَرَدْتُ أَنْ أَعِظَكَ فَوَعَظْتَنِي»[١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: أَوْحَى اللهُ عزّ وجلّ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام أَنَّكَ نِعْمَ العَبْدُ لَوْ لا أَنَّكَ تَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ المَالِ، وَلا تَعْمَلُ بِيَدِكَ شَيْئًا، قَالَ: فَبَكَى دَاوُدُ عليه السلام أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَأَوْحَى اللهُ عزّ وجلّ إِلَى الحَدِيدِ أَنْ لِنْ لِعَبْدِي دَاوُدَ، فَأَلانَ اللهُ عزّ وجلّ لَهُ الحَدِيدَ فَكَانَ يَعْمَلُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْعًا فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَعَمِلَ ثَلاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ دِرْعًا فَبَاعَهَا بِثَلاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ أَلْفًا وَاسْتَغْنَى عَنْ بَيْتِ المَالِ»[٢].

وعَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنِّي لأَعْمَلُ فِي بَعْضِ ضِيَاعِي حَتَّى أَعْرَقَ وَإِنَّ لِي مَنْ يَكْفِينِي لِيَعْلَمَ اللهُ عزّ وجلّ أَنِّي أَطْلُبُ الرِّزْقَ الحَلالَ»[٣].

القسم الثَّاني: رزق طالب

وهو الرِّزقُ الذي يصلُ إليكَ، حتَّى وإن لم تطلبْه؛ فبعضُ الأحيان يسعى الإنسانُ للحصولِ على رزق محدَّد، ويجدُّ في ذلكَ إلَّا أنَّ رزقَهُ يأتيهِ من جهةٍ أخرى، أو على شكلٍ آخر؛ وكأنَّما ذلكَ الرِّزق يبحثُ عنكَ، وإن أعرضتَ عنه، وهذا في الغالب يتوقفُ على مقدارِ الارتباطِ باللهِ سبحانه وتعالى؛ قالَ اللهُ جلّ جلاله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ. إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٤].

١- الكافي: ج ٥، ص ٧٣.
٢- م.ن: ج٥، ص ٧٤.
٣- م.ن: ج٥، ص ٧٧.
٤-سورة الطلاق/ الآيات: ٢-٤.

الفرع الثَّاني: علَّة تقسيم الرِّزق

إنَّ تقسيمَ الرِّزقِ على قسمينِ إنَّما يأتي لتأكيدِ بعضِ المسائلِ:

المسألةُ الأولى: قطعُ حرصِ الإنسانِ على المالِ، وفناءِ عمرهِ من أجلِ دنيا فانيةٍ؛ فأرادَ التَّقسيم أن ينبِّهَ الإنسانَ أنَّ الأرزاقَ بيدِ اللهِ عزّ وجلّ تأتيكَ إذا أحسنتَ التَّعاملَ في طلبِ الرِّزق.

المسألة الثانية: أرادَ الإمامُ عليه السلام أن يعطيَ درسًا في الارتباطِ باللهِ سبحانه وتعالى والانقطاعِ إليهِ والتَّوكُّلِ عليهِ، والإيمانِ بأنَّ اللهَ جلّ جلاله لا يضيع سعيه؛ لكنه يعطيه في الوقتِ المناسب والقدرِ المناسب، فلا ييأس من لطفِ اللهِ عزّ وجلّ؛ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «**لَوْ كَانَ الْعَبْدُ فِي حَجَرٍ لأَتَاهُ اللهُ بِرِزْقِهِ فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[١].

وعن إِبْرَاهِيم بْن أَبِي الْبِلادِ[٢] عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَحَدِهِمَا عليهما السلام قَالَ:

«**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي رُوحُ الْقُدُسِ: أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ عزّ وجلّ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِمَّا عِنْدَ اللهِ عزّ وجلّ أَنْ تُصِيبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ عزّ وجلّ لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِالطَّاعَةِ**»[٣].

١- الكافي: ج ٥، ص ٨١.

٢- قال النجاشي: إبراهيم بن أبي البلاد، واسم أبي البلاد يحيى بن سليم، وقيل: ابن سليمان مولى بني عبد الله بن عطفان، يكنى أبا يحيى، كان ثقة، قارئًا، أديبًا، وكان أبو البلاد ضريرًا، وكان راوية الشعر، وله يقول الفرزدق: (يا لهف نفسي على عينيك من رجل). معجم رجال الحديث: ج ١، ص ٢٧١.

٣- الكافي: ج ٥، ص ٨٠.

المسألة الثَّالثة: الإشارة إلى أنَّ مواردَ الرِّزق الذي يطلبك جدًّا كثيرة؛ بل في كلِّ لحظة يتكرَّر؛ لكن النَّظر متوجِّه فقط نحوَ الأمور الماديَّة، مع أنَّ الإنسانَ في كلِّ لحظاتِ حياتِه يعيشُ هذا النَّوعَ الثَّاني؛ فاللهُ عزّ وجلّ يرزقُنا كلَّ يوم في الحياة، ويعطينا الفرص تلو الأخرى من دون أن نطلبَ ذلكَ، وكم من خطر يبعدنا عنهُ من دون أن نعلمَ، وهكذا.

المسألة الرَّابعة: تقسيمُ الأرزاقِ له علاقة بابتلاء الإنسانِ، ومعرفةِ درجةِ إيمانهم وسلوكِهم في كيفيَّةِ التَّعامل مع الأرزاقِ ومدى يقينه بالتَّعويض الإلهي إذا أنفقَها، ورؤيةِ مدى شكرِه وكفرِه في حالِ إقبالِ النِّعمة وإدبارِها.

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَلا إِنَّ الروحَ الأَمِين نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ عزّ وجلّ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَسَمَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ حَلالًا، وَلَمْ يَقْسِمْهَا حَرَامًا فَمَنِ اتَّقَى اللهَ عزّ وجلّ وَصَبَرَ أَتَاهُ اللهُ بِرِزْقِهِ مِنْ حِلِّهِ، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ السِّتْرِ وَعَجَّلَ فَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ قُصَّ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ الْحَلالِ، وَحُوسِبَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

المسألة الخامسة: أرادَ عليه السلام من الإنسانِ ألَّا يصيبه اليأسُ إذا مرَّ بضائقة أو فقر في حالِ كونِه يسعى؛ فما دامَ قد أتى بالمقدِّمات، فالنَّتائج ستأتي تباعًا؛ فهنالك رزق؛ لكن لا يُدركُ بالاجتهاد، وإنَّما بحُسنِ الظَّنِ بالله سبحانه وتعالى، وهذا يكشفُ سعة الإيمانِ باللهِ عزّ وجلّ.

١- الذريعة إلى حافظ الشريعة (شرح أصول الكافي جيلاني): ج ٢، ص ٢٧٦.

الفرع الثَّالث: عزَّة النَّفس والتَّواصل

قال عليه السلام: «**مَا أَقْبَحَ الخُضُوعَ عِنْدَ الحَاجَةِ، والجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى**».

إنَّ وضع الشَّخص من حيث الغنى أو الفقر يؤثِّر غالبًا بشكلٍ كبيرٍ على سلوكه وأخلاقه؛ وإذا أردْتَ أن تعرفَ مقدارَ إيمانِ الإنسانِ ويقينهِ بالله سبحانه وتعالى، فما عليكَ سوى أن تخرجه من الدُّنيا مرَّةً، وتعيده إليها مرَّةً أخرى، لتكتشفَ جوهره وصورته الحقيقيَّة.

ونبَّه الإمامُ عليه السلام إلى فضيلتينِ: عزَّة النَّفسِ في وقتِ الحاجةِ، والإحسانِ إلى الإخوانِ بالغنى، متعجبًا من قبحِ ضدَّيهما؛ وهما الخضوعُ والجفاءُ للتنفير منهما، «فوجودُ هاتينِ الصِّفتينِ يدلُّ على ضعفِ النَّفسِ، وأنَّها تتبعُ حاجاتِها لا فضائلها»[١].

إنَّ تناقضَ السُّلوكِ في حالةِ الفقرِ والغنى يكشفُ عن كبرِ مساحةِ المرضِ الموجودِ في داخلِ النَّفسِ، وإلى حالةِ الإفراط التي توجدُ داخل النَّفس، حينما ينتقل من حالة التَّواضع إلى وضع الذُّلِّ والهوان والانكسار؛ ولذلكَ، من أهمِّ القواعد التي تحافظُ على النَّفسِ تهذيبُها وحفظُ كرامتِها، وتدريبُها على الصَّبر في الشَّدائد والعطاءِ عندَ القدرةِ، حتَّى تصبح هذه الفضائلُ ملكات راسخة في النَّفس، وكذلك يجب أن لا تأمن التَّغيرات التي قد تحدثُ؛ فالتَّاريخُ مليء بنماذج لأشخاص كانوا في حالٍ معيَّن، وعندما تغيَّرت ظروفُهم، تغيَّرت توجُّهاتُهم ونواياهم وسلوكُهم وأعمالُهم.

١- توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٨٠.

الفرع الرَّابع: الممدوح من الدُّنيا

قال عليه السلام: «**إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ**».

وفي هذه النُّقطة نرى اختصارًا واضحًا وعبارة موجزة تبيِّنُ كلَّ ما يتعلَّق بالدُّنيا، خصوصًا ما هو ممدوح وما هو مذموم؛ فقد بيَّن عليه السلام حقيقةَ الدُّنيا الممدوحة بأنَّها ليست مُلكًا لك بالكامل؛ بل ما حصلتَ عليهِ منها هو ما ساعدكَ على إصلاح آخرتِكَ؛ أي ما بذلته من جهد في تحسِين مصيركَ الأبدي، وأمَّا ما تبقَّى منها فإنَّه زائل وفانٍ، وهذه حكمة بالغة تحثُّ على استثمارِ الدُّنيا في بناءِ الآخرة.

وإذا خصَّص الإنسانُ جهودَهُ على وفق القدر الذي ينفعُهُ من الدُّنيا، فإنَّ ذلكَ يكفي لتحقيقِ الفضائل في الدُّنيا والحصولِ على الثَّواب في الآخرة، وهنا تشجيع أيضًا على إنفاقِ الأموالِ في الطُّرق التي حدَّدها الشَّرعُ أو التي دعا إليها، حتَّى نجني آثارَ ذلكَ في الآخرةِ؛ فمن زرع الخيرَ في الدُّنيا حصدَ الثَّواب في الآخرة.

والدُّنيا مفهوم واسع لا يمكن حصُره في تعريف واحد؛ لكن ما ينفع فيها ويستمرُ هو ما يُسهمُ في بناءِ الآخرةِ، وأمَّا من يسعى من خلال عملِه في الدُّنيا إلى تحصيلِ متاعِها الزَّائل، فإنَّه يكونُ قد خسر؛ لأنَّه بذلَ جهدَه من أجلِ الفناء، لا من أجلِ البقاء.

إنَّ وجودَ الدُّنيا بين يدي الإنسان فرصة عظيمة؛ لكن المؤسف أنَّ قليلينَ هم من يستثمرونَ هذه الفرصة لبناءِ آخرتهم؛ فالثَّروات الدُّنيوية تأتي وتذهب، وبعضها قد لا يُنتفع به، بل يُخلَّف للورثة، فيبقى وزرُها

على صاحبِها بينما يتمتَّع بها الآخرونَ، ولا أقصد بذلكَ أن نهملَ حقوقَهم؛ بل أن نوجدَ توازنًا بينَ متاعِ الدُّنيا ومتطلَّبات الآخرة؛ فنأخذُ من الزَّائل ونضعُهُ في خزائنِ الباقي، من دون أن نسبِّبَ الضررَ للآخرينَ، خصوصًا الأرحام والذُّريَّة.

إنَّ أفضلَ النَّاسِ مَنْ أرسلَ متاعَه وأثاثَه إلى مكان سفرِه قبلَ أن ينتقلَ إليه؛ وأفضل معادلة يمكن من خلالها تحصيل ذلك من طريق تقسيم الدُّنيا على قسمين؛ قسم أستفيد منه في معيشتي ومعيشة عيالي، وقسم أدَّخره لآخرتي ومعادي.

الفرع الخامس: الجزع المذموم

قال عليه السلام: «**وإنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ - فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ - اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ - فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاه**».

فقدانُ الأموالِ والمناصب حالة طبيعيَّة وممكنةُ الحصولِ مع أيِّ شخص، ولكن التَّفاعل والرُّدود تختلفُ من شخص لآخر؛ فبعض يصل بهِ الحدُّ إلى الجزعِ الذي يجعله يائسًا من كلِّ شيءٍ؛ بل وحتَّى من ربِّه سبحانه وتعالى، وقد يخرجه ذلكَ عن خطِّ الإيمانِ والاستقامةِ، وبعضُهم يتلقَّى ذلكَ برحابة صدر، وأنَّه أمر طبعت عليه الدُّنيا؛ فالدَّهر يومان؛ يوم لك، ويوم عليك، وحتَّى لا يخرج الإنسان عن هدفه والخطَّة المرسومة له إلى أن يصل إلى مبتغاه، أشارَ الإمامُ عليه السلام إلى حقيقة يغفلُ عنها الإنسان في كثير من الأحيان مع أنَّها بلسم لكلِّ خسارة؛ ألا وهي لا فرق من حيث

النَّتيجة؛ بين ما ذهبَ من مالِكَ، وما لم تنلْ منه منذُ البداية في حالِ ذهابِ وخسارةِ ما في يديك؛ فهذا حصلَ، وذاك لم يحصلْ بعد؛ وإذا تأمَّلْنا بعمق، نجدُ أنَّ كلا الحالين متساويانِ؛ فالله عزّ وجلّ جعلَ المالَ لي على سبيل المثال لمدَّة عام، ثمَّ يزولُ إلى غيري، فما الفرق بين البقاء والحدوث؟

وإذا لم يجزعْ الإنسانُ على ما لم يُقدَّر له، فلماذا لا يعيش هذه الحالة بذاتِ الرِّضا والسَّكينةِ عند فقدانِهِ؟

بل لو وضعْنا معادلة تحتوي على كلا الأمرينِ معًا؛ أعني بذلكَ ما هو موجود في اليدِ وما هو مقدَّر في الغيبِ، فالموجودُ في اليدِ قد استفدْنا منه واستثمرناه لمدَّة من الزَّمنِ؛ وهذا يدعو إلى عدم الجزعِ والخروج عن مسارِ الصَّبرِ؛ والعلَّةُ في ذلكَ أنَّ كلا الأمرينِ انتهى، على الرَّغم من أنَّنا قد أفدْنا ممَّا كان في أيدينا.

إنَّ القناعةَ وعزَّةَ النَّفس والثِّقة باللهِ عزّ وجلّ هي خيرُ معين على تحمُّلِ نوائب الدَّهرِ والخسائر التي تلحق به، وإلَّا يمكن أن يصلَ الإنسانُ بعدَ الخسارةِ إلى حدِّ الانتحارِ والهلاكِ بمجرَّدِ أن يسمعَ بضياع ثروتِهِ، وهذا يخسر أمواله ونفسه.

إنَّ الجزعَ على ما فات من أهمِّ الأسباب التي تدعو إلى الكسلِ والعزلةِ، وكأنَّ الحياةَ انتهت، وليس فيها بصيص أمل أو ضياء يمكن أن ينير على الجازع طريقه، ولو التفت لوجد أنَّ ذلكَ من الأمور الممكنة، وتعويضها أمر ممكن إذا نهضَ من جديد، وعملَ بجدٍّ ونشاط، وربطَ نفسَهُ باللهِ سبحانه وتعالى.

المطلب الثَّاني: الموعظة بين القبول والرَّد

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَلاَ تكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْأَدَبِ، وَالْبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ»(١).

يسعى العديدُ ممَّن درسوا طبيعةَ المخلوقاتِ، خاصَّة الإنس والملائكة والجنّ والحيوانات إلى وضع حدٍّ فاصل يميِّزُ بينها بوضوح، وحدَّدوا تلكَ الفواصلَ في أمرينِ: العقل والشَّهوة، ثمَّ جعلوا معادلةَ التَّفضيل بينَ تلكَ المخلوقات تعتمدُ على انتصارِ الشَّهوات أو العقل، معتبرينَ أنَّ هذا هو ما يميِّز الإنسانَ عن الحيواناتِ؛ والواقع أنَّ هذا الميزان هو أقرب للتمييز.

ولكنَّ التَّدبر والتَّأمُّل في هذهِ الكلمةِ سيكشفُ عن فاصل يختصرُ التَّعبَ والجهدَ في هذا الموضوع، ويصل إلى حقيقة أنَّ ما يحدِّدُ العاقلَ من البهيمةِ (تقبل الموعظة)؛ ولعلَّ السَّبب في ذلك أنَّ الموعظةَ وقبولَها هي أقرب إلى فعَّاليات وأعمالِ العقل، وأمَّا رفضها أو عدم السَّرعة في قبولها؛ فذلكَ لأنَّ الشَّهوات أصبحت بمنزلةِ الحُجُب، أو الأشواك الضَّارة التي تمنعُ وصولها إلى العقلِ وقبولها؛ فالرَّفضُ عنوانٌ واضح يدلُّ على طُغيانِ الشَّهوات، والغرائز في ذلك الشَّخص؛ حتَّى يصلَ إلى بعضِ مراتب البهائم.

الفرع الأوَّل: من علامات ضعف العقل

من هذهِ الكلمةِ والدُّرَّة العلويَّة نستخلص مجموعة من الدُّروسِ والعِبر:

الدَّرس الأوَّل: التَّحذيرُ أن يكونَ ممَّن لا ينتفع بالموعظةِ والإرشاد إلَّا إذا بالغت في إيلامِهِ بالقولِ وغيرِهِ؛ لأنَّها أوَّلُ علامة على حجب العقل من نورِ المعرفةِ والحكمةِ.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٤.

الدَّرس الثَّاني: هناك نوعان من الخلقِ اتِّجاهَ الموعظةِ؛ عاقل يقبلُها بيسر وسهولة وبمجرَّدِ سماعِها، وصنف آخر لا يتَّعظ بسهولة وإنَّما لا بدَّ أن يرافقَ الوعظَ التَّوبيخَ والذَّمَ؛ وهؤلاء حالهم حالُ البهائم؛ والمائزُ هو: «**فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْأَدَبِ، وَالْبَهَائِمَ لَا تُتَّعَظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ**».

الدَّرس الثَّالث: من أرادَ أن يصطفَّ إلى جانب العقلاءِ الَّذينَ مدحَهم اللهُ سبحانه وتعالى في كتابِه؛ عليهِ أن يجعلَ أمامَه منهجَ قبولِ الوعظِ والإرشادِ، وعلى العكسِ من ذلكَ من أرادَ أن يصطفَ مع البهائم فعلامتُهُ الإعراضُ عن الوعظِ والإرشاد، ولعلَّه يمكن أن يصل إلى حدٍّ أقل من البهائم.

الفرع الثَّاني: من آثار اتِّباع الهوى

الأمرُ البديهيُّ والمسلَّم به أنَّ الإنسانَ عليهِ أن يقبلَ الموعظةَ من دونِ تردد؛ بل بمجرَّد سماعِها يحاول تطبيقها؛ لأنَّها خيرٌ محض له؛ تنيرُ له الطَّريقَ، وتسلكُ بهِ سبيلَ المعروفِ، وتنتهي بهِ إلى الجنَّةِ؛ لكن لماذا نجد بعض النَّاس يصعب عليه قبول الموعظة؟

الجواب: إنَّ رفضَ الموعظة والإرشاد يعود لمجموعة من العوامل؛ لكن أهمّها: اتِّباع الهوى وطول الأمل في الدُّنيا، وقد حذَّرَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام فقال:

«**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ**»[١].

و«الهوى ميلُ النَّفسِ إلى الشَّهوة، ويقال ذلكَ للنفسِ المائلةِ إلى الشَّهوةِ... والهُويُّ سقوطٌ من علوٍّ إلى سُفل»[٢].

١- بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٤١٧.
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٤٩.

وقد ورد الذَّم لاتِّباع الهوى في كثير من آيات القرآن الكريم؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١)؛ ففي الآية إشارة واضحة إلى أنَّ الإنسانَ يمكن أن يهبط إلى الحدِّ الذي تصبحُ فيهِ نفسُهُ هي المعبودة والمطاعة وليس الحقّ عزّ وجلّ، ومن الآيات أيضًا قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(٢)، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣)، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾(٤)، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾(٥).

والمشكلةُ في هذهِ التَّبعيَّة للنفس تكمنُ في أنَّها تضلُّ الإنسانَ عن جادَّة الحقِّ والصِّراطِ المستقيم، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾(٦)؛ لذا كانَ أمرُ اللهِ عزّ وجلّ وحكمُه واضحًا وصريحًا بضرورةِ تجنُّب هوى النَّفس وطاعتها؛ لأنَّها لن تورثَ الإنسانَ إلَّا العذابَ والضَّلالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(٧)، والمؤمنُ الصَّادق يكفيهِ أن يعرفَ الأضرارَ والمساوئ النَّاجمة عن اتِّباع الهوى وحب النَّفس، وما وعدَ اللهُ عزّ وجلّ به الذين يخافونه في الغيبِ من

١- سورة الجاثية/ الآية: ٢٣.
٢- سورة الأعراف/ الآية: ١٧٥.
٣- سورة الكهف/ الآية: ٢٨.
٤- سورة طه/ الآية: ١٦.
٥- سورة القصص/ الآية: ٥٠.
٦- سورة الأنعام/ الآية: ١١٩.
٧- سورة ص/ الآية: ٢٦.

الجنانِ، حتَّى يقلعَ عنه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(١).

وعن الإمام علي عليه السلام: «عِبَادَ اللهِ لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ»(٢).

الفرع الثَّالث: أهمية الموعظة

إنَّ المواعظ طريقٌ إلى تقدُّمِ الإنسانِ نحو التَّكامل، ويقظته من الغفلة، وإحراز سعادته في الدُّنيا والآخرة؛ ولذا نجدُ النُّصوصَ الشَّريفةَ تركِّز عليها؛ ومن خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «فاتَّعِظُوا عِبَادَ اللهِ بِالعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ المَنِيَّةِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ الأُمْنِيَّةِ، وَدَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدِ المَوْرُودِ، ﴿وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»(٣).

ويمكن للإنسان أن يستخلصَ العبرَ والدُّروسَ والمواعظَ من كلِّ شيءٍ؛ عن الإمامِ علي عليه السلام: «مَن كانَت لَهُ فِكرَةٌ فَلَهُ في كُلِّ شَيءٍ عِبرَةٌ»(٤).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «خُذْ مَوعِظَتَكَ مِن الدَّهرِ وأهلِهِ؛ فإنَّ الدَّهرَ طَويلَةٌ قَصيرَةٌ، فاعمَلْ كأنَّكَ تَرى ثَوابَ عَمَلِكَ لِتَكُن أطمَعَ في ذلكَ»(٥).

١- سورة النازعات/ الآية: ٤٠-٤١.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ٧، ص ١٦٧.
٣- م.ن: ص ١١٦.
٤- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٤٤٢.
٥- مكاتيب الأئمة عليهم السلام: ج ٤، ص ٤٩١.

وعن الإمام علي (عليه السلام): «أبلَغُ العِظاتِ النَّظَرُ إلى مَصارِعِ الأمواتِ والاعتِبارُ بمَصائرِ الآباءِ والأُمَّهاتِ»(١).

وعنه (عليه السلام): «أبلَغُ ناصِحٍ لَكَ الدُّنيا لَو انتَصَحتَ بِما تُريكَ مِن تَغايُرِ الحالاتِ، وتُؤذِنُكَ بِهِ مِنَ البَينِ والشَّتاتِ»(٢).

وعنه (عليه السلام): «إنَّ اللهَ سبحانَهُ لَم يَعِظْ أحداً بمِثلِ هذا القرآنِ»(٣).

وعن نبي اللهِ عيسى (عليه السلام): «بِحَقٍّ أقولُ لَكُم: مَن نَظَرَ إلَى الحَيَّةِ تَؤُمُّ أخاهُ لِتَلدَغَهُ ولَم يُحَذِّرْهُ حتّى قَتَلَتْهُ فلا يَأمَنْ أن يَكونَ قَد شَرِكَ في دَمِهِ، وكذلكَ مَن نَظَرَ إلى أخيهِ يَعمَلُ الخَطيئةَ ولَم يُحَذِّرْهُ عاقِبَتَها حتّى أحاطَت بهِ فلا يأمَنْ أن يَكونَ قَد شَرِكَ في إثمِهِ، ومَن قَدَرَ على أن يُغَيِّرَ الظّالِمَ ثُمَّ لَم يُغَيِّرْهُ فهُو كفاعِلِه، وكَيفَ يَهابُ الظّالِمُ وقَد أمِنَ بَينَ أظهُرِكُم لا يُنهى ولا يُغَيَّرُ علَيهِ ولا يُؤخَذُ على يَدَيهِ؟! فمِن أينَ يُقصِرُ الظّالمونَ أم كَيفَ لا يَغتَرُّونَ؟! فحَسبَ أن يَقولَ أحَدُكُم: لا أظلِمُ ومَن شاءَ فلْيَظلِمْ، ويَرَى الظُّلمَ فلا يُغَيِّرُهُ ! فلَو كانَ الأمرُ على ما تَقولونَ لَم تُعاقَبوا مَعَ الظّالِمينَ الذينَ لَم تَعمَلوا بأعمالِهِم حِينَ تَنزِلُ بِهِمُ العَثرَةُ في الدُّنيا»(٤).

١- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ١٢٦.
٢- م.ن: ص ١٢٦.
٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٠، ص٣١.
٤- تحف العقول: ص ٥٠٤.

المطلب الثَّالث: لطائف الحِكم

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ، مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، الصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى**»[1].

من أبرز مميِّزات كلمات أمير المؤمنين عليه السلام أنَّها تتَّسم بالبلاغة العالية، وتختزن في الوقت نفسه كمّاً هائلًا من المعارف والعلو؛ فهي ليست مجرَّد ألفاظ، بل تحمل معاني عميقة ومعارف واسعة تشمل مختلف جوانب الحياة؛ وكلُّ كلمة تخرج منه تحمل حكمة نافعة وقيمة عظيمة؛ لذا فإنَّ كلمات الإمام عليه السلام مصدرًا غنيًّا بالعبر والفوائد التي لا تُعدُّ ولا تحصى.

نحاول في هذا المبحث أن نذكر بعضًا منها مع الإيجاز في بيانها، وإلَّا فهي تحتاج إلى دراسة ومتابعة؛ حتَّى نستخرج ما فيها من كنوز، ولنبدأ بتوضيحها كما جاءت متسلسلة في هذه الوصيَّة الخالدة:

الفرع الأوَّل: دواء الهموم

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ**».

الهموم لها آثارها وغاراتها على حالة الإنسان، ومن شأنها أن تؤثِّر على الرُّوح والبدن تأثيرًا سلبيًّا قد يصل إلى حدِّ الموت إن لم تُعالج في البداية، وهنا يضع الإمام عليه السلام علاجًا فعَّالًا لهذا المرض يَتواجد في الصَّبر القوي وحسن اليقين بأنَّ الله عزّ وجلّ سيكشف هذه الهمومَ والأحزانَ، ويجزل أجرَها، فعزم الصَّبر، والتَّفاؤل بانكشافها من خلال حسن الظَّن بالله عزّ وجلّ دواء فعَّال لطردها.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٤.

وينبغي التَّنبه أنَّ الهموم إذا وردت مع أنَّ الإنسان يسير وفق الخطة المرسومة من دون أن يخرج أو ينحرف فإنَّ ذلك يعني هناك حكمةً أخرى، وفي كلِّ الأحوال من فلسفتها الرُّجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والقبول بأمره جلّ جلاله، والقاعدة: فوِّض أمرك لله عزّ وجلّ في كلِّ الهموم والأحزان مع السَّعي المقترن بالصَّبر.

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «**إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ صَبَرَ لَهَا، وَإِنْ تَدَاكَّتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ، وَإِنْ أُسِرَ وَقُهِرَ وَاسْتُبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْرًا كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ الأَمِينُ عليه السلام لَمْ يَضْرُرْ حُرِّيَّتَهُ أَنِ اسْتُعْبِدَ وَقُهِرَ وَأُسِرَ، وَلَمْ تَضْرُرْهُ ظُلْمَةُ الْجُبِّ وَوَحْشَتُهُ وَمَا نَالَهُ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الْجَبَّارَ الْعَاتِيَ لَهُ عَبْدًا بَعْدَ إِذْ كَانَ لَهُ مَالِكًا فَأَرْسَلَهُ وَرَحِمَ بِهِ أُمَّةً، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْرًا فَاصْبِرُوا وَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تُوجَرُوا**»[١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ كَانَتِ الصَّلاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَالْبِرُّ مُطِلٌّ عَلَيْهِ، وَيَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلِيَانِ مُسَاءَلَتَهُ، قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ: دُونَكُمْ صَاحِبَكُمْ فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا دُونَهُ**»[٢].

١- الكافي: ج ٢، ص ٨٩.
٢- م.ن: ج٢، ص ٩٠.

الفرع الثَّاني: لا إفراط ولا تفريط

قال عليه السلام: «**مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ**».

«القصد في الأمور ما بين الإفراط، والتَّفريط»[١].

أي ترك الوسط في كلِّ شيءٍ والخروجُ عن خطِّ العدالة في الأفعال والأقوال يورث الهلاك، والمقصود خير الأمور أوسطها؛ فمن أسرف تعدَّى الحدود، ومن أمسك قصَّر عنها؛ والطَّريق الوسطى سبيلُ الخيرِ والنَّجاة، وتركُ الطَّريق الوسط هو الجور والظُّلم.

أمثلة على القاعدة:

١. الشَّجاعة هي الحدُّ الوسط بين طرفي الإفراط والتَّفريط؛ وهما الجبنُ والتَّهور.

٢. الكرم هو الحدُّ الوسط بين الإسراف والتَّقتير؛ فمن ترك حدَّ الوسط ذهب إلى أحدهما فيجور ويظلم.

ومن كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي؛ وهو من أصحابه يعوده فلمَّا رأى سعة داره؛ قال: «**مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا أَمَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ**. فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ: يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ.

قَالَ: **وَمَا لَهُ؟**

قَالَ: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ الْعَبَاءَ، وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا.

١- مجمع البحرين: ص ١٠٥٩.

قَالَ: **عَليَّ بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ**، قَالَ: **يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ، لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ.**

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ.

قَالَ: **وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْحَقِّ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ؛ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ**»[١].

الفرع الثَّالث: رعاية حقوق الصَّاحب

قال عليه السلام: «**وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ**».

«الصَّاحب الملازم إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرق بين أن تكون مصاحبة بالبدن، وهو الأصل والأكثر، أو بالعناية والهمَّة... ولا يقال في العرف إلَّا لمن كثرت ملازمته...»[٢]؛ «واستعار هنا للصاحب لفظ النَّسيب باعتبار مودَّته وحسن معاصرته كالنَّسيب»[٣].

فينبغي الاهتمام به؛ ولذا قيل الصَّديق نسيبُ الرُّوح، والأخ نسيب البدن.

وهنا تأكيد على لزوم حفظ الصَّاحب وتأدية حقوقه وواجباته، وكذا للنسيب حقوقًا وواجبات اتِّجاهك؛ ولذا يلزم إعانته ومعاضدته.

والظَّاهر أنَّ جعل الحقوق للصاحب بسبب تحول علاقتهم من إنسان بعيد عنك إلى إنسان يرتبط بك تكاد أن تكون علاقته نسبيَّة؛ بل قد لا تفتح أيَّ سرٍ أو صفحات مع النَّسيب؛ بينما تكشف كثيرًا أمام صاحبك

١- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١١، ص٣٢.
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٤٧٥.
٣- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٥٨.

وصديقك، وإذا تحوَّل إلى ذلك القرب الرُّوحيّ والفكريّ فيجب أن نحافظ عليه، ونداقع عنه، ونؤدِّي له حقوقه؛ ويكون حاله حال أقرباء الإنسان وأرحامه إلَّا في بعض الأحكام التي اختصَّ بها أقرباء الإنسان وأرحامه.

الفرع الرَّابع: الصديق الحقيقي

قال عليه السلام: «**وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ**».

للصديق علامات كثيرةٌ؛ لكن العلامة التي بها يعرف الصَّديق حقًّا (**الصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ**)؛ أي يحفظك في غيبتك كما يحفظك في حضورك، «والصِّدق معناه تطابق الحالين»[١].

فكما يمدحك في محضرك، لا يذيع لك سيئةً في غيبتك، والصَّديق الواقعي إنَّما يعرف في غياب صديقه، وكيف يراعي حقوقه في غيبته كما في حال حضوره، ولا يختلف الحديث عنه سواء في حضوره أو غيبته.

الفرع الخامس: الهوى شريك العمى

قال الإمام عليه السلام: «**وَالهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى**».

الهوى اتِّباع الميولات النَّفسيَّة والانقياد لها من دون الاعتماد على العقل والفكر وما قضى به الشَّارع المقدَّس، ومن كان أسيرًا لشهوته عمي، ولم يبصر الحقَّ؛ «فهو إن أخذناه بلفظ (العمى)؛ لأنَّه يستلزم الضَّلال وترك القصد كالأعمى...»[٢].

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٢.
٢- ينظر: نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦٢٤. توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٢.

وإن أخذناه بلفظ (العناء)؛ فالهوى يتعب صاحبه، «وقيل سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1]؛ وسرُّ ذلك لأنَّ الهوى أشدُّ الحجب التي تنشر الظَّلام حول العقل، فلا يبصر بعد ذلك أبدًا طريقَ الحقِّ والرَّشاد، وبعد ذلك يتحوَّل إلى إله ودين له، يأمره، وينهاه؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وعنْ أَبي جعْفرٍ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ اللهُ عزّ وجلّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي، وَنُورِي وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي، لا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَاهُ عَلَى هَوَايَ إِلَّا شَتَّتُّ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَبَّسْتُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَشَغَلْتُ قَلْبَهُ بِهَا، وَلَمْ أُؤْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا قَدَّرْتُ لَهُ، وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَعَظَمَتِي وَنُورِي وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي، لا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ إِلَّا اسْتَحْفَظْتُهُ مَلائِكَتِي، وَكَفَّلْتُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ رِزْقَهُ، وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةِ كُلِّ تَاجِرٍ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»[3].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَجَّاجِ[4] قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام اتَّقِ الْمُرْتَقَى السَّهْلَ إِذَا كَانَ مُنْحَدَرُهُ وَعْرًا، قَالَ: وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: لا تَدَعِ النَّفْسَ وَهَوَاهَا فَإِنَّ هَوَاهَا فِي رَدَاهَا، وَتَرْكُ النَّفْسِ وَمَا تَهْوَى أَذَاهَا، وَكَفُّ النَّفْسِ عَمَّا تَهْوَى دَوَاهَا»[5].

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٤٩.
٢- سورة الجاثية/ الآية: ٢٣.
٣- الكافي: ج ٢، ص ٣٣٥.
٤- قال النجاشي: عبد الرحمان بن الحجاج البجلي: مولاهم، كوفي، بياع السابري، سكن بغداد، ورمي بالكيسانيَّة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام، وبقي بعد أبي الحسن، ورجع إلى الحقِّ ولقي الرضا عليه السلام، وكان ثقة ثقة، ثبتًا، وجهًا، ... له كتب يرويها عنه جماعات من أصحابنا. معجم رجال الحديث: ج ١٠، ص ٣٤٢.
٥- الكافي: ج ٢، ص ٣٣٥.

المطلب الرَّابع: معرفة الحدود

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ، مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ، قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاَكًا، لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلاَ كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ»[1].

من المبادئ الأساسيَّة في أيِّ علم أو مجال هو تحديدُ وتوضيحُها المفاهيم التي يدرسُها ويستعملها في ذلك العلم أو المجال؛ فدراسةُ المفاهيم ضروريَّة؛ لأنَّها تمثِّل الوعي الذي يشكِّل الرَّكيزة الأساسيَّة في توجيه حركة الإنسان؛ فسلوكُ الإنسانِ مبني على فهم المفاهيم وتأطيرِها؛ ومنَ الممكن أن يتعرضَ بعضُ الأفراد للخداعِ بسببِ الألفاظِ والمفاهيم الجذَّابة التي يجهلونَ معانيها وحدودَها، وهناك العديد من المشكلات، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، تنشأ نتيجة عدم تحديدِ المفاهيم بشكلٍ دقيق؛ لذلكَ، نحنُ بحاجة إلى فهم نظري واضح للمفاهيم؛ وإلَّا سنستمرُّ في دراسةِ الأمور وتحليلها بشكل خاطئ، ممَّا يؤدِّي إلى نتائج غير مرضيَّة.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٥٤.

إنَّ معرفةَ الحدِّ في العلومِ والمعارفِ والعلاقات يجعلُ الإنسانَ يسيرُ ضمن خطِّ الاستقامة وعدم الإفراط والتَّفريط؛ لذا، في أيِّ مجال علميٍّ نرغبُ في دراسته، يجب أوَّلًا أن نكتسبَ فهمًا لأساسيَّاته وتعريفه، حتَّى لا نتجاوز نطاقَه إلى مجالاتٍ أخرى، وفي هذه اللطائف يضعُ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام موازينَ تحدِّدُ بعضَ المفاهيم الأساسيَّة في الحياة:

الفرع الأوَّل: مراعاة الأحوال في القرب والبعد.

قال عليه السلام: «**رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ**».

«والغرضُ من هذا التَّنبيه على أنَّ في الأباعد من هو أقربُ وأنفعُ من النَّسيب، وفي الأقارب من هو أبعدُ من البعيد...»(١).

وهذا مشهور؛ فربَّ قريب يجفو بما لا يجفو بمثلهِ البعيد، وربَّ بعيدٍ يقوم بأداء الحقوق أكثر من قيامِ ذي النَّسيب؛ فاللازمُ مراعاةُ الأحوال لا النِّسبة.

فالقربُ والبعدُ ليس بالنَّسب وعلاقةِ الرَّحم؛ وإنَّما هو بما تعرفُه، وتلمسُه من أخيكَ من إخلاصٍ وألفةٍ وتضحيةٍ وعون.

ومن الأمورِ البديهيَّة والحاصلة أن يحظى الشَّخصُ بإنسان بعيدٍ؛ لكن يأنسُ بهِ وبأفكارهِ وعقيدتهِ وأخلاقهِ، فيكونُ أقرب للرُّوح من ذاكَ القريب الذي هو بعيد عنك بكلِّ شيءٍ؛ والظَّاهر أنَّ التَّقارب في الأخلاقِ والسُّلوك هو مقدِّمة لتحديد القرب والبعد، وأمَّا التَّقارب في مجال العلاقات والتَّواصل ليس دليلًا على التَّقارب الرُّوحي بين الطَّرفين؛ ولذلكَ حتَّى نضع علاقات نَسبيَّة مثمرة لا بدَّ أن تجمع بين التَّقارب الفكريّ والرُّوحيّ من جهة، والتَّواصلِ وصلةِ الأرحام من جهةٍ أخرى.

١- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٥٩.

الفرع الثَّاني: تحديد الغربة والغريب

قال‌عليه‌السلام: «**وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ**».

وردَ في هذهِ الحكمة آراء عدَّة:

الرَّأي الأوَّل: «الحقيقُ بأن يسمَّى غريبًا هو مَنْ لم يكنْ له محبًّا يحبُّه»[١].

الرَّأي الثَّاني: إشارة هنا إلى قوله‌عليه‌السلام: «فقدُ الأحبَّة غربة»[٢].

الرَّأي الثَّالث: الغريبُ هنا إشارة إلى بعضِ الأفعالِ والأعمالِ التي يقوم بها بعضُ الأشخاص مثل الكِبر والغرور وأمثالهما، فتدعو الآخرينَ إلى اعتزالِهم وبغضِهم فيعيشونَ حالةَ الوحدةِ والوحشةِ والغربةِ، ولعلَّ هذا المعنى مأخوذ ومستنبط من المعنى اللغويّ للفظ؛ «أغرب الرَّجلُ: جاءَ بشيءٍ غريب»[٣].

الفرع الثَّالث: سبيل الحقِّ

قال‌عليه‌السلام: «**مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ**».

مع الحقِّ والباطلِ لا يوجد طرف ثالث؛ فمن لم يكنْ مع الحقِّ كانَ مع الباطلِ، والعكسُ صحيح أيضًا، وسلوكُ طريق الحقِّ يحتاجُ إلى معرفةٍ وعلم يستنيرُ بهما لتشخيص ذلكَ؛ وأمَّا إذا كان السَّيرُ يتمُّ بناءً على الجهلِ، فإنَّ هذا السَّير لا يؤدِّي إلَّا إلى مزيد من البُعدِ والتَّعقيد؛ لأنَّه إمَّا يعيش حالةَ الإفراطِ أو التَّفريطِ؛ «إذ التَّعدي من الحقِّ موجب للإفراط أو التَّفريط، وكلاهما يوجب الضِّيق، بخلاف الحقِّ الذي هو عدل في الأمور...»[٤].

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٥٩. نخبة الشرحين: ج٤، ص١٦٢٤.
٢- غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٨١.
٣- مجمع البحرين: ص٩٤١.
٤- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٢.

ومن هذه الكلمة يُستنبطُ آراء فكريَّة عدَّة لها علاقة بحركةِ الإنسانِ، ولو تأمَّلنا فيها عرفنا قيمةَ الحقِّ وأهميَّةَ الارتباطِ بهِ:

الرَّأي الأوَّل: «إنَّ طريق الحقِّ واضح؛ مأمور باتِّباعه، وقد نصب عليه أعلام الهداية، أمَّا طريقُ الباطل فهي ضيِّقة ووعرة على سالكِها لما فيها من التَّحيُّر والتَّخبُّط وعدم الهداية إلى المصلحة مع كونها ممنوعة بحرسة طريق الحقِّ؛ من حاد إليها عنه؛ أخذوا عليه مذهبه، وضيَّقوا عليه مسلكَه؛ حتَّى يعود إلى طريقِ الحقِّ...»(١).

وهنا أشارَ عليه السلام إلى نتائجِ سلوكِ طريقِ الحقِّ وطريقِ الباطل، موضِّحًا أنَّ السُّلوكَ المنحرفَ لا يؤدِّي إلى الهدف المنشود؛ لأنَّ هناك من يعترض هذا المسارَ ويقفُ دونَ تحقيقه؛ وكأنَّ سلوكَ طريق الباطل يشبه سباحةَ شخص في عكسِ التَّيار، حيث يبذلُ جهدًا مضاعفًا من دونِ أن يحقِّقَ تقدُّمًا نحو هدفِه.

الرَّأي الثَّاني: «إشارة إلى الفعلِ الذي ينبغي أن يواجهَ بهِ من يتعدَّى الحقَّ، وذلكَ بتضييقِ مذهبه؛ أي إنكار ذلكَ عليه والازدراء به والقسوة عليهِ ضمنَ شروطِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر»(٢).

الرَّأي الثَّالث: إنَّ المبررات التي توضعُ من أجلِ تبرير تعدِّي الحقِّ ضيِّقة، لا تفي بأيِّ غرض، ولا يجوز أن تكونَ عذرًا لعدم تحمُّل المسؤوليَّة؛ فمن كذبَ، أو سرقَ فمهما برَّر لن يمحو جريمته وجريرته؛ بل لن يجد وسيلة تقنعُ الآخرينَ بذلكَ.

١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٥٩.
٢- في ظلال نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٤٨.

الفرع الرَّابع: معرفة القدر

قال عليه السلام: «**وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ**».

معرفةُ الإنسان مقداره من ناحيةِ الزَّمانِ والمكانِ، والخلقةِ التي عليها، ونسبَته للخالقِ عزّ وجلّ، ومحلِّه بالنسبة للموجودينَ، ومراكز القوَّة والضَّعف فيه، ومدى الإمكانات والقدرات التي يمتلكُها، ثمَّ العمل والحركة على وفقِ تلكَ القدرات من أهمِّ المعارف التي تدعو إلى سلامةِ الإنسانِ وبقائه ضمن دائرةِ الفلاح؛ ولذلك وردت روايات في التَّرحم على من يعرف ذلكَ؛ عن الإمامِ علي عليه السلام: «**رحِمَ الله امرأ عرَف قدرَ نفسِه**»[1].

إنَّ الاقتصارَ على القدر بأن لا يفعل أمرًا فوقَ طاقتِه أبقى له؛ فالحملُ الزَّائدُ ممَّا يضُّر ولا ينفع إن كان أعلى مما يستطيع؛ فإنَّ تجاوزَ الحدودِ وعدمَ معرفةِ القدر يثيرُ الآخرينَ، ممَّا يدفعُهم من موقفِ المؤازرةِ إلى موقفِ المواجهةِ والتَّصادم، وأمَّا المعرفةُ الواقعيَّةُ للنفس مما يدعو الآخرينَ إلى تكريمِهِ واحترامِهِ وتقديرِهِ؛ كونه يتحرَّكُ ضمنَ الخطوط التي يستطيعُ إنجازها، وأخطر قضيَّة في هذا المجالِ هي تصدِّي من لا يمتلك الكفاءةَ للمناصب الإداريَّة والقياديَّة؛ إذ يؤدِّي ذلكَ إلى جلبِ ويلات وأخطار عواقبُها وخيمة.

ومصادقُ هذه القاعدة يصعبُ حصرُها، فهي أساسُ كلِّ نجاح إذا تمَّ تطبيقُها بشكلٍ صحيح، وأساسُ كلِّ فساد إذا لم تُفعَّل؛ وما التَّأخُّر الذي يعانيه بعض الناس في بعض البلدان إلَّا نتيجة لعدم معرفةِ قدر الأمور.

١- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١١، ص ١٩٧.

إنَّهـا قاعـدة تجعـلُ القلـوبَ تهفـو إلى صاحبهـا مهـما كان مقامـهُ، إذا كان مـدركًا لحـدوده، وأمَّـا إذا زعـم مـا ليس لـه، فـإنَّ القلـوبَ تنـصرفُ عنـه؛ إذ يكـون ذلـكَ مخالفًـا للحـقِّ.

الفرع الخامس: أوثق الأسباب

قال الإمام عليه السلام: «**وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ**».

الوصـولُ إلى الغايـات النَّبيلـةِ والأهـداف الرَّفيعـةِ يحتـاجُ إلى أسـباب ومسبِّبات، وهـذا هـو القانـونُ الطَّبيعـيُّ في تحقيقِهـا؛ لكـن الأسـباب تختلـفُ مـن شـخصٍ إلى شـخص آخـر؛ فبعـضُ النـاس يريـدُ الوصـولَ إلى الكـمالِ المـادِّي والحيـاةِ السَّـعيدةِ، فيعتقـد أنَّ الوسـيلةَ لأجـل الحصـول عليهـا محصـور في الحصـولِ عـلى وظيفـة أو تجـارة عـلى الرَّغـم مـن أنَّ كليهـما معـرَّض للخطـرِ والـزَّوال؛ ولذلـكَ حينـما يكـونُ الإنسـانُ دقيقًـا في اختيـارِ الهـدف؛ ألا وهـو الحصـول عـلى رضـا الله سبحانه وتعالى وابتغـاء الـدَّارِ الآخـرة، حينئـذٍ لا بـدَّ أن يعيِّنَ السَّـببَ الأوثـقَ الـذي يوصلـه لتلـكَ الغايـة السَّـامية، ولا يوجـدُ سـبب يوصـلُ الإنسـانَ إلى أعـلى مراتـب الكـمالِ مثـل الارتبـاط بـاللهِ عزَّ وجلَّ؛ الـذي عـبَّرَ عنـه هنـا بالسَّـبب.

فنبَّـه الإمـام عليه السلام عـلى ضرورة وجـود رابـط قـوي يربـط الإنسـان بخالقـه سبحانه وتعالى، مؤكِّـدًا أنَّ كلَّ مـا يقـرِّب إليـه عزَّ وجلَّ مـن علـم أو قـول أو فعـل يجـب أن يكـون هدفـه الأسـاس التقـرب إلى الله جلَّ جلاله؛ «ولفـظ السَّـبب مسـتعار لذلـكَ؛ باعتبـار إيصالـه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والقـربِ منـه كالحبـل الـذي يوصلُـه إلى المقصـود، وظاهـر أنَّـه أوثـقُ الأسـباب لثباتـِه دائـماً ونجـاةِ المتمسِّـكِ بـهِ في الدُّنيـا والآخـرة...»[1].

١ - ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٦٠.

فنستنتجُ من ذلك أنَّ أوثق سبب يوصل إلى الغايات السَّبب الذي بين العبدِ وبينَ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ والعلَّةُ في ذلكَ واضحة؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ بيدِهِ كلُّ شيءٍ، ومن تمسَّك بأسبابه ذلَّ له كلُّ شيءٍ؛ وبناءً على ذلك فإنَّ التَّمسكَ بالأسبابِ التي لم يدعُ لها القرآن الكريم إنَّما هو تمسُّك لا يعتمد عليه بخلاف التَّمسُّك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأوليائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فإنَّه التَّمسُّكُ القائمُ على أصلٍ ثابت جذوره في الأرض وفروعه في السَّماء يؤتي أكله كلَّ حين.

وكلَّما ازدادت أسبابُ الوثوقِ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ استطاعَ أن يصلَ إلى غاياتِهِ وأهدافِهِ؛ فالعلمُ بأحكامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سبب، والعملُ بها سبب، والتَّوسل بأهلِ البيتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومودَّتهم سبب؛ لأنَّها ترجعُ في النِّهاية إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإذا رجعنا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فمعنى ذلك أننا تمسَّكنا بسبب لا انقطاعَ له، ولا زوالَ ولا فناءَ؛ إنَّه السَّبب الذي لو تقطَّعت كلُّ السُّبل بنا نجونا إذا تمسَّكْنا به.

الفرع السَّادس: المقصود بالعدو

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ**».

قيلت آراء عدَّة في توجيه هذه الكلمة؛ ولكن أغلبها لا يجوز الأخذ بها مباشرة؛ لأنَّ إعطاء صفة العدو فيها من الخطورةِ ما لا يحمد عقباها؛ بل تحتاجُ إلى بيان عمق ألفاظِها من ناحيةِ اللغةِ والاصطلاح، وبيانِ صفة العدو في القرآن الكريمِ ورواياتِ المعصومينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ثمَّ بعدَ ذلكَ إعطاء الرَّأي القاطع والأكثر احتمالاً في توجيه الكلمة، بعد الرجوع إلى الحكم الفقهي الخاصِّ بالموضوع.

ولكن الأظهر أنَّ اللامبالاة المقصودة هنا هي: «لا أكترث به، ولا أهتم لأجله»[١]. ولفظُ العدو مستعار له، وليس حقيقة باعتبار أنَّ عدمَ المبالاة من لوازم العدو...»[٢].

وعندنا روايات تصرح بأنَّ عدم الاهتمام بأمور المسلمينَ يخرج الشَّخص من هذا المجال إلى مجال آخر؛ فقد روي عن الرسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله: «**مَنْ أَصْبَحَ لا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»[٣]؛ فيلفتُ صلى الله عليه وآله النَّظرَ إلى أنَّ الإيمان ليس مجرد علاقة فرديَّة بين المسلم وربِّه عز وجل، بل هو كذلكَ مرتبط بعلاقتهِ مع الآخرينَ، خصوصًا مع أبناء الأمَّة الإسلاميَّة؛ واللامبالاة قد تكونُ مؤشرًا على تراجعِ الإحساسِ بالمسؤوليَّةِ الجماعيَّة، وهذا قد يتطوَّر إلى تجاهل الاحتياجات والمشاكل التي تواجه الأمَّة، ممَّا يعزِّزُ الفرقةَ والعداوةَ، ثمَّ إنَّ المسلم مطالب بأن يكون قلبه مفتوحًا لمشاكل إخوانهِ، وأن يسعى لحلِّ قضاياهم ويدافع عنهم عندما يحتاجونَ إليه، وعدم الاهتمام بهم، خاصة في أوقاتِ الأزماتِ، قد يؤدِّي إلى خلوّ المجتمعات من التَّضامن، وهو أولى خطوات التَّباعدِ والعداوة.

الفرع السَّابع: الإدراك أحيانًا في اليأس

قال عليه السلام: «**قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً**».

قد تَغيبُ عن فكرِ الإنسانِ العديدُ من المصالح والأسرارِ، ويظنُّ أنَّ فقدانَ شيءٍ ما يضرُّ بمصلحتِه، على الرَّغمَ من أنَّ ذلكَ كان في مصلحتِه،

١- مجمع البحرين: ص١٣٢.
٢- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٦٠.
٣- الكافي: ج ٢، ص ١٦٣.

وقد جلبَ له فائدةً أكبر ممَّا يدركه، وعلى ذلكَ العديدُ من التَّجارب، وفي هذه الحالةِ سيدركُ أنَّ ما حدثَ كان أفضلَ له، وأنَّه كان يسعى وراءَ ما يضرُّه ولا ينفعه، وهنا ستكونُ حالةُ اليأسِ التي عاشَها بمثابة إدراك لما كان يرغبُ فيهِ أو أكثر من ذلكَ؛ إذ لم يخلُ ذلك من منفعة.

إنَّ الطَّمع أحيانًا يؤدِّي إلى الهلاك؛ فبدلًا من استثمار تلكَ النِّعم في طاعةِ اللهِ سُبحانهُ وتعالى يستغلُّها في أبواب تفتحُ عليهِ الوزر والإثم؛ فكأنَّ حاله السَّابق من الفقر أفضل له وأحسن من إدراك مساعيه؛ ولهذا على الإنسان أن يفكِّر قبلَ أن يطمعَ في شيءٍ هل في ذلك مصلحته أم لا؟ «وأن يضعَ نصبَ عينيهِ أنَّ اليأسَ من بعضِ مطالب الدُّنيا قد يكونُ سببًا للسلامة من الهلاكِ، وإدراكِ النَّجاةِ منه؛ وذلكَ عندما يكونُ الطَّمعُ في ذلكَ المطلوب مستلزمًا للهلاكِ كالطَّمعِ في نيلِ ملكٍ ونحوهِ»[1].

وهذه قاعدة عامَّة في مختلفِ مجالاتِ الحياةِ؛ مثل الزَّواج، والعمل، والوظيفة، وغيرها؛ لذا، إذا سعى الإنسانُ بجدٍّ ولم يحصلْ على ما يريد، عليهِ أن يعلمَ أنَّ ذلكَ في مصلحتهِ وتوفيقِهِ، وينبغي لهُ أنْ لا يحزن على ما فاتهُ من مكاسب ومنافع، فكلُّ تلكَ الأمور لم تكنْ لتنفعَهُ أو تضيف له شيئًا؛ بل على العكسِ، ربما كانت ستأخذُ منهُ كثيرًا وتعرِّضه لمخاطر الهلاك.

إنَّ حسنَ الظَّنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ والثِّقة بحكمته وتسليم الأمرِ له جلَّ جلاله كفيلٌ بتحويل كلِّ خسارة إلى ربح، وكلُّ ضَعفٍ إلى قوَّة وكلُّ قليل إلى كثير؛ فهو سُبحانهُ وتعالى بيدهِ خزائنُ كلِّ شيءٍ، ولكن لابدَّ من اتِّباعِ الأسبابِ في الحصولِ على كلِّ ذلك.

١- ينظر: نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦٢٦.

الفرع الثَّامن: سترُ العورة

قال عليه السلام: «**لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ**».

«العورةُ سوءةُ الإنسانِ، وذلكَ كنايةٌ؛ وأصلُها من العار، وذلكَ لما يلحق في ظهورِهِ من العار؛ أي المذمَّة»[١].

وهنا احتمالات عدَّة لتفسيرها:

الاحتمال الأوَّل: «لا يغتم الإنسانُ لما يعلم من عورات نفسهِ ونقائصهِ التي لا علاجَ له عنده؛ إذ لا تظهر للناسِ كلُّ عورة...»[٢].

الاحتمال الثَّاني: «قد تكونُ عورةُ العدو وعيوبُه مستترة عنك، فلا تظهر لكَ، ولا يمكنك إصابتها»[٣].

الاحتمال الثَّالث: «لا تظهر عيوبَكَ وعوراتك أمامَ الآخرينَ؛ فبعضُ العورات ممكن أن يستغلَّها البعضُ في دمارك وتحطيم شخصيتِك؛ بل اعمل على علاجِها بالقدر المستطاع حتَّى تنتهي وتزولُ»[٤].

الاحتمال الرَّابع: إذا كنت تعتقدُ بأنَّ بعضَ الناس له شخصيَّة متكاملة ولا عيبَ فيه؛ فلا تغتر بهذهِ الحالةِ الظَّاهريَّة؛ فغيرُ المعصوم عليه السلام معرَّض للعيوبِ، وإذا كان هذا ينبغي الحذر في التَّعامل، وأن يكونَ ضمنَ الحكمةِ والمعرفةِ»[٥].

الاحتمال الخامس: إذا رأى الإنسانُ نفسَهُ سليماً من العيوبِ؛ فلا يغتر بذلكَ، فربماَّ تظهر عورة بعد ذلكَ؛ لذا ينبغي المراقبة في كلِّ وقت والمحاسبةُ واصلاحُ العيوبِ والعورات.

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٩٥.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٣.
٣- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦٢٦.
٤- ينظر: الوصيَّة الخالدة: ص٢١١.
٥- ينظر: نفحات الولاية: ج ٩، ص٥٩٢.

الفرع التَّاسع: إصابة الفرصة

قال عليه السلام: «**وَلاَ كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ**».

في بعضِ الأحيانِ فقدانُ الفرصةِ غُصَّة تضغطُ على صاحبِها، وتلومُهُ، وتؤنِّبُهُ، وتجعلُهُ حبيسَ الماضي، ولا يذكرها إلَّا ويتحسَّرُ؛ وهذا بدورِهِ يؤثِّرُ على المستقبل؛ فمن أرادَ إصلاحَ مستقبلِهِ عليهِ أن يفيدَ من الماضي بأن يجعلَهُ وراءَهُ، ولا ينظر إليهِ إلَّا في مجالِ الإفادةِ منه لبناءِ المستقبل، وخيرُ علاج ودواء لدفعِ تلكَ الحسرات أن يتنبَّهَ أنَّ فقدانَ الفرصةِ أمر طبيعيٌّ في بعضِ الأحيانِ؛ لأنَّ ورودَها كان بشكل مفاجئ؛ وهذا ممَّا سبَّب عدم انتهازِها واستثمارِها، «ويحتملُ أن يكونَ المعنى بالعكس؛ وأريد من الجملةِ التَّحريض على انتهازِ الفرصةِ متى ما سنحَتْ؛ إذ يمكن أن لا يصيب الإنسانُ مثلَها؛ فهكذا تجري الأمورُ»[1].

الفرع العاشر: إدراك الغايات

قال عليه السلام: «**وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ**».

هناكَ أكثرُ من معنى محتمل لهذهِ الكلمة:

المعنى الأوَّل: قد تغيبُ عنَّا العديدُ من الحقائق على الرَّغم من أهميَّتِها وضرورتِها في فهمِ مسارِ الحياةِ ومجالاتِها؛ فقد يسعى البصيرُ العاقلُ صاحبُ الذِّهنِ الفطن لإدراك هدف معيَّن مع توفرِ كلِّ شرائطِ تحقيقِهِ إلَّا إنَّه في لحظة تتغيرُ كلُّ القواعد التي كان متأكِّدًا من وجودِها وبقائِها، وإذا به يُخطئ الهدفَ والقصدَ مع أنَّ الحسابات التي أعدَّها لإنجاز ذلكَ العملِ كانت دقيقة؛ فلا يبلغُ

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٣.

مرادَه، وفي الوقت نفسه، قد يتمكَّن شخص متَّصف بالجهل من بلوغ مراده، ويظفر بالمقصود، ويهتدي له؛ ومن هذه النقطة فإنَّ الظَّفرَ وعدمَه من الطَّرفين يخضعُ للحكمةِ التي قد نجهلُ أكثرها، وليس أمامنا إلَّا التَّسليم لمقاديرِ الأمور، وإنَّ هناك فوائد قد لا نعلمُها تقعُ في صالحِنا، وفي ذلكَ التَّسليةُ عن الحزنِ والنَّدمِ على ما يفوتُ من الفرص بعد توافرِها؛ فقد يزلُّ العالمُ، ويخطئُ الحكيمُ.

ثمَّ إنَّ التَّفكيرَ في أفعالِ كلا الطَّرفين والإفادةِ منها ليس مقتصرًا على البصيرِ فقط؛ بل حتَّى الأعمى الجاهل قد يحملُ في بعضِ أفعالهِ صوابًا؛ وربَّ كلمة من أعمى أعمق من قولِ بصير، وقد يتفوَّقُ تصرفُ جاهل على جهودِ بصير في الوصولِ إلى الهدف؛ فلنتأمَّل في أفعالِهما وسعيِهما.

المعنى الثَّاني: لعلَّ هذا تحريض للإنسان على الطَّلبِ والسَّعي والعمل المتواصل؛ إذ ربما يصيب الأعمى رشدًا إذا جدَّ واجتهد.

المعنى الثَّالث: عدم الاعتداد بالنَّفس حدَّ الإفراط والتَّفريط ومدحِها والرُّكون إليها، والاعتقاد يقينًا بعدم تبدُّل الحالةِ من الصَّلاحِ إلى الضَّلالِ، ومن الإيمانِ إلى الكفرِ، ولا يؤمنُ هذا إلى آخرِ لحظة من لحظات الحياةِ، وهذا المعنى نستطيع معرفته إذا علمنا معنى لفظ الرُّشد، وأنَّه «خلاف الغي يستعملُ استعمال الهداية»[1].

وهذه القضيَّة من الحقائق التي عليها العديدُ من تجاربِ السَّابقينَ واللاحقين؛ فكم من بصيرٍ ضيَّع قصدَه، وكم من أعمى رجعَ إلى الهدايةِ؛ وفي ذلكَ تذكير بضرورةِ الحذر في كلِّ لحظة، وكلِّ حركة، وكلِّ فعل نقومُ به؛ فقد يكونُ المصيرُ مرتبطًا به.

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص٣٥٤.

المبحثُ الثَّالثُ

فنُّ الإدَارَة والتَّعاون

المطلب الأوَّل: تجفيف منابع الشَّر

قالَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «**أَخِّرِ الشَّرَّ، فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ، مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ، إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ**»(١).

الوقايةُ من الشَّرِّ أفضلُ بكثيرٍ من السَّعي لإيجادِ العلاجِ بعدَ وقوعِه، وفي هذه الكلمات يقدِّم أمير المؤمنين عليه السلام مجموعةً من الأحكامِ التي تساعدُ على تفادي الوقوعِ في الشَّر، ممَّا يجعلُ صاحبَها في مأمن من عواقبه، واتِّباعَ هذه التَّوجيهات يمثِّل سلوكًا حكيمًا يقي الإنسانَ من المتاعب والمخاطر، ويضمنُ له حياة أكثر استقرارًا وأمانًا؛ والأحكامُ هي:

الفرع الأوَّل: الابتعاد عن الشَّرِّ

قالَ الإمامُ عليه السلام: «**أَخِّرِ الشَّرَّ، فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ**».

«العجلةُ طلبُ الشَّيءِ، وتحريه قبلَ أوانِه؛ وهو من مقتضى الشَّهوة، ولذلكَ صارت مذمومة في عامَّة القرآنِ حتَّى قيلَ: العجلةُ من الشَّيطان»(٢).

وتأخيرُ الشرِّ وتقديمُه تحتَ يدِ الإنسان، ويستطيع باختيارِه أن يوقعَه إذا أرادَ أن يفعلَهُ؛ لذا من الأفضل تأخيره لعلَّه ينصرف عنه فلا يفعله.

وقد يبرِّرُ بعضُ الناس أنَّه لا يستطيع السَّيطرة على نفسِه عندَ وقت الشَّر؛ لكن الإمامَ عليه السلام يبرهن أنَّه قادر على هجران الشِّر بما أعطاه اللهُ سبحانه وتعالى من حريَّة الحركةِ والاختيار.

١- نهج البلاغة، (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٥.
٢- مفردات ألفاظ القرآن: ص٥٤٨.

إنَّ الاستعجالَ في إبداءِ الشَّرِّ قد يفتحُ على الإنسانِ أبوابًا من المشاكل، وبعضُها قد يؤدِّي إلى هلاكِه؛ وكم من لحظةِ شرٍّ أُخِّرَت قادت إلى نتائج طيِّبة، وكم من لحظة لم يُسَيطرُ عليها، وإذا بها حطَّمت أسرة، وفككتها، أو راح ضحيَّتها بعض الأشخاص.

إنَّ الفرقَ بين الخيرِ والشَّر؛ يكمن في أنَّ مقدِّماتِ الشَّر تكونُ أسهلَ من مقدِّمات الخير؛ كونها تحاولُ أن تغذِّي شهواتِ الإنسانِ وغرائزَه بخلافِ مقدِّمات الخير التي تهدفُ إلى إرواءِ العقلِ والرُّوح، ثمَّ أنَّ الشَّر أسرعُ في هدم مقدِّمات الكمال؛ ولذلك، في لحظة استعجال الشَّر، قد يفرِّط الإنسانُ في كلِّ المكاسب وأعمالِ الخير التي كان يسعى جاهدًا لتحقيقها؛ وبعد ذلكَ لا يجني العبدُ إلَّا النَّدم والحسرة؛ ولذلكَ ابدأ بالحسنةِ قبلَ السَّيئة، فإنَّ فعلَ الخيرِ قد لا يتاحُ لكَ في كلِّ حين، أمَّا الإساءة فهي في متناولك متى أردت.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي قَالَ: اذْهَبْ وَلا تَغْضَبْ. فَقَالَ الرَّجُلُ: قَدْ اكْتَفَيْتُ بِذَاكَ فَمَضَى إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا بَيْنَ قَوْمِهِ حَرْبٌ قَدْ قَامُوا صُفُوفًا وَلَبِسُوا السِّلاحَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ لَبِسَ سِلاحَهُ، ثُمَّ قَامَ مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لا تَغْضَبْ فَرَمَى السِّلاحَ، ثُمَّ جَاءَ يَمْشِي إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ عَدُوُّ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلاءِ مَا كَانَتْ لَكُمْ مِنْ جِرَاحَةٍ أَوْ قَتْلٍ أَوْ ضَرْبٍ لَيْسَ فِيهِ أَثَرٌ فَعَلَيَّ فِي مَالِي أَنَا أُوفِيكُمُوهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: فَمَا كَانَ فَهُوَ لَكُمْ، نَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْكُمْ. قَالَ: فَاصْطَلَحَ الْقَوْمُ وَذَهَبَ الْغَضَبُ**»[١].

١- الكافي: ج ٢، ص ٣٠٤.

الفرع الثَّاني: قطيعة الجاهل

قال(عليه السلام): «**قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ**».

التَّواصلُ ليس سِمةً ثابتة يَحثُّ عليها الإسلامُ؛ بل في بعضِ الأحيانِ يجب القطعُ إذا كانت العلاقةُ تحملُ ضررًا لا يوافقُ عليه الشَّرعُ المقدَّس، وخاصَّة إذا لم تكنْ العلاقةُ بهدفِ الإرشادِ والتَّوجيهِ الذي قد يكونُ لهُ تأثير إيجابي؛ فالقطيعةُ هنا تؤدِّي إلى الرَّاحةِ والحفاظِ على الأخلاقِ وتحاشي اكتساب الصِّفاتِ السَّيئة؛ وفائدةُ قطيعةِ الجاهلِ تتجلَّى بنفسِها كما لو كانت من مواصلةِ العاقلِ.

ومن هذه الكلمةِ نعرف مدى أهميَّةِ الاقترابِ من أصحابِ العقولِ وصلتِهم والتَّواصلِ معهم، والابتعادِ عن الجهلِ والجهلاء؛ قالَ اللهُ(عزّ وجلّ): ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[١].

وقال(جلّ جلاله): ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾[٢].

وروي عن رسولِ الله(صلّى الله عليه وآله) بأنَّه قال: «**أحكَمُ النَّاسِ مَنْ فرَّ من جُهَّالِ النَّاسِ**»[٣].

وعن أمير المؤمنين(عليه السلام): «**لَا تَصْحَبْ مَنْ فَاتَهُ الْعَقْلُ، وَلَا تَصْطَنِعْ مَنْ خَانَهُ الْأَصْلُ فَإِنَّ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ يَضُرُّكَ مِنْ حَيْثُ يَرَى أَنَّهُ يَنْفَعُكَ، وَمَنْ لَا أَصْلَ لَهُ يُسِيءُ إِلَى مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ**»[٤].

١- سورة الأعراف/ الآية: ١٩٩.
٢ - سورة الفرقان/ الآية: ٦٣.
٣- من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص ٣٩٥.
٤- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٥٢٦.

الفرع الثَّالث: الحذر من الزَّمان

قال عليه السلام: «**مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ**».

الاستعدادُ ووجوبُ الحذر ودوامُ ملاحظة تغيُّرات ومتطلّبات الزَّمانِ وتوقعها، وتحصيلُ الزَّادِ والأعمال الصَّالحة هي أفضل سبيلٍ نواجهُ بها خيانةَ الزَّمانِ لو تغيَّر في لحظةٍ ما، وأظهرَ لنا وجهَهُ الحقيقيَّ؛ فمن اغترَّ بشبابه، سيأتي الزَّمان ليخونه ويحوِّل حاله إلى شيخوخة، ومن اغترَّ بأمواله، فقد تخونه هي الأخرى ويخسرها جميعها، ومن اغترَّ بملكه، فإنَّ الزَّمان قد يخونه، وفي لحظةٍ ما قد يضيع كلّ ما يملك.

إنَّ الحذرَ مِنَ الزَّمانِ يكونُ بإعدادِ الزَّاد، وتحصيلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، واستثمارِ فرصِ الخيرِ، والعملِ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ والابتعاد عن معاصيه، وخدمةِ عيالِ الله جلَّ جلاله، والتَّخلُّق بالأخلاقِ الحسنةِ، وحتَّى لو خانهُ الدَّهرُ بعدَ كلِّ هذا فلن يخسرَ شيئًا؛ بل عندنا في بعض الرِّوايات أنَّ الإنسانَ حينما كان شابًا، واستثمر فرص الخير، أو كان غنيًا، واستثمر فرص الخير فحينما يخونهُ الدَّهر، فيمرضُ، أو يضعفُ أو يفتقرُ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يكتبُ لهُ آثارَ تلكَ الأعمالِ الطَّيبة حتَّى لو لم يكنْ يعملُها في وقتِ الضَّعفِ والمرضِ؛ عن النبي صلَّى الله عليه وآله: «إذا كانَ العبدُ يعملُ عملًا صالحًا فَشغلهَ عنه مرضٌ أو سفر كتبَ لهُ كصالح ما كانَ يعملُ، وهوَ صحيحٌ مقيم»[١].

أمَّا الكسلُ، وضياعُ العمرِ بالمحرَّماتِ والمباحاتِ والشَّهواتِ والغرائزِ من دون طاعة وعمل صالح؛ فهذا منتهى الأمانِ للزَّمانِ، وخيانةُ الزَّمان

١- كنز العمال، المتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ)، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، النَّاشر: مؤسَّسة الرسالة، بيروت - لبنان، تحقيق وضبط: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا: ج ٣، ص٣١٠.

هنا أشدُّ وطأة على الإنسانِ؛ إذ بعد ذلك يندمُ ويتحسَّرُ ولا ينفعُ النَّدم؛ فالاعتمادُ على الدُّنيا والمواهب المادِّية، والنِّعم الدُّنيوية؛ مثل الجمالِ والثَّروات والوجاهة الاجتماعيَّة معرَّض للزوال إن لم تُستثمر في طاعةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمطمئُن للزَّمان هو من يعتمدُ عليها ويسكنُ إليها، ولكن إذا زالت، سيواجه صدمة الخيانة؛ وقد نقلَ لنا التَّأريخ كثيرًا من قصص الملوك الذينَ كانوا يعتقدونَ أنَّ تلكَ النِّعم ستدومُ لهم، ولكن لما دار الزَّمانُ بهم تحوَّلوا من قصورِهم إلى قبورِهم، ومن غناهم إلى فقرِهم، ومن مَلِكٍ يأمرُ إلى عبدٍ يأتمر.

أمَّا المعنى لتكملة الكلمة: «**وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ**».

فقد وردت احتمالات عدَّة في بيان هذه الدُّرَّة العلوية:

الاحتمال الأوَّل: «إنَّ تعظيم الزَّمان؛ يقصد به تعظيم الدُّنيا وما تشتملُ من لذائذ الخيرات والاشتغال بها؛ فيغفلُ بسبب محبَّتها عن الاستعدادِ لما ورائه، فيمكرُ به الزَّمانُ في هذهِ الحالةِ، ويهينه بفراقِ تلكَ الدُّنيا، ويصبحُ حقيرًا بعد أن كان أميرًا، ويصبحُ صغيرًا بعد أن كان كبيرًا، ويصبحُ قليلًا بعد أن كان كثيرًا...»[1].

الاحتمال الثَّاني: «أي خاف وتهيَّب وأهاب الحوادث، فلم يقدم في مطالبِهِ؛ فذلكَ مما يجعله مهينًا، فإنَّ من هاب شيئًا لم يقدر على التَّغلب عليه»[2].

الاحتمال الثَّالث: فُسّرت الجملة الأولى أنَّ المقصود من الزَّمان (أهلُ الزَّمان)، فلا ينبغي أن نثقَ ثقة عمياء بجميعِهم؛ فربما يغدرُ بعضُهم ويخونك؛ «وقد ورد

١- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٦٢.
٢- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٨٣.

معنى آخر في هذه الكلمة وأنَّ التَّعظيمَ المقصود به هو تعظيمُ أصحاب الثَّروة والقدرة والطُّغاة؛ لأنَّ الزَّمانَ ليس بجسم يُحس لكي لا يحقر أو يقدر، وليس من شكٍ إنَّ تعظيم هؤلاء يورث الذُّلَّ والهوانَ، فقد وردت روايات بشأن ذلك»[١].

الفرع الرَّابع: التَّكليف عند عدم إصابة الهدف

قال عليه السلام: «**لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ**».

ارتكابُ الأخطاءِ في إدراكِ هدف معيَّن أو الفشلُ في الحصولِ على حاجة معيَّنة من جملةِ القضايا التي تضغطُ على النَّفسِ، فتؤثِّر عليها سلبًا، وتحاولُ أن تورثَها اليأسَ والإحباطَ والضَّعفَ وتلقينَها عدم القدرة؛ فتقعدُ النَّفسُ عن المحاولةِ مرَّة بعد أخرى إلى أن تصلَ حدَّ الاعترافِ بالفشلِ والتَّأسفِ على ما فاتَ من نيلِ المطالبِ، وفي هذه الكلمة يؤكِّدُ الإمامُ عليه السلام على تركِ التَّأسُّف على ما فاتَ، فعدمُ إصابةِ السَّهم للهدف ليس حالة حاصلة دائمة؛ وإنَّما من الممكن أن يصيبَ، ومن الممكن أن يخطأ، وبناءً على ذلك، لا يحزن إذا أخطأ الهدف، وهناك دروس عدَّة نستطيع الإفادة منها:

الدَّرسُ الأوَّل: إنَّ الإصابةَ تحتاجُ إلى توفيق بعدَ التَّمرينِ والاستعدادِ وأخذِ الحيطة وتحقيقِ المقدِّمات، ومن يطلبُ من دون تحقيقِ ما يلزم؛ فذلكَ يعرِّض نفسه للخطأ في الإصابة.

الدَّرس الثَّاني: لا تحزن إذا أخطأتَ الهدفَ؛ بل حاولْ مرَّة أخرى وأخرى حتَّى تصيب؛ فإدراكُ الهدفِ قد يمرُّ بكثير من الفشلِ؛ حتَّى تصلَ في نهايةِ الأمرِ إلى النَّجاح.

١- ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ج٥، ص٢٥١. نفحات الولاية: ج ٩، ص٥٩٦.

الدَّرس الثَّالث: لا تعجب، ولا تغترَّ برأيك دائماً، بل تقبّلْ النَّقدَ، وتوقَّع الخطأَ، فما دمت غير معصوم لا تأمن من الخطأ.

الدَّرس الرَّابع: حتَّى لو قدَّمت وحقَّقتَ كلَّ مقدِّماتِ تحقيقِ الأهداف؛ فعدم الإصابة قد تحدثُ لحكمة قد لا نعرفُها؛ لذا، ينبغي ألَّا نهتمَّ للإخفاقاتِ التي تواجهُنا ما دمنا قمنا بالمطلوبِ والممكن، ولم نتراجع في ذلكَ.

الدَّرس الخامس: لا توبِّخ الآخرين وتنتقدهم إذا أخطأوا بأنَّهم ليسوا أهلاً لذلكَ؛ بل خذْ الأمرَ بصورة طبيعيَّة، وحاولْ أن تأخذَ بأيديهِم حتَّى يتقنوا ما أخطأوا فيه.

الفرع الخامس: تغيُّر الزمان

قال عليه السلام: «**إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ**».

ممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ للسلطات الحاكمة على أيِّ بلد من البلدان التَّأثير الأكبر في نمطِ سلوكِها وتفكيرِها وأفعالِها وأخلاقِها وتقدُّمِها وتأخُّرِها؛ لأنَّ ما يسري إلى المجتمع هو الخلقُ الموجودُ لدى ذلكَ السُّلطان؛ فإذا كانت نيَّتُه الخيرَ، وأفعالُه التَّقوى، وسياستُه العدلَ؛ تغيَّرَ المجتمعُ بتلكَ الصِّفات؛ وأمَّا إن كانت أفكارُه الظُّلمَ والجورَ والطُّغيانَ تلوَّن المجتمعُ بتلكَ الألوان الدَّامية؛ فالنَّاسُ على دينِ ملوكِهم في الغالب، والاطِّلاعُ والتَّأمُّلُ في سيرةِ الملوكِ والسَّلاطين يعطيكَ فكرة واضحة لهذهِ القاعدة.

إنَّ مقدارَ الالتزام لدى السُّلطان أو الملك ينعكسُ في الغالبِ على كلِّ الرَّعيَّة؛ فإذا كان صالحًا انعكسَ صلاحُه على المجتمع، وإن كان سيئًا انعكسَ على المجتمع، وسادَ الفسادُ والظُّلمُ بينَ أفرادِه.

إنَّ فرصةَ الوصولِ إلى السُّلطةِ، أو الملك فرصة لا بدَّ من استثمارها في إصلاحِ الدُّنيا والآخرة لمن وصلَها، ولا يحتاجُ ذلكَ إلَّا إضمار النِّيَّة الصَّالحة ونشر العدلِ والإحسانِ وخدمة عيالِ الله عزّ وجلّ؛ لكن المؤسفَ أن يستغلها بعضُ الناس في ظلمِ شعوبهم وقهرِها وافتقارِها، ولكن عليهم أن يعلموا أنَّها لن تدومَ لهم، ولو دامت لغيرِهم لما أتت ووصلت إليهم.

الفرع السَّادس: اختيار الرَّفيق والجار

قال عليه السلام: «**سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ**».

السَّفرُ والاستقرارُ كلاهما يحتاجانِ إلى تدبُّر وتأمُّل ودراسة قبلَ الإتيانِ بهما؛ فيلزم للمسافرِ من رفيق يتَّصفُ بالصِّفات الطَّيِّبة؛ حتَّى يهنأ بالسَّفرِ، ويحصلَ على مراده، وفي المثل: الرَّفيق إمَّا رحيق أو حريق؛ فإمَّا أن يغمرَكَ بأخلاقهِ الطَّيبة، وإمَّا أن يحرقَك بصفاتهِ السَّيئة؛ ولذلكَ نجدُ التَّأكيدَ في رواياتِ المعصومينَ عليهم السلام على أهميَّةِ اختيارِ الرَّفيق في السَّفر، وأن تتوفَّرَ فيه مجموعة من الصِّفات؛ وإلَّا كان ذلكَ السَّفرُ لا خيرَ فيهِ، ولا قيمةَ له.

وقد يرادُ من هذهِ الكلمةِ معنًى آخر إضافة إلى المعنى الأوَّل؛ وهو أن يكثرَ الإنسانُ السُّؤالَ على أعمالِه التي سترافقُهُ في طريقهِ إلى الآخرةِ؛ فيسألُ عن عقائدِهِ وعن أحكامِهِ التي يُبتلى بها وعن أخلاقِهِ حتَّى يأمن من عواقبِ محطَّات ذلكَ السَّفرِ الطَّويل.

وأمَّا الأمرُ الثَّاني، والأساسي في جانبِ الاستقرارِ اختيارُ الجارِ قبلَ الدَّارِ؛ والواقعُ إن كان جارُ الإنسانِ سيئًا كان في عذاب دائم وضرر مستمر ووقوع في الحرام في بعضِ الأحيان؛ خاصَّة إذا كان الجارُ ضعيفَ الإيمان.

عَـنْ أَبِي جَعْفَـرٍ عليه السلام قَـالَ: «**جَـاءَ رَجُـلٌ إِلَى النَّبِـيِّ** صلى الله عليه وآله **فَشَـكَا إِلَيْـهِ أَذًى مِـنْ جَـارِهِ، فَقَـالَ لَـهُ رَسُـولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله: **اصْـبِرْ، ثُـمَّ أَتَـاهُ ثَانِيَـةً، فَقَـالَ لَـهُ النَّبِـيُّ** صلى الله عليه وآله: **اصْبِرْ، ثُـمَّ عَـادَ إِلَيْـهِ فَشَكَاهُ ثَالِثَـةً، فَقَـالَ النَّبِيُّ** صلى الله عليه وآله **لِلرَّجُـلِ الَّـذِي شَـكَا: إِذَا كَانَ عِنْـدَ رَوَاحِ النَّـاسِ إِلَى الْجُمُعَـةِ، فَأَخْـرِجْ مَتَاعَـكَ إِلَى الطَّـرِيـقِ حَتَّـى يَـرَاهُ مَـنْ يَـرُوحُ إِلَى الْجُمُعَـةِ، فَـإِذَا سَـأَلُـوكَ فَأَخْبِرْهُـمْ. قَـالَ: فَفَعَـلَ؛ فَـأَتَـاهُ جَـارُهُ الْمُؤْذِي لَـهُ. فَقَـالَ لَـهُ: رُدَّ مَتَاعَـكَ فَلَـكَ اللهِ عَلَـيَّ أَنْ لا أَعُـودَ**»(١).

وعَـنْ أَبِي جَعْفَـرٍ عليه السلام قَـالَ: «**مِـنَ الْقَـوَاصِـمِ الْفَـوَاقِـرِ الَّتِـي تَقْصِـمُ الظَّهْـرَ جَـارُ السَّـوْءِ؛ إِنْ رَأَى حَسَـنَـةً أَخْفَـاهَـا، وَإِنْ رَأَى سَـيِّئَـةً أَفْشَـاهَا**»(٢).

وعَـنْ أَبِي عَبْـدِ اللهِ عليه السلام قَـالَ: «**قَـالَ رَسُـولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله **كُـلُّ أَرْبَعِـينَ دَارًا جِـيرَانٌ مِـنْ بَـيْنِ يَدَيْـهِ وَمِـنْ خَلْفِـهِ وَعَـنْ يَمِينِـهِ وَعَـنْ شِـمَالِـهِ**»(٣).

الفرع السَّابع: الإفراط في المزاح والضّحك

قـال عليه السلام: «**إِيَّـاكَ أَنْ تَذْكُـرَ مِـنَ الْـكَلَامِ مَـا يَكُـونُ مُضْحِـكًا، وَإِنْ حَكَيْـتَ ذلِـكَ عَـنْ غَـيْرِكَ**».

قـد يتصـوَّر بعـضُ النـاس عنـدَ اطِّلاعـه عـلى هـذه الكلمـة أنَّ الإسـلامَ يبغـضُ المـزاحَ والضَّحـك بقرينـة «**إيَّـاك**»؛ أي التَّحذيـر مـن هـذا الفعل؛ لكـن حقيقـةَ الأمـر أنَّ الإسـلامَ جعـلَ موازيـنَ لذلـكَ؛ حتَّـى لا يسـلب الضَّحـكُ الهيبـةَ والوقـارَ، ويتسـبَّبُ في ضـرر الآخريـنَ والسُّـخرية منهـم حتَّـى وإن كانَ الـكلامُ لا يخصُّـك، وإنَّـما السُّـوء في الإضحـاك، وإن كانَ مـن غـيرِك؛ ولعـلَّ

١- الكافي: ج ٢، ص ٦٦٨.

٢- م.ن: ص ٦٦٨.

٣- الذريعة إلى حافظ الشريعة (شرح أصول الكافي جيلاني): ج ١، ص ١١٧.

تنبيه الإمام عليه السلام ألَّا يكون منهُ، أو من غيرِه حتَّى لا يهتك قيمتَهُ، ولا يهتك حرمةَ الآخرينَ ثانيًا.

إنَّ الإسلامَ يدعو إلى الكلامِ اللطيفِ والمزاحِ والتَّبسُّم وإدخالِ السُّرورِ على الآخرين، ولكن ضمنَ أحكام تؤطِّر ذلكَ الفعل، وأن لا يخرج من مجال إدخال السرور إلى مجال ارتكاب المحرَّمات ودخولِ نارِ جهنَّم؛ والخلاصةُ ينبغي أن تكونَ في حدِّ الاعتدالِ، وألَّا يكون فيها تجاوزٌ على الحرماتِ؛ مثل الكذب والغيبة، وألَّا يهتكَ قيمة النَّفسِ أو قيمة الآخرينَ.

«فإن قيلَ: قد نقل المزاح عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فكيف ينهى عنه؟ فنقول: إن قدرتَ على ما قدر عليهِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله؛ وهو أن تمزحَ، ولا تقول إلَّا حقًا، ولا تؤذي قلبًا، ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحيانًا نادرًا، فلا حرجَ عليكَ فيه، ولكن من الخطأ العظيم أن يتَّخذَ الإنسانُ المزاحَ ديدَنه، ويواظب عليه، ويفرط فيه فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان كثير التبسُّم؛ وَمِنْ مِزاحِهِ صلى الله عليه وآله: **أَتَت امْرَأَةٌ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ** صلى الله عليه وآله **فَقَالَ** صلى الله عليه وآله: **لا تَدْخُل الْجَنَّةَ عَجُوزٌ، فَبَكَتْ، فقَالَ: إِنَّكِ لَسْتِ يَوْمَئِذٍ بِعَجُوزٍ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً﴾**[1]»[2].

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِيهِ دُعَابَةٌ**».

قُلْتُ: وَمَا الدُّعَابَةُ؟ قَالَ: «**الْمِزَاحُ**»[3].

وقد وردتْ رواياتٌ عديدة عن أميرِ المؤمنينَ عليه السلام تحذِّر من المزاحِ إن كان فاقدًا للشروط؛ لأنَّه يولِّد العديدَ من الأضرار؛ ومن كلماته عليه السلام:

١- سورة الواقعة/ الآية: ٣٥- ٣٦.
٢- ينظر: جامع السعادات: ج ٢، ص ٢٢٣.
٣- الكافي: ج ٢، ص ٦٦٣.

- «لَا تُكْثِرَنَّ الضَّحِكَ فَتَذْهَبَ هَيْبَتُكَ، وَلَا الْمِزَاحَ فَيُسْتَخَفَّ بِكَ»[١].
- «لَا تُمَازِحَنَّ صَدِيقًا فَيُعَادِيَكَ، وَلَا عَدُوًّا فَيُرْدِيَكَ»[٢].
- «مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الهَزْلُ فَسَدَ عَقْلُهُ»[٣].
- «مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ مَاتَ قَلْبُهُ»[٤].
- «دَعِ الْمِزَاحَ فَإِنَّهُ لِقَاحُ الضَّغِينَةِ»[٥].

ومن يتأمَّل في هذهِ النصوص يلحظ تحذيرًا دقيقًا من الإفراط في الضَّحكِ والمزاحِ، لما يترتب عليهِ من زوالِ الهيبة، وخلل في العقل، واضطراب في التَّفاعل الاجتماعي.

١- عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ص ٥١٩.
٢- م.ن: ص ٥٢٩.
٣- تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٢٢.
٤- عيون الحكم والمواعظ (الليثي)، ص ٤٣٠.
٥- م.ن: ص٢٥٠.

المطلب الثَّاني: التَّعامل مع المرأة

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ، وَلاَ تُمَلِّكِ المَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ المَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ، وَلاَ تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلاَ تُطْمِعْهَا [في] أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا، وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ»[١].

أعطى الإسلامُ للمرأةِ كرامتَها ودورَها الذي يتناسبُ مع طبيعةِ خلقِها، ما لم يُعطِهِ أيُّ فكرٍ حاولَ أن يشرِّعَ للمرأةِ حقوقًا وأحكامًا؛ لكن بعدَ ذلك اكتشفَ أنه كان على خطأٍ، وأنَّه بدلًا من الحفاظِ عليها، أضاعَ هويتها وكيانها ووجودها وعزَّتها، وجعلها بضاعةً رخيصةً بيدِ الجهَّالِ وأصحابِ الشَّهواتِ والغرائزِ.

أمَّا الإسلامُ فكرَّم المرأةَ بنتًا، وكرَّمها أختًا، وكرَّمها زوجةً، وكرَّمها أمًّا؛ إنَّها في دائرةِ الكرامةِ منذُ بدايةِ وجودِها وإلى آخر لحظات حياتِها؛ فقد أكَّد الإسلامُ على حبِّ البناتِ وهنَّ صغار، وتقديمهنَّ في العطيةِ والهديةِ، ثمَّ كرَّمها وهي زوجةً يجبُ الإنفاقُ عليها والمحافظةُ عليها بما يتناسبُ مع وجودِها، وأنَّها غيرُ مسؤولةٍ عن كلِّ أمور الخدمة المنزليَّة، لكن إذا أرادتْ وفعلتْ كُتِبَ أجرُ ذلك لها حتَّى في رفع كأسِ ماءٍ إلى زوجِها، وكرَّمها أمًّا بما لا يوصف من البرِّ بها والرَّأفة بها، وأنَّ رضا الله سبحانه وتعالى مقرون برضاها.

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٥.

إنَّ الجهَل بما أعطى الإسلامُ للمرأةِ من الحقوق دفع بعضَ المنتفعين إلى محاولة الانتقاص من مقامِها، ودعوتها إلى الخروج عن خطِّ التَّقدير والتَّكريم لها، وجعلها بضاعةً رخيصةً كما يفعلُ الغربُ والمادحونَ لهم؛ إلَّا أنَّ الحقيقة لا يَحجبها شيءٌ، فبعدَ كلِّ هذهِ الدعواتِ رجعَ حتَّى أولئكَ الذينَ كانوا يدعونَ إلى خروجِ المرأةِ من مضمارِ الصِّيانةِ والعزَّةِ إلى مضمارِ الإباحةِ والرُّخصِ؛ وقالوا: بأنَّ الإسلامَ وأحكامَهُ هو المحافظُ الوحيدُ للمرأةِ؛ وأنَّ المرأةَ إذا أرادتِ الفوزَ والفلاحَ والحياةَ الطيِّبةَ فما عليها إلَّا أن تسيرَ على وفق خطِّ الاستقامةِ المرسوم لها، وإذا كانت بعضُ الأمورِ غيرَ واضحةٍ لها فعليها أن تسألَ فيها، وتتابعَ، وتعرفَ فلسفتَها وعللَها حتَّى تكونَ على بصيرةٍ، ولا تؤثِّرُ فيها الأفكار المسمومةُ التي تهدفُ إلى تحويلِها إلى سلعةٍ رخيصةٍ وظيفتها إطفاءُ الشَّهواتِ، وبعد ذلك، تُرمى ضحيَّةً لا تملك شيئًا، في الوقت الذي كان بإمكانها فيه أن تُكوِّن أسرةً سعيدةً تعيش في ظلالها.

وفي هذهِ الوصايا يجعلُ الإمامُ عليه السلام أحكامًا في غايةِ الأهميَّةِ؛ والغرضُ منها فهمُ نفسِ المرأةِ وطبيعتِها، وكيفيَّةُ التَّعاملِ معهَا؛ حتَّى يسعدَ الطَّرفانِ في الحياةِ الدُّنيا والآخرةِ.

الفرع الأوَّل: عدم مشاورة النِّساء

قال عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ**».

«التَّشاورُ والمشاورةُ والمشورةُ استخراجُ الرَّأي بمراجعةِ البعض إلى البعضِ، من قولهم: شرت العسلَ؛ إذ اتَّخذتهُ من موضعِهِ، واستخرجتهُ منهُ»[١].

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص٤٧٠.

والمشاورةُ من المفاهيم التي ندبَ إليها الشَّرعُ، ورسمَ لها خطوطًا وأحكامًا ومنظومةً؛ حتَّى يُجتنى ثمارُها، ومن جملةِ أحكامِها عدمُ مشاورةِ النِّساء، وذكر أمير المؤمنين عليه السلام سببين لذلك:

السَّبب الأوَّل: «**فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ**»؛ و«الأفنُ النَّقصُ»[١]، «وأمَّا من قرأه بالتَّحريكِ؛ فهو ضعيفُ الرَّأي»[٢].

ولا يعني ذلكَ الانتقاص من المرأةِ؛ وإنَّما هنا لبيانِ حقيقةٍ قد يغفل عنها بعض الناس، وهي: أنَّ النِّساءَ تغلبُ عليهنَّ العاطفةُ أكثر من العقلِ، وإذا أرادَ الرَّجل أن ينجحَ في علاقتهِ مع المرأةِ؛ لابدَّ أن يكونَ استخدامُهُ للعاطفةِ أكثر من مجالِ العقل؛ فهذا ما يناسبُها، وأمَّا إذا أرادَ أن يستشيرَ فقدر الإمكان يبتعد عن استشارتِها؛ لأنَّها كتلةٌ من العاطفةِ وإن كان لها عقل ورأي ثاقب؛ لكن المشورةَ تحتاجُ إلى العقل أكثر من العاطفةِ؛ لأنَّ المشاورةَ أصلًا تبادلُ الآراء بينَ العقولِ.

إضافةً إلى ذلكَ أنَّ المجالات التي فيها خطر واسع من الأمورِ السِّياسيَّةِ والعسكريَّةِ والاقتصاديَّةِ هي ليست محلًّا لاهتمامِ المرأةِ بقدر اهتمامِها بنفسِها وزوجِها وأولادِها وأسرتِها، وإذا استشيرت في هذهِ الأحوالِ السَّابقة فحينها يكون رأيها إلى نقص؛ فالنَّقصُ المشارُ إليه ليس نقصًا في العقلِ من حيث التَّركيب والمادَّة؛ وإنَّما غزارة العاطفة على العقل، وهذا هو المؤثِّرُ في اتِّخاذِ الرَّأي.

١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (الراوندي): ج ٣، ص١١٥.
٢- نخبة الشرحين: ج٤، ص ١٦٢٩.

السَّبب الثَّاني: «**وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ**». أي إلى ضعف؛ فأغلبُ آراءِ النِّساءِ قد تتراجعُ فيها؛ لأنَّها مخلوقٌ ضعيفٌ؛ أوصى اللهُ عزّ وجلّ برعايتهِ والاهتمامِ به، وضعفِ الرَّأي مضنَّةُ الخطأ؛ فمن كان رأيه ضعيفًا حتَّى لو كان من الرِّجال لا تؤخذُ استشارته.

الفرعُ الثَّاني: الإلتزام بالحجاب

قال عليه السلام: «**وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ**».

يمتلكُ الإسلامُ أفضلَ نظامٍ اجتماعيٍّ وأسريٍّ من شأنِه أن يحافظَ على كرامةِ المرأةِ وحقوقِها، ولو اطَّلعنا على هذا النِّظام التَّكامليّ مع الأنظمةِ الوضعيَّةِ الأخرى، لرأينا الفرقَ الشَّاسعَ في مدى الاهتمامِ والمحافظةِ على المرأةِ من كلِّ سوءٍ يصلُ إليها؛ ومن جملةِ القضايا والأحكامِ التي دعا إليها الإسلامُ لأجل حفظِ المرأةِ وصيانتِها فرضُ الحجابِ ووجوبُه وعدم التَّهاونِ فيه؛ لأنَّه حفظٌ للمرأةِ أوَّلًا، وحفظٌ للأسرةِ ثانيًا، وحفظٌ للمجتمعِ ثالثًا، وليس المقصودُ هنا قطعةَ القماشِ التي توضعُ على الرَّأسِ؛ وإنَّما المقصودُ أوسعُ؛ وهو «حفظهنَّ في دائرةِ العفَّةِ، والفضيلةُ»[1]، وأشار أيضًا إلى أن يكفَّ بصر المرأة النَّظر إلى الأجنبي؛ فإنَّ نظرَ المرأةِ مبعثٌ للفسادِ في بعضِ الأحيانِ، كما أنَّ نظرَ الرِّجالِ مبعثٌ لذلكَ.

إنَّ الحجابَ للمرأةِ وقِلَّةَ الاختلاطِ أو عدمُه ممَّا يسهمُ في بناءِ المرأةِ وحفظِها، وقد نُقلتْ إحصائيَّات خطيرةٌ بيَّنتْ أضرارَ السَّماحِ للمرأةِ في الخروجِ

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص٨٤.

والاختلاطِ بغير قيودٍ شرعيَّةٍ؛ فإنَّ شدَّة الحجاب أبقى عليهن «بخلاف التَّسهيل؛ فإنَّه مفسد للمرأة؛ والسِّرُّ أنَّ المرأةَ تميلُ بالعاطفةِ لا بالعقلِ، واتِّباعُ العواطف يوجبُ الفسادَ، ويحتملُ أن يرادَ بـ(أبصارهن) خصوصًا هذا العضو؛ أي المراد حفظها عن النَّظر إلى الأجانب من الرِّجال»(١).

الفرع الثَّالث: لا تدخل من لا تثق به

قال عليه السلام: «**وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مَنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَيُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ**».

إدخالُ الشَّخصِ، سواء كان رجلًا أو امرأةً؛ إلَّا أنَّه غير موثوقٍ بالتزامه وأمانتِهِ، لا يقلُّ خطرًا عن خروجِ المرأةِ واختلاطِها؛ فإنَّ كلًّا من الحالتين تختلطُ المرأةُ بمن هو مظنَّةٌ لإحرازِ الفسادِ؛ بل هو أشدُّ من الخروجِ وأشنعُ؛ «لأنَّ دخولَ من لا يوثق بهِ عليهن أمكنُ لخلوتهِ بهنَّ والحديثِ معهنَّ فيما يُراد من الفساد»(٢)، وهذه الخلوة لا يتمكَّن منها الشَّخص في الطُّرقات، وقد حصلتْ مفاسد عدَّةٌ وأضرار كثيرة من هذا السُّلوك غير المدروس، وها هي اعترافات الكثير من الجُناة من النِّساء والرِّجال كانت بدايةُ جرائمهم هو هذا الدُّخول الذي فتحَ بابَ الذُّنوبِ والمعاصي وارتكاب الجرائم، ولعلَّ استخدام الضمير إشارة الى الرِّجال والنساء؛ فإنَّ دخولَ النِّساءِ غيرِ المؤمنات يمكن أن يُخرجَ النِّساءَ عن خطِّ الاستقامةِ والانحرافِ بها نحوَ الرَّذيلة.

١- ينظر: توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٨٥.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٥، ص٦٣.

الفرع الرَّابع: حصر دائرة التَّعريف

قال عليه السلام: «**وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ**».

يعطي الإمامُ عليه السلام في هذا الموضع قاعدة في دفعِ الفسادِ وحظره؛ «وهي كلَّما كانتْ دائرةُ المرأةِ أقل كان الانسياقُ وراءَ العاطفة المفسدة فيها أقل»[١]، ولا يدخلُ في هذه الدائرة محارمُ المرأةِ ووالدُها ومن يحرمُ عليها؛ وإنَّما كلُّ شخص للمرأةِ يجوزُ الزَّواج منه لو كانت غيرَ متزوّجة؛ فالأولى ألَّا تعرفَهُ، ولا تتعامل معه؛ لأنَّه ربما يتبدَّل ذلكَ التَّعاملُ إلى علاقة مفسدة.

وينبغي التَّنبه إلى أنَّ كلَّ هذه الاحترازات تحتاجُ إلى إمداد المرأةِ بالعاطفةِ، لا أن يضيِّق عليها حدَّ الإفراط والتَّفريط؛ وإنَّما يكونُ ذلكَ على وفقِ حكمةٍ ومعرفةٍ وأخلاقٍ طيِّبة.

الفرع الخامس: مكانة المرأة ودورها الطَّبيعي

قال عليه السلام: «**وَلاَ تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ**».

وردتْ إحتمالات عدَّة في هذهِ الحكمة:

الاحتمالُ الأوَّل: «لا تُمَلِّكها أمورًا لا ترتبط بشأنها؛ كتمليكِها البيع والشراء وما أشبه، مثل تولِّي الأمورِ الصَّعبةِ والقضايا المعقَّدةِ وقضايا الحكم والإمامةِ والمشورةِ؛ إذ للمرأةِ حدودها وقابليَّاتها، فهي ريحانةٌ تُعَزَّزُ وتُكرَّمُ، وليس لها خشونةُ القهارمةِ»[٢]؛ حتَّى تحكمَ، وتحاولَ إدارةَ هذهِ الأمور[٣].

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٤.
٢- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج ٣، ص ١١٥.
٣- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (الراوندي): ج ٣، ص ١١٥. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص٦٣. توضيح نهج البلاغة: ج٤، ص٨٥.

الاحتمال الثَّاني: «إنَّ ذلك يعني أنَّ المرأةَ لا تُكلَّفُ بأيِّ شيءٍ على الإطلاق، ولا يحُق للزوجِ أن يأمرَ زوجتَهُ بأيِّ أمرٍ كانَ؛ لأنَّ الشَّارعَ المقدَّسَ احترمَها، ورفعَ قدرَها ومقامَها، وجعلَ الغايةَ من اتِّخاذِ الرَّجل إيَّاها غايةً شريفةً، وهي إنجابُ النَّسلِ، وحسنُ التَّبعلِ هو جهادُ المرأةِ اتِّجاهَ الرَّجلِ، وغيرُ ذلكَ لا يُطلبُ منها، وفي هذا الموضوعِ العديدُ من الآراءِ والأحكامِ التي تحتاجُ إلى دراسةٍ مفصَّلةٍ»(١).

والقاعدة العامَّة للاحتمالاتِ هي ألَّا تُكلفَ المرأةُ فوق طاقتها، أو تُكلَّفَ بأحكامٍ وحقوقٍ لم يُطلبْ منها؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يسبِّبُ لها الضَّررَ، ويخرجُها عن طبيعتِها ودورِها في هذهِ الحياةِ.

الفرع السَّادس: حفظ الحدود

قال عليه السلام: «**وَلاَ تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا**».

في هذهِ الكلمةِ أيضًا وردتْ احتمالات عدَّة في تفسيرِها:

المعنى الأوَّل: «لا تجاوز بإكرامها إكرامَ نفسِها؛ بأن تكرمَ غيرَها لأجلِها؛ لأنَّ ذلكَ يوجبُ انسياقك وراءَ عواطفِها، وهذا خارج عن الاعتدالِ الذي يكونُ باتِّباعِ العقلِ دونَ العاطفةِ»(٢).

المعنى الثَّاني: «لا تكرمْها بكرامةٍ تتعدَّى صلاحَ نفسِها»(٣).

المعنى الثَّالث: «كرامةُ المرأةِ أن تبقى امرأة، وأن تضعَ نفسَها حيثُ وضعَها الشَّرعُ، ولا تتطفَّل على وظائفِ الرَّجل؛ ولا تعطى أكثر ممَّا لها؛ فهذا يضرُّها»(٤).

١- ينظر: الوصيَّة الخالدة: ص ٣٦٨.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٥.
٣- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٦٤.
٤- في ظلال نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢٥٤.

الفرع السَّابع: لا تشفع لأحد

قال عليه السلام: «**وَلاَ تُطْمِعْهَا أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا**».

ورد أكثر من معنى لهذه الكلمةِ:

الأوَّل: «بأن تجعلَ غيرَها شفيعًا لها عندك؛ لتقضي حوائجَها، إذ النَّاس يشفعونَ لها، وذلكَ يوجبُ أن تذهبَ أنتَ بحسب حوائجِها العاطفيَّة خجلًا من النَّاس الذينَ شفعوا»[١].

الثَّاني: «النَّهي أن يطمعَها في الشَّفاعة لغيرها؛ لأنَّ ذلكَ مجاوزة منها لحدِّ نفسِها، وقد تمَّ التَّنبيهُ إلى أنَّها ليست أهلاً لذلكَ لما لديها من نقصانٍ في الغريزةِ وضعفٍ في الرَّأيِ...»[٢].

ثمَّ إنَّ مثلَ هذه الشَّفاعات ربما تكون منشأً للعلاقاتِ العاطفيَّة فيكون ضررُها وفسادُها أكثرَ من نفعِها.

الفرع الثَّامن: لا إفراط، ولا تفريط في الغيرة

قال عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ وَالتَّغايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَم، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ**».

الغيرةُ والتَّغايُرُ من الأخلاقِ الممدوحةِ التي وردَ الحثُّ في شأنِها وفضلِها ودورِها في المحافظةِ على العفَّةِ والنَّزاهةِ والشَّرفِ؛ بيد أنَّ شأنَها شأنُ الأخلاقِ الأخرى، فإنَّ فائدتَها تنحصرُ في ألَّا تخرجَ عن حدِّ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ وإلَّا أدَّتْ إلى أضرارٍ ومفاسَد بسببِ الخروجِ عن خطِّ الاعتدالِ.

١- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٥.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٦٤.

وللغيرةِ والتَّغايرِ مواضعُ محدَّدة، وليست مطلقة، «والتَّغاير التَّكلف في الغيرة»[١]. أو «إظهارُ الغيرةِ على المرأةِ بسوءِ الظَّنِّ في أمرِها»[٢].

إنَّ إظهارَ الغيرة والتَّغاير بلا سبب عقليٍّ، أو نقليٍّ ممكن أن يؤدِّيَ إلى أضرار عديدة أشارت الرِّوايةُ المباركةُ إلى بعضِها؛ ومنها:

أوَّلًا: «إذا احتاطَ الرَّجلُ كثيرًا، وتحذَّر على إمرأته، وخرج حدَّ التَّغايرِ الممدوحِ فقد يبصِّرها بما لم تكن تبصره من قبل؛ فيوقعُها فيما كان يحذره عليها، ويقعُ هو فيما كان يخشاه، ويتجنَّبه»[٣].

ثانيًا: إنَّ المرأةَ حينَ براءتِها من الفسادِ تستقبحُ ذلكَ، وإذا نسبت إلى ذلكَ مع براءتِها منه عظم عليها في أوَّلِ الأمر، وإذا تكرَّرَ ذلكَ من الرَّجلِ هان عليها أمرُه، وصار لومُه له في قوَّة الإغراءِ لها بذلكَ.

وبتوضيح آخر: كانت المرأةُ تقولُ في نفسِها: كنت أحرصُ على عفافي لأجلِ ثقتِه، ما الفائدةُ الآن؛ وقد أصبحت في مكانِ الرِّيبِ، فلم يبقَ ما أحرصُ عليه.

«إنَّ المرأةَ لا تقدم على الفساد خوفَ الفضيحة، فإن رأت أنَّها مفتضحة بلا سببٍ تجرأتْ على الخيانةِ؛ فإنَّ اللومَ يوجبُ الإغراءَ»[٤].

إنَّ سوءَ الظَّنِّ والتُّهمةَ والتَّغايرَ من دونِ مبرر عقليٍّ، أو شرعيٍّ بابٌ واسعٌ للمفاسد وتهديم العوائل والعلاقات الاجتماعيَّة، وخاصَّة العلاقة الزَّوجيَّة؛ فإنَّها تدعو للخيانةِ والتُّهمةِ وتشنج العلاقات وضعفِها، وبدايةِ ظهورِ مشاعر الانتقامِ والتَّشفي، ومن جهةِ المرأةِ فإنَّ ذلكَ يدفعُها إلى ارتكاب ما لا يُحمَدُ عقباهُ.

١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة(الراوندي): ج ٣، ص ١١٥.
٢- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٥.
٣- الوصيَّة الخالدة: ص ٣٧٥.
٤- توضيح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٥.

إنَّ هذه التَّصرفات تُفضي إلى تدميرِ الثِّقةِ بين الأطراف، ممَّا يفتح البابَ أمامَ الشكوكِ المستمرَّة، ويزيدُ من تدهورِ الوضعِ النَّفسي لكلا الزوجينِ. كما أنَّ الاستمرار في هذا النَّهج يجعل التَّواصلَ غير ممكن، ويزيدُ من التَّوترات داخل المنزلِ، حتَّى يصبحَ كلُّ طرف في حالةِ دفاعٍ مستمر. ويؤدِّي هذا بدوره إلى تراكم الضَّغائن والشعورِ بالعزلةِ، ممَّا ينعكس سلبًا على تربيةِ الأبناءِ وسلامةِ الأسرةِ. وأمَّا العلاقات التي تُبنى على الاحترام والثقةِ هي التي تستمرُ وتزدهرُ، بينما تظل العلاقاتُ المملوءةُ بالظنونِ سريعة الانهيارِ، وتتسم بالانقسامات والضَّياعِ.

المطلب الثَّالث: مبادئ التَّعامل الحكيم

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِك، وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ**»[1].

علاقةُ الإنسانِ بعملهِ وعمّالهِ وعشيرتهِ من أهمِّ العلاقاتِ التي تشدُّ جانبَهُ، وتثبتُ وجودَه، وتكونُ سندًا له عندَ الشَّدائدِ والمحنِ والمشاكل؛ ولكنَّها لا تعطي ثمارَها إلَّا إذا نُظِّمت على وفقِ علمٍ ومعرفةٍ، ولم تخرجْ عن الخطِّ المرسومِ لها؛ وإلَّا أصبحت مصدر شرٍّ وسوءٍ، وأشارَ الإمامُ عليه السلام إلى نوعين من العلاقات:

الفرع الأوَّل: العلاقة بالعمَّال والخدم

قال عليه السلام: «**وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ**».

من القضايا البديهيَّة والمتَّفقِ عليها في علمِ الإدارة أنَّ توزيعَ الأعمالِ والأدوار أكثرُ نجاحًا في الوصولِ إلى الغاياتِ وتحقيقِ الأهدافِ وعدمِ التكليفِ فوقَ الطاقة والاستطاعة، والعلَّةُ في ذلكَ ما ذكرها الإمام عليه السلام: «**فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ**»؛ أي أن يكل كلُّ واحدٍ الأمرَ إلى آخر فلا ينجز العملَ، ويمكنُ تدوين قواعد عدَّة في إدارةِ العمَّالِ والخدمِ من هذا النَّص:

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص٤٥٥.

١. الاشتراكُ في التَّكليف بفعل أو عمل واحد يقومُ بهِ الجميعُ يؤدِّي غالبًا إلى أن يُحيل كلُّ شخص عملَه إلى الآخرينَ، ممَّا يترتَّبُ عليهِ في النِّهايةِ عدم إنجاز العمل بالشكل المطلوب.

٢. تخصيصُ العملِ لكلِّ خادم أو عامل من شأنِه أن يعرِّفَ العاملَ ما مطلوب منه حتَّى إذا قصَّرَ يعاقب، وإن اجتهد أثيبَ على فعلِهِ.

٣. عدم التَّخصيص من شأنِهِ حدوث الفوضى، وضياع المسؤوليَّةِ، ورمي كلِّ شخص بالتَّقصيرِ على صاحبِهِ.

٤. إيكال الأعمال لا بدَّ أن يكون على وفق الإمكانيَّةِ والقدرةِ والتَّخصصِ، وعدم تحميل العاملِ والخادمِ أكثر من طاقتِهِ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يسقط عنه العتاب والعقاب لو قصَّر في عملِهِ.

وهذه القاعدةُ الخاصَّةُ بإدارةِ العُمَّالِ والخدمِ ليستْ خاصةً في هذا المجالِ فقط؛ وإنَّما لها مجالات واسعة في شؤونٍ كثيرةٍ؛ سواءٌ كانتْ اقتصاديَّةً، أو سياسيَّةً، أو عسكريَّةً، أو اجتماعيَّةً، وغيرها.

الفرع الثَّاني: العلاقة مع العشيرة

قال عليه السلام: «**وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ**».

«العشيرةُ أهلُ الرَّجلِ الَّذينَ يتكثَّر بهم؛ أي يصيرونَ له بمنزلةِ العدد الكامل؛ وذلك أنَّ العشرةَ هو العدد الكامل؛ قال الله تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ**﴾[1]، فصارَ العشيرةُ لكلِّ جماعة من أقاربِ الرَّجلِ الذينَ يتكثَّر

١- سورة التوبة/ الآية: ٢٤.

بهم...»[1]، والعشيرةُ للرَّجل تمثِّلُ عزمَهُ ومصدرَ قوَّته، ومهما ابتعدَ عنها فلابدَّ أن يرجعَ إليها في يوم من الأيَّام؛ لأنَّها أصلُه ومنبعُ ذاتهِ، ولذا، جاءَ الاهتمامُ بتكريم العشيرةِ والإحسانِ إليها وعدمِ جفائها؛ فهُم من يذودُ عنه، ويدافعُ، ويضحِّي من أجلهِ في بعضِ الأحيانِ، والتَّنصُّلُ من العشيرةِ ممَّا يعطي الآخرينَ السَّماحَ بالتَّجاوزِ عليهِ والاحتقارِ في بعضِ الأحيان، وأشارَ الإمامُ عليه السلام إلى ثلاثِ وظائف أساسيَّة يكتسبها الفردُ من عشيرتهِ:

الوظيفة الأولى: «فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ».

تدعم العشيرة مَنْ ينتمي إليها في الأفراحِ والأحزانِ والشَّدائد والمكاره، «واستعار لهم لفظَ (الجناح) باعتبارِ كونِهم مبدأ نهوضهِ وقوَّتهِ على الحركةِ إلى المطالب كجناح الطَّائر»[2]؛ ومن هذه الجهة نفهمُ أنَّ العشيرةَ هي مصدرٌ للتقدُّمِ والازدهارِ والرُّقيِّ؛ إذا تعاونوا على البرِّ والتَّقوى، ولم يتعاونوا على الإثمِ والعدوانِ.

الوظيفة الثَّانية: «وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ».

أي إليهم ترجع؛ فإن كانوا في أعينِ النَّاسِ عظماءَ كنتَ عظيماً، وإن كانوا حقراءَ كنتَ حقيرًا في بعض الأوقات، ولولاهم لكنتَ وحيدًا مستفردًا، لا ناصرَ لك ولا مصدرَ قوةٍ؛ فمن كانت له عشيرةٌ كان له أمانٌ في هذه الأرضِ، وعدم الشعور بالوحدةِ مقابل المصاعبِ والمِحَن التي تواجهه.

١- مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٦٧.
٢- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج ٥، ص ٦٥.

الوظيفة الثَّالثة: «وَيَدُكَ الَّتي بِهَا تَصُول».

من القضايا الواضحة أنَّ العشيرةَ تمنحُ الرجلَ القوَّةَ والقدرةَ على مواجهةِ الأعداءِ؛ لأنَّ أفراد العشيرةَ يحاربونَ من حاربَ أحدَ رجالِها، ويهجمونَ على مَنْ هجمَ عليه، وكذلك فإنَّ العشيرةَ هي الوسيلةُ التي يتمكَّنُ من خلالها الإنسانُ من امتلاكِ السُّلطةِ والقوَّة.

عَنْ أَبي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لَنْ يَرْغَبَ الْمَرْءُ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَوَلَدٍ وَعَنْ مَوَدَّتِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ وَدِفَاعِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ حِيطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِه؛ إِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ أَوْ نَزَلَ بِهِ بَعْضُ مَكَارِهِ الأُمُورِ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا يَقْبِضُ عَنْهُمْ يَدًا وَاحِدَةً وَتُقْبَضُ عَنْهُ مِنْهُمْ أَيْدِي كَثِيرَةٌ، وَمَنْ يُلِنْ حَاشِيَتَهُ يَعْرِفْ صَدِيقُهُ مِنْهُ الْمَوَدَّةَ، وَمَنْ بَسَطَ يَدَهُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا وَجَدَهُ يُخْلِفُ الله لَهُ مَا أَنْفَقَ فِي دُنْيَاهُ وَيُضَاعِفُ لَهُ فِي آخِرَتِهِ، وَلِسَانُ الصِّدْقِ لِلْمَرْءِ يَجْعَلُهُ الله فِي النَّاسِ خَيْرًا مِنَ الْمَالِ يَأْكُلُهُ وَيُوَرِّثُهُ، لا يَزْدَادَنَّ أَحَدُكُمْ كِبْرًا وَعِظَمًا فِي نَفْسِهِ وَنَأْيًا عَنْ عَشِيرَتِهِ إِنْ كَانَ مُوسِرًا فِي الْمَالِ وَلا يَزْدَادَنَّ أَحَدُكُمْ فِي أَخِيهِ زُهْدًا، وَلا مِنْهُ بُعْدًا إِذَا لَمْ يَرَ مِنْهُ مُرُوَّةً وَكَانَ مُعْوِزًا فِي الْمَالِ، وَلا يَغْفُلُ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ بِهَا الْخَصَاصَةُ أَنْ يَسُدَّهَا بِمَا لا يَنْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلا يَضُرُّهُ إِنِ اسْتَهْلَكَهُ**»[١].

إنَّ العشيرةَ إذا تراحمت فيما بينها رحمها الله جل جلاله؛ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ هِلالٍ[٢]، قَالَ: قُلْتُ لأَبي عَبْدِ الله عليه السلام: **إِنَّ آلَ فُلانٍ يَبَرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَوَاصَلُونَ، فَقَالَ: إِذاً تَنْمِي أَمْوَالُهُمْ وَيَنْمُونَ فَلا يَزَالُونَ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَتَقَاطَعُوا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ انْقَشَعَ عَنْهُمْ**»[٣].

١- الكافي: ج ٢، ص ١٥٤.
٢- «سلمان (سليمان) بن هلال: الكوفي: من أصحاب الصادق عليه السلام».معجم رجال الحديث: ج ٩، ص ١٩٤.
٣- الكافي: ج ٢، ص ١٥٥.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم فتنمي أموالهم، وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبرارًا بررة**»[١].

وعن صفوان الجمّال[٢] قال: «**وقع بين أبي عبد الله عليه السلام وبين عبد الله بن الحسن كلامٌ حتّى وقعت الضّوضاء بينهم واجتمع النّاس فافترقا عشيّتها بذلك، وغدوت في حاجة فإذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام على باب عبد الله بن الحسن، وهو يقول: يا جارية قولي لأبي محمّد يخرج. قال: فخرج، فقال: يا أبا عبد الله ما بكّر بك؟ فقال: إنّي تلوت آية من كتاب الله عزّ وجلّ البارحة فأقلقتني. قال: وما هي؟ قال قول الله جلّ وعزّ ذكره: ﴿الّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب﴾. فقال: صدقت لكأنّي لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله جلّ وعزّ قطّ فاعتنقا وبكيا**»[٣].

وعن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنّ لي ابن عمٍّ أصله فيقطعني وأصله فيقطعني حتّى لقد هممت لقطيعته إيّاي أن أقطعه، أتأذن لي قطعه؟ قال: «**إنّك إذا وصلته وقطعك وصلكما الله عزّ وجلّ جميعًا، وإن قطعته وقطعك قطعكما الله**»[٤].

١- الكافي: ج٢، ص ١٥٥.
٢-قال النجاشي: «صفوان بن مهران بن المغيرة الأسدي، مولاهم، ثمّ مولى بني كاهل منهم، كوفي، ثقة، يكنّى أبا محمّد، كان يسكن بني حرام بالكوفة، وأخواه حسين، ومسكين، روى عن أبي عبد الله عليه السلام، وكان صفوان جمالًا، له كتاب يرويه جماعة». معجم رجال الحديث: ج ١٠، ص ١٣٢.
٣- الكافي: ج ٢، ص ١٥٥.
٤- م.ن: ج ٢، ص ١٥٦.

المطلب الرَّابع: حسن الخاتمة

قال عليه السلام: «**اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ**»[1].

أعمالُ الإنسانِ وسعيُه وأفعالُه الصَّالحةُ تحدِّدُ مصيرَه ونمطَ حياته في الدُّنيا والآخرةِ، وكذلك أنَّها رأسُ مالِه وزادُهُ في السَّفرِ إلى العالم الآخر، ومن لم يمتلكْ رصيدًا كافيًا منها كان سفرُهُ صعبًا، وقد يهلكُ في تلكَ الرِّحلةِ؛ فإذا عرفنا هذا يجب أن نركِّزَ أن لا نخسرَ حتَّى ولو لحسنةٍ واحدةٍ، فإنَّها قد تغيِّرُ حالَنا إلى أحسن حال؛ لكن المشكلةَ تكمنُ في أنَّ العبدَ خلال سعيه قد يواجه تحدِّيات قد تهدمُ جميعَ الأعمالِ التي اجتهدَ في جمعِها وتقديمِها ليوم لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنونَ، إن لم تكنْ مصونةً بتقوى القلبِ وصلاحِ النِّيَّةِ؛ لذلكَ، من الأهميَّةِ بمكان أن يحافظَ الإنسانُ على عملٍ يكون له سندًا وعونًا في مواجهةِ الشَّدائد، وذخرًا لهُ في يومِ الحساب. وهناك كثيرٌ من الأعمال الصَّالحةِ والأخلاقِ الكريمةِ التي تضمنُ دوامَ الثَّوابِ وحسنَ الخاتمة، إذا اقترنتْ بالإخلاصِ والالتزامِ بما يرضي اللهَ سبحانه وتعالى، وأشارَ الإمامُ عليه السلام إلى جملة من هذهِ الأفعالِ؛ وهي:

١- نهج البلاغة (تحقيق: هاشم الميلاني): ص ٤٥٦.

الفرع الأوَّل: جعل الأعمال وديعة عند الله عزّ وجلّ

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ**».

«الوديعةُ واحدُ الودائع فعيلة؛ بمعنى مفعولة، وهي استنابة في الحفظِ؛ يُقالُ: أودعته مالًا؛ أي دفعته إليهِ؛ ليكونَ وديعةً عنده، واستودعته وديعةً: استحفظته إيَّاهَا»[١].

وعادة يستودعُ الإنسانُ في أمورهِ الدُّنيوية القضايا الثَّمينة خوفًا عليها من الضَّياعِ والتَّلف والسَّرقة، ولا يَختار أيَّ شخصٍ لهذهِ المهمَّة؛ وإنَّما يبحث عن الأمينِ العاقِل؛ الذي يحفظُها؛ وهذا الفعلُ؛ أي الاستيداعُ من جملةِ المعاملاتِ التي تحفظُ الأمورَ الثَّمينةَ، وإذا كان هذا، فأيُّ شيءٍ أغلى وأثمنُ من دينِ الإنسانِ ودنياه التي هي رأسُ أعمالِه، وهذا يدفعُ الإنسانَ إلى السَّعي لإيجادِ جهةٍ أمينة تحفظُ أعمالَهُ الصَّالحةَ وتضمنُ بقاءَها لهُ، لتكونَ عونًا وسندًا حينَ تشتدُّ حاجتُه إليها، ولا يوجدُ أعظمُ وأكرمُ وآمن من الله جلّ جلاله؛ ولذلك نجعلُها عندَ الله عزّ وجلّ أكرمِ الأمناءِ؛ وعلَّة ذلكَ ليسلما عن الذَّهابِ والفقدان؛ رويَ عنِ الإمام الحسينِ عليه السلام: «**اَلْحَمْدُ للهِ الَّذى لَيْس لِقَضآئِه دافِع، وَلا لِعَطائِه مانِعٌ، وَلا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صانِعٍ، وَهُوَ الْجَوادُ الْواسِعُ، فَطَرَ أَجْناسَ الْبَدائِع، وأَتْقَنَ بِحِكْمَتِهِ الصَّنائِعَ، لا تَخْفى عَلَيْه الطَّلائِع، وَلا تَضيع عِنْدهُ الْوَدائِعُ...**»[٢].

وكذلكَ وردَ عنهم عليهم السلام: «**...أَسْتَوْدِعُ اللهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ الَّذِي لاَ تَضِيعُ وَدَائِعُهُ دِينِي وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي وَوُلْدِي، اَللَّهُمَّ اسْتَعْمِلْنِي عَلَى كِتَابِكَ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ، وَتَوَفَّنِي عَلَى مِلَّتِهِ، وَأَعِذْنِي مِنَ اَلْفِتْنَةِ...**»[٣].

١- مجمع البحرين: ص ١٣٦٤.
٢- بحار الأنوار: ج ٩٥، ص ٢١٦.
٣- الكافي: ج ٤، ص ٤٣٢.

وعن بكر بن صالح[1] قال: «كتب صهر لي إلى أبي جعفر الثَّاني صلوات الله عليه: إنَّ أبي ناصب خبيث الرَّأي، وقد لقيتُ منه شدَّة وجهدًا، فرأيك جعلت فداك في الدُّعاء لي، وما ترى جعلت فداك؟ أفترى أن أكاشفه أم أداريه؟

فكتبَ عليه السلام: **قد فهمتُ كتابَكَ وما ذكرتَ من أمرِ أبيكَ، ولستُ أدع الدُّعاء لكَ إن شاءَ الله، والمداراةُ خيرٌ لكَ من المكاشفةِ، ومع العسرِ يسر، فاصبر فإنَّ العاقبةَ للمتقينَ. ثبتكَ اللهُ على ولايةِ من توليت، نحنُ وأنتم في وديعةِ اللهِ الذي لا تضيعُ ودائعهُ.**

قال بكر: فعطف الله بقلب أبيه [عليه] حتَّى صار لا يخالفهُ في شيءٍ»[2].

الفرع الثَّاني: السُّؤال والدُّعاء

قال عليه السلام: «**وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ**».

للدعاءِ دورٌ هام في تحقيقِ أهدافِ الإنسانِ؛ وخاصَّة حسن الخاتمةِ والمحافظة على الأعمالِ من التَّلفِ والبُطلانِ؛ فطلبَ الإمامُ عليه السلام من ولدهِ عليه السلام أن يسألَ اللهَ سبحانه وتعالى خيرَ القضاءِ والتَّقديرِ لحسنِ القضاءِ في العاجلةِ والآجلةِ.

والدُّعاءُ بـ(خير القضاء) من جملةِ القضايا البالغة الأهميَّة في تحديدِ مصيرِ الإنسانِ وسعادتهِ.

١- قال النجاشي: «بكر بن صالح الرازي، مولى بني ضبة، روى عن أبي الحسن موسى عليه السلام، ضعيف، له كتاب نوادر، يرويه عدَّة من أصحابنا». وقد وقع الاختلاف في وثاقته. للمزيد ينظر: معجم رجال الحديث: ج ٤، ص٢٥٢- ٢٥٥.

٢- الأمالي، الشيخ المفيد (ت: ٤١٣هـ)، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، تحقيق: حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، الطبعة: الثانية: ص ١٩١.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى سِلاحٍ يُنْجِيكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ وَيُدِرُّ أَرْزَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى. قَالَ: تَدْعُونَ رَبَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَإِنَّ سِلاحَ الْمُؤْمِنِ الدُّعَاءُ»(١).

وعَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: «قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلاءَ لَيَتَرَافَقَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. إِنَّ الدُّعَاءَ لَيَرُدُّ الْبَلاءَ وَقَدْ أُبْرِمَ إِبْرَامًا»(٢).

وقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ فِي الشِّدَّةِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(٣).

وعَنْ أبي جَعْفَرٍ عليه السلام: «وَاللهِ لا يُلِحُّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عَلَى اللهِ عزّ وجلّ فِي حَاجَتِهِ إِلَّا قَضَاهَا لَهُ»(٤).

والدُّعاء له قيمة عظيمة، خصوصًا في لحظة الاحتضار؛ عَنْ الإمام أَبي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ الْعَبْدُ إِذَا دَعَاهُ؛ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ تُبَثَّ إِلَيْهِ الْحَوَائِجُ، فَإِذَا دَعَوْتَ فَسَمِّ حَاجَتَكَ»(٥).

وعنه أيضًا عليه السلام: «اعْتُقِلَ لِسَانُ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ- فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ رَأْسِ الرَّجُلِ امْرَأَةٌ.

فَقَالَ: لَهَا هَلْ لِهَذَا الرَّجُلِ أُمٌّ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أُمُّهُ.

فَقَالَ لَهَا: أَ فَرَاضِيَةٌ أَنْتِ عَنْهُ أَمْ لا؟

١- الكافي: ج ٢، ص ٤٦٨.
٢- م.ن: ج ٢، ص ٤٦٩.
٣- م.ن: ج ٢، ص ٤٧٢.
٤- م.ن: ج ٢، ص ٤٧٥.
٥- م.ن: ج ٢، ص ٤٧٦.

فَقَالَتْ: لَا بَلْ سَاخِطَةٌ.

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَرْضَيْ عَنْهُ.

فَقَالَتْ: قَدْ رَضِيتُ عَنْهُ لِرِضَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَقَالَ: قُلْ يَا مَنْ يَقْبَلُ الْيَسِيرَ وَيَعْفُو عَنِ الْكَثِيرِ، اقْبَلْ مِنِّي الْيَسِيرَ وَاعْفُ عَنِّي الْكَثِيرَ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفُوُّ الْغَفُورُ، فَقَالَهَا.

فَقَالَ لَهُ: مَا ذَا تَرَى؟

فَقَالَ أَرَى أَسْوَدَيْنِ قَدْ دَخَلَا عَلَيَّ.

قَالَ: أَعِدْهَا، فَأَعَادَهَا.

فَقَالَ: مَا ذَا تَرَى؟

فَقَالَ: قَدْ تَبَاعَدَا عَنِّي وَدَخَلَ أَبْيَضَانِ وَخَرَجَ الْأَسْوَدَانِ فَمَا أَرَاهُمَا، وَدَنَا الْأَبْيَضَانِ مِنِّي الْآنَ يَأْخُذَانِ بِنَفْسِي فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ»[1].

ثمَّ ختمت الوصية بـ«**إن شاء الله**»؛ والظَّاهر أنَّ ورودها في نهاية الوصيَّة يُظهر التَّواضع أمام إرادة الله عزّ وجلّ، وتؤكِّد على التَّوكل الكامل عليه في جميع الأمور، وهي دعوة للاعتراف بأنَّ المستقبل بيد الله جلّ جلاله وحده، وتحثُّ على الاستمرار في مسار التَّقوى والاعتماد على الله سبحانه وتعالى في كلِّ شأن من شؤون الحياة.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقنا وإيَّاكم لحُسنِ الخاتمةِ بحقِّ الرَّسولِ الأعظم محمَّد ﷺ وآل محمَّد الطَّيبينَ الطَّاهرينَ عليهم السلام.

١- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٣٤١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الاختصاص، محمَّد بن محمَّد المفيد (ت: ٤١٣هـ)، المؤتمر العالمي لألفيَّة الشَّيخ المفيد، إيران- قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٢. الأمالي، محمَّد بن محمَّد بن النعمان الملقب بالمفيد (ت: ٤١٣هـ)، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، تحقيق: حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣. إقبال الأعمال (الإقبال بالأعمال الحسنة)، رضيُّ الدِّين بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، طبعة دار الكتب الإسلاميَّة، طهران- إيران، (د.ط) ١٣٦٧هـ.

٤. إرشاد القلوب، حسن بن محمَّد الطاطبائي الديلمي (ت: ٨٤١هـ)، النَّاشر: جماعة المدرسين، قم، ط٥، ١٤١٨هـ.

٥. الأصول الستَّة عشر (ط- دار الشبستري)، جمع من العلماء، النَّاشر: دار الشبستري للمطبوعات، قم، ط١، ١٤٠٤هـ.

٦. الإنصاف في النصِّ على الأئمة الإثني عشر من آل محمَّد الأشراف، هاشم بن سليمان البحراني (ت: ١١٠٧هـ)، ترجمة: رسولي محلاتي، النَّاشر: مكتب نشر الثَّقافة الإسلاميَّة، طهران، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٧. أخلاق أهل البيت عليهم السلام، مهدي الصدر (ت: ١٣٥٩هـ)، دار الكتاب الإسلامي، (د.ط)، (د.ت).

٨. أسئلة وأجوبة في الدِّين والعقيدة، جعفر مرتضى العاملي (ت: ١٤٤١هـ)، المجموعة الأولى، المركز الإسلامي للدراسات، ط١، ١٤٢٣هـ.

٩. أعلام النِّساء المؤمنات، محمَّد حسون، النَّاشر: دار الأسوة للطباعة والنَّشر، (د.ط)، (د.ت).

١٠. أحكام النِّساء، إعداد: مهند صالح الحديدي الحسينيّ، مؤسَّسة الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١١. البيان والتَّبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، النَّاشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د.ط)، ١٤٢٣هـ.

١٢. بصائر الدَّرجات في فضائل آل محمَّد صلَّى الله عليهم، محمَّد بن حسن الصفَّار (ت: ٢٩٠ هـ)، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران- قم، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٣. البلد الأمين والدرع الحصين، إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت: ٩٠٥هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ﯜ، محمَّد باقر بن محمَّد تقي المجلسي (ت: ١١١١هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٥. التَّفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري، الإمام الحسن بن علي العسكري ﯪ، (ت: ٢٦٠هـ)، النَّاشر: مدرسة الإمام المهدي (عجَّل الله تعالى فرجة الشَّريف)، إيران- قم، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٦. تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي (ت: ٣٠٧هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، ط١، ١٤١٠هـ.

١٧. تفسير العيَّاشي، محمَّد بن مسعود العيَّاشي (ت: ٣٢٠هـ)، المطبعة العلميَّة، طهران، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٨. تهذيب الأحكام، محمَّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٤، ١٤٠٧هـ.

١٩. تحف العقول عن آل الرسول صلَّى الله عليهم، الحسن بن علي بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرَّابع)، قدَّم له وعلق عليه: حسين الأعلمي، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط٧، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٢٠. تنبيه الخواطر ونزهة النَّواظر (مجموعة ورَّام)، ورَّام بن أبي فراس المالكي الأشتري (ت: ٦٠٥هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٣٦٨ش.

٢١. التَّعريفات، علي بن محمَّد الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، بيروت، مكتبة لبنان، (د.ط) ١٤٠٥هـ.

٢٢. تسليَّة المجالس وزينة المجالس (مقتل الحسين عليه السلام)، محمَّد بن أبي طالب الحسيني الموسوي (ت: القرن ١٠هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة المعارف الإسلاميَّة، إيران- قم، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٣. تفسير الصَّافي، محمَّد بن مرتضى الفيض الكاشاني(ت: ١٠٩١هـ)، النَّاشر: مكتبة الصَّدر، طهران، ط٢، ١٤١٥هـ.

٢٤. تفصيل وسائل الشِّيعة إلى تحصيل مسائل الشَّريعة، محمَّد بن حسن الحر العاملي(ت: ١١٠٤هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٥. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمَّد بن محمَّد رضا القمِّي المشهدي (ت: ١١٢٥هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة الطبع والنشر، وزارة الثَّقافة والإرشاد الإسلامي، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٦. تاج العروس من جواهر القاموس، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق المرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، النَّاشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، تحقيق: علي شيري، (د.ط)، (د.ت).

٢٧. توضيح نهج البلاغة، محمَّد الحسيني الشيرازي (ت: ١٤٢٢هـ)، دار العلوم للتحقيق والطبع والنشر والتوزيع، إيران- قم المقدَّسة، سوريا- دمشق السيِّدة زينب عليها السلام، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٨. توضيح المسائل، حسن الطباطبائي القمي (ت: ١٤٢٨هـ)، نشر مكتب آية الله العظمى القمي، طبع: ستارة، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٩. التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، النَّاشر: مؤسَّسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.

٣٠. ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، محمَّد بن علي ابن بابويه (ت: ٣٨١ هـ)، النَّاشر: دار الشَّريف الرَّضي للنشر، قم، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٣١. جامع الأخبار، محمَّد بن محمَّد الشعيري (ت: القرن السَّادس)، النَّاشر: المطبعة الحيدريَّة، النَّجف، ط١، (د.ت).

٣٢. جامع السَّعادات، محمَّد مهدي النراقي (ت: ١٢٠٩هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه: السيِّد محمَّد كلانتر، ط٤، (د.ت).

٣٣. الحكايات في مخالفات المعتزلة من العدليَّة والفرق بينهم وبين الشيعة الإمامية، محمَّد بن محمَّد المفيد (ت: ٤١٣هـ)، النَّاشر: مؤتمر الشَّيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٣٤. حسن السمت في الصمت، جلال الدِّين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق ودراسة: أحمد محمَّد سليمان، النَّاشر: دار العلم والإيمان للنشر والتَّوزيع، مصر، (د.ط)،٢٠١٠م.

٣٥. الخصال، محمَّد بن علي ابن بابويه (ت: ٣٨١ هـ)، النَّاشر: جماعة المدرسين، قم-إيران، ط١، ١٤٠٣هـ.

٣٦. خصائص الأئمة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، محمَّد بن حسين الشَّريف الرَّضي (ت: ٤٠٦هـ)، الرَّوضة الرضويَّة المقدَّسة - مشهد، ط١، ١٤٠٦هـ.

٣٧. ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت: ٢٢٨ هـ أو ٢٣١هـ)، تحقيق: أحمد حسن، طبعة دار الكتب العلميَّة، (د.ط)، ١٩٩٨م.

٣٨. دلائل الصدق لنهج الحقِّ، محمَّد حسن المظفر النَّجفي (ت: ١٣٧٦هـ)، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩. ديوان الإمام علي عليه السلام، مؤسَّسة: الأعلمي للمطبوعات، (د.ط)، (د.ت).

٤٠. دروس في الأخلاق، علي المشكيني (ت: ١٤٢٨هـ)، قم المقدَّسة، النَّاشر: نشر الهادي، ط٥، ١٤٢٤هـ.

٤١. دروس تمهيديَّة في القواعد الفقهيَّة، باقر الإيرواني، دار الفقه للطباعة والنشر، ط٥، ١٤٣٢هـ.

٤٢. الذريعة إلى حافظ الشريعة، رفيع الدِّين محمَّد بن محمَّد المؤمن الجيلاني (ت: القرن الحادي عشر)، دار الحديث، إيران- قم، ط١، ١٤٢٩هـ.

٤٣. روضة الواعظين وبصيرة المتعظين (ط - قديمة)، محمَّد بن أحمد فتال النيشابوري، (ت:٥٠٨ هـ)، النَّاشر: منشورات الرضي، إيران- قم، ط١، (د.ت).

٤٤. سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمَّد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، النَّاشر: دار إحياء الكتب العربيَّة، (د.ط)، (د.ت).

٤٥. سيكولوجية العدوانيَّة وترويضها، عصام عبد اللطيف العقاد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٦. شرح الأخبار في فضائل الأئمَّة الأطهار، النعمان بن محمَّد بن حيون (ت: ٣٦٣هـ)، الناشر: جماعة المدرسين بقم، مؤسَّسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ.

٤٧. شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، أبو منصور بن الجواليقي (ت: ٥٤٠هـ)، النَّاشر: دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٤٨. شرح نهج البلاغة، عزُّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد (ت: ٦٥٦هـ)، النَّاشر: دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، ١٩٦٢م.

٤٩. شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت: ٦٧٩هـ)، النَّاشر: منشورات دار الثقلين، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥٠. شرح الكافي، الأصول والروضة، محمَّد صالح بن أحمد المازندراني (ت: ١٠٨١هـ)، النَّاشر: المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ط١، ١٤٢٤هـ.

٥١. شرح وصيَّة أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن، حسن القبانجي، النَّاشر: العتبة العلويَّة المقدَّسة، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٥٢. شرح نهج البلاغة، عبَّاس الموسوي، دار الرَّسول الأكرم، دار المحجَّة البيضاء، ط١، ١٣٧٦هـ.

٥٣. الصحيفة السجاديَّة، الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ت: ٩٤هـ)، تحقيق: السيد محمَّد باقر الموحد الأبطحي الإصفهاني، (د.ط)، (د.ت).

٥٤. صحيفة الإمام الرضا، مؤتمر الإمام الرضا العالمي، النَّاشر: مؤسَّسة الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشَّريف)، مؤسَّسة الأنصاريان للطباعة والنشر، قم - إيران، ط١، ١٤١١هـ.

٥٥. صحيح البخاري (ط- أوقاف مصر)، محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: وزارة الأوقاف، الناشر: جمهوريَّة مصر العربيَّة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، لجنة إحياء كتب السنَّة، مصر - القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ.

٥٦. الصَّحيح من سيرة النَّبي الأعظمﷺ، جعفر مرتضى العاملي (ت: ١٤٤١هـ)، النَّاشر: المركز الإسلامي للدراسات، ط٥، ٢٠٠٥م- ١٤٢٥هـ.

٥٧. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠ هـ)، المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السَّامرائي، النَّاشر: دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، (د.ت).

٥٨. العقد الفريد، أحمد بن محمَّد بن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد الترحيني، النَّاشر: دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٥٩. الغارات (ط - حديثة)، إبراهيم بن محمَّد بن سعيد بن هلال الثَّقفي (ت: ٢٨٣هـ)، النَّاشر: لجنة الآثار الوطنيَّة - طهران، ط١، ١٣٩٥هـ.

٦٠. غُرَرُ الحِكَم ودُرَرُ الكَلِم، عبد الواحد بن محمَّد التميمي الآمدي (ت: ٥٥٠هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة الإعلام التَّابعة للحوزة العلميَّة بقم - إيران، (د.ط)، (د.ت).

٦١. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمَّد الليثي الواسطي (ت: القرن السَّادس)، المحقق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، النَّاشر: دار الحديث، (د.ط)، (د.ت).

٦٢. فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، أحمد بن محمَّد بن عقدة الكوفي (ت: ٣٣٣ هـ)، النَّاشر: دليل ما، إيران - قم، ط١، (د.ت).

٦٣. في رحاب زيارة الجامعة، علي الحسيني الصدر، النَّاشر: دار الغدير، المطبعة: سرور، ط٢، (د.ت).

٦٤. في ظلال نهج البلاغة، محمَّد جواد مغنية (ت: ١٤٠٠هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة دار الكتاب الإسلامي، مطبعة: ستار، ط١، ١٤٢٥هـ.

٦٥. قرب الإسناد (ط - حديثة)، عبد الله بن جعفر الحميري (ت: النصف الثَّاني من القرن الثَّالث)، النَّاشر: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٦٦. قصص الأنبياء، قطب الدِّين سعيد بن عبد الله الراوندي (ت: ٥٧٣هـ)، النَّاشر: الهادي، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، ط١، (د.ت).

٦٧. القاموس المحيط، محمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٦٨. القصص التربويَّة عند الشيخ محمد تقي فلسفي، لطيف الراشدي، دار الكتاب الإسلامي(د.ط)، (د.ت).

٦٩. كتاب سليم بن قيس الهلالي، سليم بن قيس الهلالي (ت: ٧٦هـ)، النَّاشر: الهادي، إيران - قم، ط١، ١٤٠٥ هـ.

٧٠. الكافي، محمَّد بن يعقوب بن إسحاق الكُليني (ت: ٣٢٩ هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلاميَّة، إيران - طهران، (د.ط)، ١٣٦٥هـ.

٧١. كمال الدِّين وتمام النعمة، محمَّد بن علي بن حسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ)، النَّاشر: الدار الإسلاميَّة، طهران - إيران، ط٢، ١٣٩٥ هـ.

٧٢. كنز العمال، علاء الدِّين علي المتقي بن حسام الدِّين (ت: ٩٧٥هـ)، تحقيق وضبط: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: صفوة السقا، النَّاشر: مؤسَّسة الرسالة - بيروت - لبنان، (د.ط)، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٧٣. اللهوف في قتلى الطُّفوف، السَّيد ابن طاووس (ت٦٦٤هـ)، النَّاشر: أنوار الهدى، قم- إيران، المطبعة: مهر، ط١، ١٤١٧هـ.

٧٤. لسان العرب، محمَّد بن مكرم ابن منظور (ت: ٧١١ هـ)، النَّاشر: دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٧٥. المحاسن، أحمد بن محمَّد بن خالد البرقي (ت: ٢٧٥هـ، وقيل ٢٨٠هـ)، دار الكتب الإسلاميَّة، قم، ط٢، ١٣٧١هـ.

٧٦. المسترشد في إمامة عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، محمَّد بن جرير بن رستم الطبري الآملي الكبير (ت:٣٢٦ هـ)، النَّاشر: كوشانپور، إيران- قم، ط١، ١٤١٥هـ.

٧٧. معاني الأخبار، محمَّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصَّدوق (ت: ٣٨١ هـ)، طبعة جماعة المدرسين، قم المقدَّسة- إيران، (د.ط)، ١٤٠٣هـ.

٧٨. من لا يحضره الفقيه، محمَّد بن علي بن حسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصَّدوق (ت: ٣٨١ هـ)، طبعة انتشارات إسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ط٣، ١٤١٣هـ.
٧٩. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمَّد هارون، النَّاشر: دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩هـ.
٨٠. مصباح المتهجِّد وسلاح المتعبِّد، محمَّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، النَّاشر: مؤسَّسة فقه الشيعة، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٨١. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)، المحقِّق: محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، النَّاشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت).
٨٢. مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، النَّاشر: دار القلم، الدَّار الشَّاميَّة - دمشق، ط٤، ١٤٣٠هـ.
٨٣. مقتل الحسين عليه السلام، الموفق محمَّد بن أحمد المؤيد أبي سعيد اسحاق المكي الحنفي الخوارزمي (ت:٥٦٨هـ)، النَّاشر: أنوار الهدى-قم، ط٢، ١٤٢٣هـ.
٨٤. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، سعيد ين هبة الله الرَّاوندي (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: السَّيد عبد اللطيف الكوهكمرة؛ السَّيد محمود المرعشة، نشر مكتبة آية الله المرعشي العام- قم، (د.ط)، ١٤٠٦هـ.
٨٥. مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، أبو جعفر محمَّد بن علي بن شهر أشوب السروي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، النَّاشر: علامة، إيران- قم، ط١، ١٤٢١هـ.
٨٦. مكارم الأخلاق، الحسن بن الفضل الطبرسي (ت: القرن ٦)، النَّاشر: الشَّريف الرَّضي، قم، ط٤، ١٤١٢هـ.
٨٧. معجم البلدان، شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، النَّاشر: دار صادر، بيروت، ط٢، (د.ت).

٨٨. مختار الصحاح، محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (٦٦٠هـ)، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (د.ط)، ١٤١٥هـ.
٨٩. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، علي بن الحسن الطبرسي (ت: القرن السَّابع الهجري)، النَّاشر: دار الحديث، تحقيق: مهدي هوشمند، ط١، ١٤١٨هـ.
٩٠. المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي (ت: ٨٥٠هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٩١. مجمع البحرين، فخر الدِّين بن محمَّد الطريحي (ت: سنة ١٠٨٧هـ)، مكتبة المرتضوي، طهران، إيران، ط٢، ١٣٦٥ش.
٩٢. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول صلى الله عليه وآله، محمَّد باقر بن محمَّد تقي المجلسي(ت:١١١١هـ)، النَّاشر: دار الكتب الإسلاميَّة، المطبعة: مروي، ط٢، ١٤٠٤هـ.
٩٣. مستدرك وسائل الشيعة، حسين بن محمَّد تقي النوري الطبرسي (ت: ١٣٢٠هـ)، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم - إيران، (د.ط)، ١٤٠٨هـ.
٩٤. المنطق، محمَّد رضا المظفر (ت: ١٣٨٣ هـ)، دار التَّعارف للمطبوعات، ط٣، ١٤٢٧هـ.
٩٥. الميزان في تفسير القرآن، محمَّد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢ هـ)، النَّاشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د.ط)، (د.ت).
٩٦. مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (ت: ١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م.
٩٧. معجم رجال الحديث، أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١١هـ)، ط٥، ١٤١٣هـ.
٩٨. مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني الخطيب (ت: ١٤١٤هـ)، النَّاشر: دار الزهراء عليها السلام، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
٩٩. مكاتيب الأئمة عليهم السلام، علي أحمدي ميانجي (ت: ١٤٢١ هـ)، النَّاشر: دار الحديث، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٠٠. من أخلاق العلماء، محمَّد الحسيني الشيرازي (ت: ١٤٢٢هـ)، مركز الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للتحقيق والنشر، ط١، ١٤١٧هـ.
١٠١. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد (ت: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ.
١٠٢. معرفة المعاد، محمَّد الحسين الحسيني الطهراني (ت: ١٤١٦هـ)، دار المحجة البيضاء، ط١، ١٤١٨هـ.
١٠٣. المؤلفات الكاملة، محمد حافظ إبراهيم، النَّاشر: مؤسَّسة هنداوي، مصر، (د.ط)، (د.ت).
١٠٤. منهاج الصالحين، أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣هـ)، ط٢٨، ١٤١٠هـ.
١٠٥. منهاج الصالحين، محمَّد سعيد الحكيم (ت: ١٤٤٣هـ)، دار الهلال، النَّجف الأشرف، ط٣، ١٤٢٤هـ.
١٠٦. من لا يحضره الخطيب، حسن داخل، تقديم السيِّد الحسينيّ، ط: بيروت، (د.ط)، ١٩٩١م.
١٠٧. مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش، النَّاشر: دار الرَّشيد، ط٢، ١٤٠٣هـ.
١٠٨. من بلاغة الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، عادل حسن الأسدي، النَّاشر: المحبين، إيران- قم، المطبعة: رسول، ط١، ١٤٢٧هـ.
١٠٩. ما يحتاجه الشَّباب، أحمد الصادقي، ترجمة: السيِّد علي الهاشمي، النَّاشر: ناظرين، ط١، ١٤٢٥هـ.
١١٠. نزهة النَّاظر وتنبيه الخاطر، حسين بن محمَّد بن حسن بن نصر الحلواني (ت: القرن الخامس الهجري)، مدرسة الإمام المهدي (عجَّل الله فرجه الشريف)، قم- إيران، ط١، ١٤٠٨هـ.
١١١. نخبة الشَّرحين في شرح نهج البلاغة، عبد الله الشبر، النَّاشر: انتشارات محبين، المطبعة: النَّهضة - إيران- قم المقدَّسة، ط١، ١٤٢٥هـ.

١١٢.نوادر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدِّين، الفيض الكاشاني، محمَّد محسن بن مرتضى (ت: ١٠٩١ هـ)، النَّاشر: مؤسسة الأبحاث الثّقافية، طهران، ط١، ١٤١٣هـ.

١١٣.نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعه الشَّريف الرضي أبي الحسن محمَّد بن الحسين بن موسى (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق: السيِّد هاشم الميلاني، مراجعة مركز إحياء التراث التَّابع لدار مخطوطات العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، الطبعة: الثانية، كربلاء، العراق، مكتبة العتبة العبَّاسية المقدسة، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

١١٤.شرح نهج البلاغة، محمَّد عبده(مفتي الديار المصريَّة سابقًا)، دار الذخائر، قم - إيران، ط١، ١٤١٢هـ.

١١٥.نفحات الولاية، ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء، دار جواد الأئمة عليهم السلام، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٢هـ.

١١٦.وقعة الطَّفِّ، لوط بن يحيى أبو مخنف الكوفي (ت: ١٥٨هـ)، النَّاشر: جماعة المدرسين، إيران- قم، ط٣، ١٤١٧هـ.

١١٧.الوصيَّة الذَّهبية: مجيد الصَّائغ، مطبوعات الأعلمي، ط١، ٢٠٠٩م.

١١٨. الوصيَّة الخالدة، عباس علي الموسوي، دار الأضواء، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.

المحتويات

الفصل الأوَّل: البناء القِيَمي للمجتمع..........................٥

المبحث الأَوَّل: مبادئ التَّكامل الإنساني.......................٧

المطلب الأوَّل: معايير سامية للعلاقات الاجتماعيَّة....................٨

المطلب الثَّاني: آفة العقول وآلة الوصول ١٣

المطلب الثَّالث: السَّعي في طلب الزَّاد............................ ٢١

المطلب الرَّابع: اجتياز العقبات...................................٣٤

المطلب الخامس: مظاهر الرَّحمة الإلهيَّة.............................. ٤٠

المبحث الثَّاني: ركائز وعي المجتمع..............................٥٣

المطلب الأوَّل: الدعاء وسيلة لتحصيل النِّعمة وكمال الرَّحمة.............٥٤

المطلب الثَّاني: ضرورة ذكر الموت.............................. ٦٢

المطلب الثَّالث: فوائد ذكر الموت...............................٦٨

المبحث الرَّابع: معرفة أهل الدُّنيا...............................٧٤

المطلب الخامس: ضرورة النَّظرة الواقعيَّة إلى الأمور......................٨٢

المبحث الثَّالث: وسائل التَّغيير الفعَّال.......................... ٩٣

المطلب الأوَّل: غايات ووسائل.............................. ٩٤

المطلب الثَّاني: صلاح الفكر والعمل..........................١٠٢

المطلب الثَّالث: الرَّأي الصَّائب...............................١١٠

المطلب الرَّابع: مقدِّمات الأعمال الصَّالحة..........................١١٧

المطلب الخامس: من درر الكلام..............................١٢٧

الفصل الثَّاني : مرتكزاتُ البناءِ المجتمَعي **١٣٤**
المبحث الأوَّل: أصول العلاقات الاجتماعيَّة **١٣٥**
المطلب الأوَّل: قواعد التَّعامل مع بعض الأخطار ١٣٦
المطلب الثَّاني: حقوق الأصدقاء ١٤١
المطلب الثَّالث: الحركة بين الصَّديق والعدو ١٤٧
المطلب الرَّابع: من أحكام الإخوة ١٥٥
المطلب الخامس: عوامل تُفكك الروابط الاجتماعيَّة ١٦٢

المبحث الثَّاني: سُبل الكسب والحكمة **١٧٥**
المطلب الأوَّل: السَّبيل الى طلب الرِّزق ١٧٦
المطلب الثَّاني: الموعظة بين القبول والرَّد ١٨٥
المطلب الثَّالث: لطائف الحِكم ١٩٠
المطلب الرَّابع: معرفة الحدود ١٩٦

المبحث الثَّالث: فنُّ الإدارة والتَّعاون **٢٠٩**
المطلب الأوَّل: تجفيف منابع الشَّر ٢١٠
المطلب الثَّاني: التَّعامل مع المرأة ٢٢١
المطلب الثَّالث: مبادئ التَّعامل الحكيم ٢٣١
المطلب الرَّابع: حسن الخاتمة ٢٣٦
المصادر والمراجع **٢٤٢**